صدر الدين شرف الدين

هَاشِم وَأُمَيَّة

في الجاهليّة

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

ان يقف ابن بين يدي ابيه ، يقدم لكتاب له ، امر لا يخرج عن المألوف من عادات الناس ، وطبيعة الامور . فقد رايت ابي نفسه يقدم لابيه ، ورايت عددا من الابناء الميامين الذين ورثوا آباءهم ، وحذوا حذوهم ، أكانوا ذوي ارث مفطور ومطبوع ، أم كانوا أقل ارهافا وأدنى تهذيبا وتثقيفا من آبائهم. لكنهم حملوا عبء ما ترك الآباء وساروا درب ما خط هؤلاء الآباء .

لكن ان يقف المجهول من المعلوم للتعريف به والفرع المغمور من الساق الباسقة ليدل عليها ، مسألة تستلفت النظر وتسترعي الانتباه .

تقفز الى ذهني في هذا الصدد حادثة كنت شاهدها . عندما طبعت دار نشر كتابي ابي «ايام في القاهرة» و«كان في اليمامة» . جاء صاحب دار النشر ـ وهو (رحمه الله) صديق وعزيز ـ عند الحساب ، يشكو الخسارة ، ويعتذر بالتضحية في طبع الكتابين ويقدم اخلاصه وصداقته في نشرهما على قصد الربح . ولم يكتف بذلك بل خصني بالاقبال على أذني يهمس بها سرا فيقول «لم أقصد من نشر الكتابين ، الا تعريف اسم ابيك الى السوق» . وبهتني يومئذ العذر ، فدهشت ، ووقفت مبهوتـا ، لا

أحري جوابا .

انما بقي ذهني كليلا لا يفقه كيف يدل المجهول على المعلوم ؟ وكيف يعرف المغمور المشهور ؟ عجبا !! لم تخطر ببالي يومها اني سأبتلى بموقف مشابه، وان شكلا ، مع اختلاف المضمون والقصد .

* * *

فأنا وابي جيلان ، يفصل بينهما مرحلة تحول تاريخي ، تتباين في طرفيها الملامح والسمات ، والاسس والمقومات ، لكلا المرحلتين .

فان كنت لا اريد عقد المقارنة بين فلسفتيهما وفكريهما السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، واسسهما الحضارية والمدنية ، ووسائل العيش فيهما وانتقالها من مرحلة بدايات القطار والسيارة والكهرباء ، الى مرحلة الصواريخ والاقمار الصناعية وتحطيم سرعة الصوت وسيل التكنولوجيا ، كالطوفان يغمر حياة الناس بوسائل عيش ، وأساليب تأثير ، وقوى فعل في تبديل حياتهم وافكارهم وعاداتهم .

كانوا الجيل الاخير لعصر التزم قضاياه وامتلك وسائله ، ووقف في الخندق الاخير يجاهد عن قيم اصيلة محددة واضحة ، لا خلب فيها ولا أضواء لامعة تعشي البصر ، وتحير الفكر ، وترهن الحياة بمجموعات من المصالح ترتفع الى مستوى القيم العليا ، وتحل محل البحث عن الحقيقة ، وتزين الرذائل ببريق التقدم والتطور ، وتنعى على الفضائل باتهامها بالرجعية والتأخر .

اذا كنت لا اريد هذه المقارنة لانها في متناول الجميع اليوم من جهة أولى ، ولانها تصرفني عن ما أود من هذه المقارنة مما يحدد معنى التعجب من موقفي ، موقف المجهول من المعلوم ، والمغمور من المشهور .

لا يتبادر للذهن ان الجواب والرد البدهي هو المقصود ، والجواب البديهي سهل ميسور التناول ، صدر الدين رجل تخرج من جامعة النجف الاشرف بامتياز يشهد له به معلموه ومزاملوه ، ويتعداهم الى قراء العالمين العربي والاسلامي ، ويزكي هو امتيازه هذا بقلمه وفكره ، ونضاله والتزامه صراحة الحق ، وشدة النضال ، وثاقب الفكر ، مع نصاعة بيان ، وجمال بنيان ، ويسر تناول وسهولة استيعاب ، ـ رغم ما حورب به من ادعاء صعوبة فهم ما يكتب ـ وصفاء في المعنى والمبنى ، ومن هنا خطره ، ومن هنا شهرته وشيوع معرفته ، واجماع الفريقين من حاسديه ومحبيه ،

ومعاديه ووواديه على الاعتراف له بالسبق ، واحترام وتقدير نتاجه في اي حقل حصد قلمه ، او أونق زهره ، او أينع ثمره .

* * *

اشرت ـ فيما سبق ـ انه خريج جامعة النجف الاشرف ومدرستها . ونحن جيل تخرج من مدارس الانتداب ومناهجها .

فكانوا على بينة من أمورهم ، ووضوح معارفهم ، وتحديد اهدافهم ، وامتلاك اسبابهم ووسائلهم ، واصبحنا وامورنا في أيد غيرنا ، ومعارفنا خليط عجيب من قصاصات ماض يراد له الزوال ، فيشوه ، ومستقبل لا يراد لنا ان نرقاه ، فيحجب ، واهداف تصغر حتى تغدو سعيا وراء لقمة عيش ، وطمأنينة الى وظيفة او مركز عمل ، بأسباب هي الزلفى لاوثـان صنعها المنتدب ، ومباخر نحرق فيها كرامتنا وحريتنا وجوع اطفالنا ، لهذه الاوثان الصفار التي تركت مصائرنا في أيديها ، وانيطت حياتنا برغباتها وشهواتها وغضبها ومرضاتها ، وأيام انتحاسها التي لا نعيم فيها ولا من ينعمون .

كان لهم الدين مناهج تتفتح على الدنيـا والكون مسارب الى معارف شتى ، ينتظمها جميعا مهما بعدت وتشعبت ، حمد الله العلي القدير ، فتقر في نفس الفرد والمجتمع قيمة انسانية تجاهد لمنافسة الملائكة قربا الى الله وحلولا في رحابه ، وتبصرا في غاياته فيما خلق ولِمَ خلق .

وامست المحسوسات غاياتنا ، نمرغ في أوحالها ورذائلها انافا ركبها الله للشموخ فأذللناها ، وابصارا ارحب في مداها ، فكففناها ، واسماعا اوعاها فصممناها . وانفسا فردة حرة منمازة ، قدمناها للقيد واستعبادنا جباهها ونسلها ، ومحونا فرادتها وخصائصها ، وغيبناها في طخياء مدلهمة لا بصيص فيها ولا بارقة امل .

فكنا المجهول المغمور ، فكيف لنا ان ندل على المعلوم المشهور .

كانوا جيل ثورة واجهت انحسار انحطاط ، وبداية غزو مبهم . كـان الانحطاط شاملا عاما ، الا من نفر هنا وهناك يقف نبراسا تجتمع اليـه الناس من دوامة الانحسار ، وشدة الكر . ذاك يجمع أذياله موليا ، وهذا يبسط ظله قائما ، وبين هذا وذاك صوت هؤلاء النفر من هذا الجيل يهدي من ضلال ويواسي من انخذال . واثق النبرة مطمئن الصدر مؤمن بربه اولا

وبقومه دوما ، وان رنحتهم الاعاصير ، وتقاذفتهم الرياح ، ولعبت بصروفهم الاقدار . فلا بد من استكانة الاجواء ، ومن هدأة للعواصف والانواء ، ووقفة استطلاع واستجلاء ، وموقف استرجاء وتقويم ، واعادة ربط للواقع بأصوله وجذوره مع الاستفادة الحقة مما أنتج الواقع الحاضر ، والابتعاد عن البهرج الزائل ، الذي هو المغمر المجهل ، والذي يقتضي وسيلة وسبيل الى معلوم مشهور من واقع عشناه على هذه الارض ، ولنا استمرار عيشه بثوابته الراسخة ، ومراعاة ما يلائمنا من متغيراته التي يهروها الزمن وتقتضي تبديلها احوال التبدل والتغير ، ليكون لنا في صميم ثوابتنا ومتغيراتنا معنى الحياة ، وقيم العيش الكريم ، وافاضة المدنية الرفهة ، وفضيلة الحضارة الدافعة الى ما هو اسمى وأجمل واعلى .

واول الوسائل والاسباب عودة الى أعلامنا ، ومشاهير أبطالنا ، ممن كتب وناضل وجاهد في سبيل الله وسبيل قومه وأمته ، أكان مفهوم القوم والامة في دائرته المصغرة ام كان في مداه الانساني الارحب . فحياة الانسان في هذه الارض تصطرع بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة، بين ما يشدها الى الرغام وما يرفعها الى الغمام . مهما اختلفت شكول المغريات ووجوه المحرضات ، وتعددت اسماء الشياطين او المصلحين ، وافتنت طرق الفتنة او تنوعت سبل الارشاد . فالانسان نفس بشرية ، جبلها الله سبحانه وجبل معها فجورها وتقواها .

فالعودة الى تراثنا والاحساس بواقعنا والنظر الى غدنا . هذا المخاض المحمول في رحم تاريخنا الحاضر ، نحن مسئولون عن وليده . فان أحسنا العناية بالأم – وهي هنا بشرنا ومجتمعاتنا وثرواتنا وامكاناتنا – جادت بمولود صحيح معافى طيب حميد . والا كان مولودنا عليلا سقيما خبيثا مذموما .

فلننظر الى آمالنا وطماحنا وعاقبتنا ماذا نريد ؟

ففي امثالنا الشعبية (ما وضع في الدست حملته المغرفة) . نحن في المخاض وقد تقاطرت علينا أمم الارض كالذباب على حلو الطعام . فكيف لا وارضنا التي بارك الله فيها ، قدس من الارض ووفر في الثروات ، وخصب التربة وكنوز لا تحصى في باطنها ، ونحن على ضاهرها ساهون لاهون لا ندري اي خلق الله نحن ، لا نتعض بأنفسنا ولا نتعلم من أعدائنا ، ولا نحمد لله سبحانه نعمة واحدة من نعمه التي لا تحصى ولا تعد وأولها ان جعل ارضنا مهبط الوحي ومزدلف الملائكة ، ومركز الرسالات من مصر الى

بيت لحم والقدس الى مكة ، وبشرنا بوحدانيته التي هي حريتنا المطلقة . وحرضنا على الانتشار في الارض فأقمنا الحدود من أوهامنا ، وحضنا على طلب العلم والمعرفة وأمرنا بالتأمل والتفكير، فاستسلمنا الى سبات خدر تلهو به أشباح الوهم واخيلة الاحلام ، ونحن لا ندري الحقيقة من الظلال ولا الماء من السراب . بينما يقهرنا عدونا بالعلم ويفوقنا بالملموس من المادة ، وينصب نفسه علينا وليا يتصرف بمصائرنا تصرف إله ونحن اليه صائرون ولعبادته ساجدون . فان قام منا قائم لمناهضته استجدى بعض القوة من خصمه نفسه ، يعطينا منها ما يجعله يلهو بنا وهو يعلم انها اصغر من ان تقف بنا ، او تنتصر لنا . فنعود بأحباط وهزائم تضاف الى احباطاتنا وهزائمنا ونعود لنهرع اليه ثانية لينقذنا فيعود ليلهو بنا ، وقد مسحت ادمغتنا من ذاكرة او ذكاء فكيف السبيل الى تعلم .

جيلنا الذي سبق قهر من ضعف لكنه كان يعرف الوسيلة والغاية . فتركنا ما قدم لنا من خبرة، وحدنا عما نصب لنا من مرمى . فهلا عدنا الى الطريق ويممنا شطر القبلة .



كان لا بد لنا ان نضع الكتاب في اطاره الحقيقي فهو ـ وأمثاله من كتب للأعلام من روادنا ـ لا يمكن ان يكون مجرد كتابة في الماضي وتحقيق في التاريخ فهم انما كتبوا ما كتبوا للحاضر المعاش وللمستقبل القادم . كتبوا في المجد لنفخر ، وأرخوا لننتسب ، وحققوا لنتعلم ونوفر التجارب . ثم هم بعد ذلك عالجوا الحاضر لغة وفكرا وخطة عمل ، وأرشدوا لبناء الغد على أرسى الاسس ، وأحكم المفاليق ، ونبهوا للفجوات والهنات لنعمل نحن على سدها ونوصي ابناءنا بتعهدها ان اصابوا الغد يوما لهم ، وأمسى يومنا امسا لهم .

★ ★ ★

قبل الاستطراد فيما يمكننا قراءته في «هاشم وأمية» والتي سنختم هذه المقدمة بها بعون الله ، تستوقفني ملاحظات سبقت ومهدت لاعادة طبع هذا الكتاب طبعة ثانية .

اما الملاحظات : فهي رؤية الجحود الاجتماعي في اوساطنا العربية عامة تجاه رموز هذا المجتمع التي وهبته حياتها وامكاناتها ونتاجها . واحمل المجتمع هذه المسئولية لاني ارى ان الفرد وقد قضى ما عليه ، وتوفاه الله برحمته ، عاد ملكا اجتماعيا لا يخص ورثته من ابناء واهل . وان كان هؤلاء غير معفيين من مسئولية التنبيه والتذكير ، فالمجتمع كائن عام لا بد له من وكلاء يقومون بوظائفه ، ويسعون بأعماله . ولست اذكر ذلك بخصوص صدر الدين وحده ، فقد رايت الاهمال يحوق بأبيه ، ورأيته يحيق بالعديد العديد من رموز هذا المجتمع ، الا من احاطته السياسة بعناية استغلاله ، او وجد من ورثته او المنتفعين به مناسبة يرقون به سلما .

طبيعي انا لا ادعو لاقامة نصب وتماثيل لهذه الرموز ، مع ان بعض قطاعاتنا الاجتماعية تقلد الغرب في هذا المنحى . كما اني لا انكر على بعض المؤسسات التي تعنى باقامة ندوات دورية تمر هذه الشخصيات خلالها مرور الكرام .

انما ادعو ان يصبح هؤلاء مذكورين في مجتمعهم كوسيلة لحفظ التراث وانتقال الفضائل بتدارس سلوكاتهم وآثارهم في المجالس الشعبية واللقاءات اليومية ، لتتوزع عبقرياتهم على جميع الناس يستفيد منها الكبير والصغير. لتنتقل بهذا قواهم الفردة فتصبح قوة اجتماعية كبرى ، وتهيأ لظهور عبقريات اخرى اكثر عددا وابرع انتاجا .

فنحصن مجتمعنا بتراث ثابت يعي من خلاله ما يحافظ عليه منه وما يخضعه للتغير، فيصمد فعلا تجاه هذه البلبلة الفكرية التيولدت لدى كل فرد في المجتمع الشك وعدم الثقة بنفسه عدا عن مجتمعه وقادته واحزابه وسياسييه وكل العاملين على الارض التي يعيش فيها . وبالتالي لم يجد بديلا عن المادة ووسائلها واساليبها فهدر كل ما له من قيمة انسانية في سبيل عبادتها والتوسل بمن وما يوصله اليها ، لانه رأى المجتمع يعبد هذا الاله ويصلي له ، ووجد النفر الضئيل من الملحدين به مضطهَدين جائعين معزولين .

لنتغلب على هذه العلة علينا اقامة الندوات الشعبية في الجوامع والمحافل والنوادي والمدارس وكل مناسبة تجمع الناس في فرح او ترح. تعقد هذه المنتديات حول شخصياتنا تدرس خبراتهم ونتاجهم وانتصاراتهم وانكساراتهم في معارك الحياة والنتاج الفكري والادبي ، لا في ساحات الوغى والطعان ، لنستخلص العبر ونزرع سلوكا من خبرة هؤلاء ننمي به ثقافتنا

الاجتماعية ووعينا العام ، ونحصن النفوس في معارك امتنا مع اعدائها فيقف من يقف صامدا عن علم وارادة ، لا اضطرارا وخوفا وعدم قدرة على الهرب.

نرى ان كل أمة تفخر بتراثها ، تقيم له المتاحف والمهرجانات والاعياد والذكريات ، وتمجد أبطالها باحتفالات سنوية ، وتطبع تراثهم وتناقشه وتجدد النظر فيه ، بل هي تتجاوز ذلك الى الافذاذ من أمم اخرى تجد الفائدة في تعريف مجتمعها عليهم والافادة من علمهم واختبارهم ، ونحن نهمل ، ونهمل .

* * *

فان فاتنا حتى الان ما أملنا من اشاعة أبطالنا ومفكرينا في مجتمعاتنا، فان الله سبحانه وتعالى اعان بما اتاح من الظروف العامة التي يعيش بها عالمنا المعاصر ، من ان تتجه الانظار الى التراث ، وتهوى الافئدة الى الجذور ، وتنصرف الهمم الى البحث عن هذه الثروات الفكرية تنشرها وتتدارسها وتتناقش حولها .

ومن جملة هذا التراث ما نضعه بين يدي القاريء بعقد بيننا وبين الاستاذ السيد احمد اكرم الطباع صاحب دار القلم للطباعة والنشر .

نقدم جملة من اسلاميات صدر الدين نبدؤها بـ «هاشم وأمية» وهو هذا الكتاب الذي بين يديك ، نتبعها بـ «حليف مخزوم» وهو قصة الاسلام في ظهوره ، يحياه احد أبطاله الاوائل عمار بن ياسر . ثم نقدم اليك كتابا ثالثا وربما رابعا ، يجمع كتابات صدر الدين الاسلامية فيما نشر له في مجمل حياته ، وبعض مما اهملَ نشره او اخَّره لاعادة النظر فيه ، او اكمال ما بداه منه . اما وقد تم طبع الكتاب فقد اتاني الناشر يستحثني المقدمة... فوقفت من اوراقي أسأل كيف يعرّف المجهول المعلوم ؟ ام كيف يدل المغمور على المشهور ؟

* * *

يسكن الليل في بحمدون الضيعة وتختفي الاصوات الا من سيارة عابرة في أوقات متباعدة على عكس النهار الذي لا يهدأ فيه هذا الشارع ولا تعيس السيارات من عبوره .

وفي سكون الليل تتهادى النسمات سكرى فهي غير معنية بمشاكل الناس ومخاوفهم واحزانهم وكل ما يقلقهم من أمن الغد ، وعدم اطمئنان الساعة . وهي لم تكترث لحيرتي في تمشي الليلي على هذه السطيحة الملحقة بداري ألوم نفسي على وعد قطعته دون ان أعلم يقين انجازه ، او اعطه وقته الكافي في الانجاز ، فتلفني النسمات بحنان وينحسر عني ضباب السحر، فأجدني اسير الى أوراقي اقعد معها «بين يدي الكتاب» . ثم لا اجد نفسي بين يدي هذا الكتاب «هاشم وامية» بالذات الأدبج مقدمته . ففي ذهني ما هو أبعد من المقدمة ومن الكتاب . ومن هنا اختلاط الامر علي ، واستحواذ القلق والحيرة علي ايضا . فلو كنت في صدد مقدمة لكان الامر هينا يسيرا. فقراءة الكتاب نفسه تقدم لنا الوفير مما يتناوله من اعتاد كتابة المقدمات لكثير من الكتب التي تملأ السوق .

ان موضوع الكتاب ، بما ينم عنه عنوانه يشكل مادة جزلة ، وميدانا فسيحا ، ومدى رحبا للمتناول كتابة المقدمة .

يجد في الجزالة ما لا يسعه البخل معه .

ومن الانفساح ما لا نكوص عنه .

ومن الرحابة ما لا ضيق فيه .

فهاشم صفة لفعل وعمل ، وهي صفة اصبحت سنّة ، واتخذت من قوم هاشم عادة ، تنتزع لهم من معاصيرهم اسمها في صفاتهم من سلوكهم وافعالهم واعمالهم وسماتهم وسيمائهم .

وكان «أمية» ـ كما سترى بقلم صدر الدين وكشفه ، وأخذه بيدك الى مواضع يسلط عليها وضح النور ، وبيان الضوء ـ نقيضا .

كأن الله سبحانه وتعالى جمعهما في فترة واحدة ليبرز النقيض منهما نقيضة ، ويظهر الضد فيهما ضدة : في نفسيهما ، وفي ولدهما ، حتى نبوة رسول الله محمد (ص) .

ويتجاوز التناقض والتضاد زمن محمد (ص) وبدفعه العظيم الى ابنائه الميامين ، وابناء امية يدفع في مناقضتهم ابناء محمد (ص) ابو سفيان المعاصر للنبي (ص) والباقي بعده يكد ويجهد لاتمام ما بداه جده امية ، حتى لترى تناقضهما منهجين في الحياة محكومين بالصراع ابد الدهر . ومحكومين كذلك ليكون احدهما نقيض الآخر وضده ووارثه ، اذ هما من التباين والبعد بحيث لا يجتمعان الا على حد سيف ، او على انقاض احدهما واسلابه وسباياه كما جسّد ذلك احسن تجسيد الحسين بن علي

سبط محمد النبي (ص) ويزيد بن معاوية بن ابي سفيان .
وان شئت الاستمرار في عرض هذا التاريخ لما انتهيت حتى لو انـك صرت الى يومك هذا !! اصرت اليه في ابناء محمد (ص) وجده هاشم ، وابناء ابو سفيان وجده امية . ام صرت في منهجيهما ، ومن من الناس اخذ بيده لواء امية وابنائه او من آل اليه لواء هاشم . ام تراك ستنظر الى مآلهما بعد يومك هذا في حادثات الايام ومقبلاتها .
الا ترى معي سهولة التقديم للكتاب ويسره ، خلال هذا المدى الذي يبسطه أمامنا عنوانه ؟ ونحن لم نقلب من الكتاب صفحة واحدة ، ولا قرأنا منه كلمة واحدة . فكيف اذا استعرضت اشخاصه وافراده ، وتجولت في مجتمعهم وعصرهم ، ونظرت الى مبادئهم وأخلاقهم واطلعت على عاداتهم وسلوكاتهم ، وعشت ايامهم ومواقعهم ، وشاركت في أفراحهم واتراحهم اذآ استطالت المقدمة الى كتاب بل ربما الى كتب .
وان اتجهت الى الكاتب واسلوبه ، وقارنت بينـــــه وبين من تناول الموضوع من قديم من كتب فيه او محدثـــة ، لغرقت في أبواب النقـــد وشعابها ، وقارنت بين كتاب كل عصر ضمن مقومات ذلك العصر ، ودرّجته بين أقرانه يومها قبل انتقالكالى قاسم مشترك للعصور تطمئن الى موضوعية منهجك فيه ، وحيادك في المقارنة بين كتاب عصور مختلفة ، بعد أن تكون قد جمعت كل عصر على ما أتلف في التفاضل ، وما اصطلح عليه في الموازنة لتضع الكاتب الحديث مكانه من عصره ، ومن العصور ما بينه وبين موضوعه. فتبرز خصائصه وتظهر مميزاته او تنعى عليه أخطاءه وهناته .

★ ★ ★

سقت لك ـ ما سبق ـ مثلا لبعض ما يمكن تناوله بين يدي كتاب ، لاخرج نفسي من هذا الاطار ، واضعها حيث اجد الاطـــار اكثر ملاءمة ، والصق مناسبة واقرب آصرة واحر حميمية . فأقف بين يدي ابي ، وبين يدي عصري وزمني ، بين يدي مرحلة الانتقال التي يعيشها يومنا هذا . وهو في تحول لا يعرف له متحول ، وذلك بين يدي كتاب عملت شخصياته على تحديد المتحول قبل التحول . وسلمت الراية في قيادة التحول يدا بيد يقدمها السلف للخلف .
كانت ثورة على واقع وصفه نبي الاسلام محمد (ص) بالجاهلية . فكنس

منه ما يمت الى هذه الجاهلية من كل بال ومهترا ومعترض لطريق التطوير الاعظم بدين الله الاسلام . منميا ما زرعه آباؤه واجداده من بذور الخير ، مشيدا البناء فوق الاسس الصالحة التي وضعوها .

فاذا عتت الريح بعد يوم محمد (ص)، وطاولت الطحالب غروسه، ونزت الاطماع فعاشت في بنائه ، فأصوله واسسه وزروعه وبذوره ما زالت حية قائمة لم تقو عليها الاعاصير ، ولا دنستها الشهوات ، ولا اثرت فيها وسائل الهدم ، ولم يعف عليها مرور الزمن .

وبعد ماذا ستقرأ في «هاشم وامية» حين تقراه ؟

* * *

قدمت لك في بداية هذه المقدمة مقارنة انتقال بين مرحلتين واخبرتك عن اعلام ورموز نذرت نفسها للجهاد والنضال من اجل امتها وقومها . فان قراتهم فماذا تقرأ في ما كتب هؤلاء . وللتشخيص ماذا ستقرأ في هاشم وامية .

سترى ارض صحراوية جرداء ، لا ماء فيها ولا خصب ، عليها قبائل جاهلية حياتها الترحال وعيشها الغزو ، ومثالها التعصب والعصبية ، وقولها «انصر اخاك ظالما او مظلوما» ـ وهو قول جاهلي ، وخطأ في راينا نسبته الى الحديث الشريف . فالنبي (ص) الاعظم افصح واوضح من ان يحتاج الى التبرير والتفسير في مضمون كلامه ـ . سترى كل هذا القحط والجدب على صعيدي البيئة والانسان . ثم ترى نفرا من ارومة الانبياء كهاشم والمطلب وعبد المطلب والزبير وابو طالب وجعفر ، تجدهم يتلعون من ذاك الجدب خصبا ، ومن تلك العصبية اخاء ، ومن صميم الوحشية والغابية والظلم ، مساواة وعدالة وتكافؤ فرص ، ويسيرون ويسير الخير بين ايديهم، فتتفجر الينابيع، ويحفرون الآبار، وينظمون التجارة، ويعقدون الاحلاف للخير ومناهضة الشر . ويؤسسون لهذه القبائل الآكل بعضها بعضا في حروب الفجار وداجس والغبراء ، وكل يوم لهم فجار ، وما النسيئة والمقت والازلام والانصاب والاوثان الا بعض من مثالاتهم التي كانت تدور عليها حياتهم ، الى ان جاء هؤلاء النفر فخطوا بسلوكهم وفضائلهم بعد جهاد ومشقات ستراها في الكتاب ، وكأنها مقدمات لليوم العظيم يوم محمد (ص)، يؤهلون الجزيرة ويطهرون اطرافها حتى تلج قدس الاسلام ، وتعد

لاستقباله .

لكنك ان قرات هذا فقط فما قرات الكتاب .

تتم القراءة بالنظر الى مصير الارض التي كانت مسارح هؤلاء النفر ، والتأمل في كيفية بعثهم لها وافاضتها بعزم رسالة محمد (ص) حتى بلغت أمواجها الصين والهند وروسيا ومشارف فيينا وكل الشرق الاوسط من جهة ونصف افريقيا الشمالي حتى عبرت المضيق الى مشارف فرنسا . كل ذلك بعزم الاسلام . فماذا يفعل اليوم اهل الجزيرة والاسلام في ديارهم غير خنقه واطفاء أنفاسه بجلاوزة وعبيد من ابناء أمية عبد عبد شمس ومن على شاكلتهم من روم وأحباش قذف بهم البحر ليصبحوا أسياد الجزيرة وتعود قبائلها باسم الدول والامارات قبائل تحتوي قبائل في جاهلية امر وادهى من الجاهلية الاولى ، وكأنهم الاعراب الذين وصف الله في محكم كتابه «والاعراب أشد كفرا» مع فوارق كثيرة ليس ادناها فارق الزمن بما ينوف عن خمسة عشر قرنا ، وفارق الثراء من الجدب والقحط السابق الى ما يدير العام المعاصر ويتحكم بمقدراته ، الى مركز الوسط من الدنيا وكانت يومها طرفا مجهولا يزهد به الرومان والفرس ، الى عوز في البشر بعد ان فاضت وفاضت على الدنيا بموجات ملأت الارض . ترى لماذا تستورد الناس من اوربة وشرق اسيا ، ولا تزيل الحدود امام قومها العرب قبل ان نقول المسلمين ، تجعل حق مواطنتهم شرعا ، بدل اثارة عصبيات قبلية عفى عليها الاسلام وأذابها أينما حل . فاذا هي تعود الى مركز دعوته أشد ما كانت .

لنهب ان الاستعمار قد فرض علينا التقسيم الى دول او دويلات . فقد مر علينا في الاستقلالات ما يربو على اربعين عاما . فما صنعنا للوحدة ، غير زيادة التفرقة وشدة العداوة ، وخسارة نهش بعضنا بعضا ، واستعداء الآخرين على انفسنا .

عجبا لهذه الجزيرة كيف عقمت ؟! في فترة قصيرة من جدبها ولدت هاشم والمطلب وعبد المطلب والزبير وابو طالب ومحمد (ص) وجعفر. ولد من والد ، وهي منذ ذاك عقيم لا تلد اشباه هؤلاء . بل تلد أشباه اولئك العبيد من بني أمية عبد عبد شمس .

عجبا !! ان عقمت الجزيرة عن الولادة فما بال دنيا العرب عقيم .

عجبا !! وان عقمت دنيا العرب فما بال دنيا المسلمين عقيم .

أما فيهم مثل هاشم يوحد الناس بالطعام . ام مثل المطلب من يسلك بهم طرق التجارة .

ام مثل عبد المطلب يوحدهم على الماء ، ام مثل الزبير يقيم أحلافهم على التآسي والتناصر .

وحاشا ان تلد الارض كمحمد (ص) لكنه ترك فينا كتاب الله احد الثقلين فان تنازعنا حول ثانيهما ، ما بالنا لا نتفق على أولهما . وفيه الهداية الى يوم الدين .

ان لم نقرأ يومنا ، ونقرأ الفرق بين شخصيات هاشم وأمية ومن يعيش بين أظهرنا اليوم ممن يمتلكون ويحكمون سعيدا فما قرأنا الكتاب .

وبعد القراءة يبقى لكل ذي علم عمل .

٨ ـ ٨ ـ ٨١ مصطفى صدر الدين شرف الدين

هاشم وامية في الجاهلية

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم : انا الان في سبيل نفرين من عبادك اختلفا فيك ذات اليمين وذات الشمال .

ذاك جعلك غاية في دنياه وجعل الدنيا وسيلة لرضاك .

وهذا جعلك وسيلة لرضا دنياه فأنت عنده واسطة والغاية سواك .

ذاك كتب على نفسه ـ طواعية امرك ـ ان يبذل فيك مهجته ليتفيأ جنان غفرانك ويتقيّل ظلال رضوانك .

وهذا أخذ على نفسه ان يستمرىء الحياة الدنيا في سلطان لا يبالي ان كان ضاحيا فيه لنار غضبك .

وشتان بين من كنت انت من حياته غاية وبين من كنت في حيـاته واسطة لغاية الملك .

وحق على من كتب في خصمين اختصما فيك وكانا من سبيلك مكان الاثرة والايثار ان يرفع كتابه اليك ــ يا رب ــ لا يرجو عطفا غير عطفك ، ولا ثوابا غير ثوابك .

ومن ابتغى رضى احد من الناس فاني غير مبتغ الا رضاك وهو حسبي .

وليكن لي بعض الاسوة برجالك الذين ضحوا فيك ارواحهم واهليهم وأموالهم ابتغاء ثوابك وعندك ــ يا رب ــ حسن الثواب .

صدر الدين شرف الدين

تقديم

في التاسع من المحرم الحرام لسنة ستين وثلاثمائة والف هـ القيت محاضرة درست فيها (الاباء في نهضة الحسين) عليه السلام .

ألقيت هذه المحاضرة في حسينية العلامة الشيخ راضي آل يس . ولحسينية آل يس من مطلع المحرم في كل عام ايام عشرة تحتفل في أصباحها بذكرى سيد الشهداء ، فتستوحي منه ارواحا من الخير ومشاعر من الحق وهدايات من الفضيلة .

ولما التأمت الجماعة — في اليوم التاسع — وأذن في القوم ان الكلام للمنبر هدأت الانفاس وسكنت الاجراس . ورأيتني أنظر الى القوم من المنبر مشرئبين تتالع اعناقهم الي ، ورأيتني أمضي ورأيتهم يمضون معي معجبين بهذا النحو من التحليل والدراسة والفهم للحسين ولابائه حتى اذا انتهيت انتهى الي منهم دعاء وثناء ملىء بهما سمعي وملئت بهما نفسي ايضا .

ثم تنخل المجلس وبقيت منه صفوة استكفت حول الموضوع تتحفى به وتثني عليه ثم تتأدى الي فيقترح العلامة صاحب المجلس — وكان

صاحب المعالي السيد عبد المهدي اقترح ايضا قبل انصرافه — ان اضع على هذا النحو كتابا يستوعب حياة الحسين ونواحي العظمة فيه ، وينضم الى هذا الاقتراح العلامة السيد صادق الصدر وبقية الحضار ثم يطبقون على استحسان هذا الرأي ورجحانه .

ولكني قابلت هذه الثقة بالتواضع لها ثم بالاعتـذار اليهم أني ان توفرت على النهوض بهذا العبء فانه ليقعدني عنه ضيق الوقت . ويزهدني فيه انه انما ينتفع به عناكب الرفوف وزوايا الخزائن فليس في ايدينا ما يمد النشر . وليس في مجتمعنا ما يشجع عليه ، والناس في هذا البلد مؤمنون ايمانا لا حد له بان مغنية الحي لا تطرب . فمتى اتيح لاحد من الناس ان يضمن لنا في هذا البلد قراء ، ثم اذا اتيح لاحـد من الناس ان يزعزع الايمان في صدور قرائنا بهذا الرأي — متى اتيح ذلك فاني اقبل يومئذ مع المقبلين واعرف اني مخلوق لما خلقت له واني اذا أضعـت شيئـاً من اوقات عملي اجد عنه عـوضا من عملي للحيـاة يسليني عمـا اضعـت ، ويرضيني بما عوضت ، اما ان اجهد غير نافـع ولا منتفـع فذلـك ما لا استسيغه في منطق ولا عقل .

وكان فيمن حضر رجل انعم الله عليه باليسار والجدة وألهمه حب الخير والميل الى البر ، فتبرع بطبع الكتاب حين يتم ، وباعـداد المكتبـة اللازمة لانجاز تأليفه ، ثم بدا له حين أشم ان الكتاب يوشك ان يتم ، وما اعلم وجها لعدوله عن تبرعه الا ان يكون تبدل عنوان الكتاب .

ولا يعنينا من هذا الا ان تبرعه اذكى حماسة الاقتراح وعاد الدعـاة الي يبطلون به عذري . ويتمون به علي الحجة .

وماذا بعد اتمام الحجة وابطال العذر الا الاذعان ؟

* * *

أقمت بقية المحرم أفرغ لفكري في اوقات مختلفة وارسم في الذهن

خطة الكتاب فأستعرض النواحي والعناوين . واستوعب التأمل في الفصول والابواب حتى استوت الفكرة ثم استـــوت . واذا القلم بيـــدي يرقم الموضوعات في جدول كما تسلسلـــت في فكري ويرينهـــا اجزاء متمايزة سلسة القياد سهلة المأخذ .

وعلى اسم الله وبركته غمست القلم في الموضـــوع الاول فعاد الي ممتلئا ينطف واذا به يتمادى وتغريني منـــه فكرتـــه المطموسة الدارسة ، ولا اكاد أمعن فيه حتى يتراءى لي الحسين (ع) معجزا حتى فيما يكتب عنه ، فان النواة التي بذرت في ذهني منه أثمرت قبل ان يتكامل غرسها ، والفكرة التي أوحتها ابكار معانيه ولدت قبل ان تولد وأخرجت كتابا قائما بنفسه قبل ان تملي عن نفسها حرفا واحدا .

كان علي ــ وانا اصور الحسين واترجم له ــ ان اعرض الى نسبه والى موضع هذا النسب من العرب والحياة ، والى الاسباب التاريخيـــة والنسبية التي ائتمرت على اقتحام حوادث الطف وانبعث يوم الحسين (ع) من مكامنها الدموية تستبيح بحكم الوراثة ــ الى احكام السياسة ــ تلك المأساة الفاجعة .

ولم يكن هذا الموضوع على هذا النحو من الموضوعات الهينـــة التي تقنع بالاختصار والتلويح او ترضى بالاشارة والتلميح . بل كان موضوعا يستأثر بوعاته ويدعوهم الى التوسع والافاضة ، يعدل بهم عن الايجـــاز الى ما يريده لهم ولنفسه من الايضاح والوضوح ، والاعلان والاستعلان .

ثم حبب الي الانقياد له اني وقفت منه على ظلامات وظلمات تاريخية لا تنسجم والواقع بما يتفلت منها من الانصاف الجامح على الرقابات ومن بعض النور الهارب من الحجب والاستار .

فهناك اشخاص لا شأن لهم ولا مبرة في الحيـــاة اقيمت لهم الصروح ونفخت باسمهم المزامير .

وهناك عباقرة عفي على آثارهم ، وكثفت سحب من الدخان لاطفاء أنوارهم .

أمية ــ مثلا ــ وحرب ابو سفيان تنتحل لهم المفاخر وتضاف اليهم المدح في غير وزن لاعمالهم ولا قياس لمآتيهم ، وماذا صنع هؤلاء من خير يجزون عليه بهذه المثوبة التي ما تزال حتى الان تصنع رجالا يهللون لهم ويكبرون .

ورجال كالزبير مثلا والحارث والغيداق وشيخ الابطح وجعفر والعباس ايضا منسيون او انصاف منسيين يحيطهم التاريخ بالاهمال ويوسعهم اعراضا وغفلة فاذا فرض عليه ان يستعرضهم كان استعراضه اياهم استعراضا سريعا لا ريث فيه ولا امهال .

وينهض في هذا العصر اهل البحث يجرون ذيولهم على تلك الآثار فيبحثون الرجال والعصور والاخلاق والمجتمعات وفنونا كثيرة مما يصلح للبحث والنظر والايضاح ولكنك لا تجد في جملة هذه البحوث والدراسات محلا للهاشميين الا موضع الشك في اسلام من ادرك الاسلام منهم .

اما الذين لا طريق الى الشك في جهادهم في الاسلام فلهم صور حرفية استطرادية لا تنهض بالدلالة على مزاياهم ولا تصلح للابانة عن ملامحهم وألوانهم .

واما من لم يدرك الاسلام منهم فلا حظ له من البحث والعناية ابدا ؟

هذا وانهم جميعا لموضوعات نافعة لا اجدر منها بالبحث والعناية في كل قياس من أقيسة الحق والانصاف ، والبحث عنهم وفيهم اقل ما يوفونه من أجور امتيازاتهم النفسية والعملية .

هذه الظلامة ، وتلك الضلالة حببا الي الانقياد لهذا البحث الذي يشبه ان يكون بكرا او هو بكر ببعض نواحيه ونقاطه ، وحسبي منه اني

كشفت اللثام عن رجال ما تزال معانيهم غامضة تضيق بها الافهام كجعفر والعباس والزبير وكأمية . فقد وجدت الاولين مظلومين بما ذكرا بـه والثالث منسيا تكاد عظمته تموت ، اما جعفر فتختزل اختاره ويؤخر عن موضعه الطبيعي واما العباس فتسوء عقيـدة بعض الناس في كفاياتـه ومؤهلاته ، وكفاياته ومؤهلاته ارفع ما تكون الكفايات والمؤهلات .

ووجدت في نقيض ذلك أمية حيا يتمتع بما ليس له وينعم بالحياة جزافـا بلا ثمن .

بأولئك تتمثل الظلامة وبهذا تتمثل الضلالة .

وانا من القديم والجديد ـ حين البحث ـ موقف النـاظر لنفسه ولرأيه من جديد ، اتجرد ـ علم الله ـ من وراثاتي وان كنت من القائلين بأن الوراثة عامل لا ينفك عن الوارث في التوجيـه والفهم ولو حورب بالرياضة والتربية لانه جزء منسكب مع الدم في العروق والشرايين ، ولكني مع ذلك جئت الى هذا البحث وليدا ومارسته جديدا لاقع منه على الرأي واعرف انه رأيي الذي أستقـل بـه لا رأي ابي وذوي الذي آخـذه باللقانة والتلقيم .

ووالله لو وجدت غير ما رأيت في هذا الباب لأعلنت الرأي في الكتاب وأذعته كما اراه وان أغضب الناس جميعا ، وان كنت قائـلا كلمة عاطفـة فهي اني احمد الله على اني وجدت رأيي المحصل لا يخرم رأيي الموروث الذي يثبته العلم .

نعم كذلك انا الان معتقد حق العقيدة بما في هذا الكتاب . لاني صدرت فيه عن البحث في ظل الحقيقـة وابتنيت على المناقشة والاختيـار وكل ما في هذا الكتاب مما يلحق بالآراء مستوفاة فيه الروية والانـاة مستخرج من التمحيص والتثبت .

* * *

والفكرة الاولى المستخرجة من الدقة في هذا الكتاب هي ان الهاشميين نفر خلقوا من الخير المحض ورافقوا المصلحة في الاجيال والحقب يقودون الاصلاح ويدعون اليه ويتطورون في هذه الدعوة مع الحياة فكلما وجدوا سبيلا الى الزيادة في الاصلاح والتجديد ورفع الحياة تقدموا لقومهم بمثل يقتدى به وفضيلة تتبع ، وكلما ظفروا من ذلك بضرع أدروه على الناس سلسالا وعسلا وأفاضوا من أخلافه نعما وأملا .

ولعل اولى دليل بالشهادة على ذلك انهم مصدر الحضارة العربية فاليهم يرجع التشريع والاقتصاد والنظام ، ومنهم أخذت قواعد الحياة وبهم عرفت مكة سبل التجارة والري وأنظمة العدل والمساواة والتعاون وهل الايلاف ، وزمزم ، وحلف الفضول وتحريم الخمر وسنة الديات والقسامة وما الى هذه الاعمال الا مظاهر من نزوعهم الى الاصلاح والنهوض بقومهم الى حضارة كاملة واجتماع صالح يعيش الناس في فيئهما الكريم احرارا ابرارا .

ترقرقت اضواؤهم في سماء الجزيرة فكانت مبعث الخير والبركة لكل نعمى تتفيأ الحضارة ظلالها وتجري الشرائع السهلة المنظمة خلالها واندفقت من يوم هاشم ايديهم المبسوطة وانفسهم الهادية بالغيث يهمي خصبا ونماء ، فيجد العفاة على موائدهم نعيم الشبع ، والمظلومون على عدلهم فوز الانتصار ، والمكروبون على أنسهم فرحة السرور ، والجاهلون على نورهم لذة الهدى ، والظالمون على نخوتهم مرارة العدل ، والفوضويون على تعاليمهم بركة النظام .

من تتبع هذا وما اليه اعتقد ان بني هاشم مهيأون بتكوينهم ـ منذ التكوين ـ وبطبائعهم للنظر في امر الناس يقودونهم بالمثل الصالحة الى مجتمع صالح وحياة صالحة تعتمد على مقوماتها الصالحة .

ولم تكن بطونهم الا مدارج للرقي في هذه المهمة ودرجات ملحوظا

فيها امكانها ومجاراتها للتطور الاجتماعي على نحو يسهل الدعوة اليها ويقرب الدلالة عليها فكان هاشم وابناؤه مراتب من اعداد الناس ليوم يعلو فيه صوت النبي (ص) بالدعوة الى رسالته الكبرى التي كانت أتم صورة لا على دور من ادوار نضجهم وكمالهم وامتيازهم .

وليس من عمل الاتفاق ولا من تأليف الصدف في شيء ان يتفق جد وأولاد واحفاد كثيرون في أزمنة مختلفة على سمت واحد وهدي واحد من الخلق والغرض والعمل في الاصلاح والخلق والتقويم . ولم يكن ليتفق ذلك على هذا النحو المطرد لولا ذلك التهيؤ القادر الذي يعد الناس بيوم كيوم محمد (ص) وبحركة اصلاحية كحركة محمد .

ذلك ليجعل الله نبوة محمد طبيعية تتخطى ادوارها بغير طفرة .

وليجعل محمدا نبيا في مغرسه لا يرتاب في نبوته ذو نظر .

ثم ليجعل من آياته علو ذلك البيت الذي يخرج منه النبي بمثل هذه النبوة .

والفكرة الثانية في الكتاب اخذت من الفكرة الاولى ، وان كانت أصلا لها في بداية الامر فقد كان الغرض ان توضع مقدمة تستعرض ألوانا من الخلاف المستحكم بين الاسرتين ــ بني هاشم وبني امية ــ نهتدي على ضوئها حين نعرض لموقف الامويين من الحسين عليه السلام فقادنا هذا المدخل الى خزائن ومعارض من عظمة الهاشميين حورت الفكرة الاولى وحولتها الى فكرة ثانية تقع من الاولى موقع الاساس .

ومما لا سبيل الى الجدال فيه ان العظمة الهاشمية بمظاهر السيادة والعبقرية تستدعي ــ ككل عبقرية عظيمة ــ المنافسة وتثير الحسد على نحو لا تجدي فيه المسالمة وان جنح اليها المحسودون لان الحسد او الخصومة المبنية على الحسد لا تستند الى مخاشنة او اثارة وانما هي مستندة الى كون العظيم عظيما والى كون العبقري عبقريا ولا تبطل الخصومة في مثل هذه الحال ولا يبطل الحسد الا حين يبطل هذا السبب .

فكانت عظمة بني هاشم ـ وهي الفكرة اولى ـ مثارا للحسد والكراهة .

وكان الحسد ـ وهو الفكرة الثانية ـ منشأ لشواجر الخلاف المتأشبة بين الرهطين .

وكان البحث في هذين الامرين عرضا يؤدي عنا الغرض كفاء القصد ووفاق الغاية .

ثم تمثلت بين هاتين الفكرتين ظلامة الهاشميين ظلامة لا يستوفى كشفها بالايجاز والعبور ، ولا يقوم الدليل عليها بغير اللبث والاستقرار فأحوجني ذلك الى اختيار التراجم بشيء من التفصيل والاستنطاق لآخذ ببعض الحظ واقوم ببعض الواجب وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

صدر الدين

ذهول مزمنة

هذان اسمان أحكم النسب ـ كما يروى ـ آصرتهما ، وباعد الحسد بين قلبيهما ، فكان ما ينتظر ان يكون وثيقا من ذات بينهما اوزاعا، وكان المرجو من ترادف دخائلهما مفرقا تشيع فيه الخصومة ، وتتأرث فيه العداوة ، وينغل فيه الحقد ، شرع في ذلك القديم والجديد ، كله نزاع اشغل التاريخ فاشتغلت الاقلام ، وقسم الناس فتقسمت الآراء ، ووزع المبادىء فتوزعت العقائد ، وأيقظ العصبيات فاستيقظ الجدال ونوع الاحزاب فتنوع الجلاد ، وطفق الناس من يوم هاشم وامية يتسقطون اخبارهما ، ويتلقطون انباءهما ، ويتشوقون الى معاركهما ، ويشغلون منهما بحزن مقيم مقعد ، او بسرور تقر به عيون وتقذى به اخرى .

على ان الامة متفقة ـ الا شذاذا منها ـ على ان الموازنة بينهما ان هي الا من احداث الايام الظالمة ، ومكاره هذه الدنيا التي لا تنتهي مكارهها .

ولئن انتهت المعارك المادية بأعمار قصار وازمان قريبة ، فان معارك المبادىء معارك خالدة لا تفتر ولا تهدأ ما دام في جنودها دماء ، او ينتهي يوم هذا الدنيا الطويل .

وجنود المبادىء جنود لا يعتمدون على ذخائر من كثرة العـدد او مضاء السلاح ـ كما هـو المعروف من ذخـائر الحرب ـ وانما يعتمدون ذخائر من كثرة الايمان ومضاء الحيوية ، فالمبدأ الذي يزود جنوده بحظ من هذه الذخيرة يستطيع الصمود بمقدار حظه من هـذا الزاد ، واكثر المبادىء حظا من هذه الذخيرة احراها بالغلب والفوز ، واجدرها بالخلـود والحيـاة .

وبعد فلسنا نعنى بهاشم وامية شخصيهما فقط حين نجعلهما عنوانا لموضوع البحث ، وانما نتكلف حذف مضافـين ـ كما يقول النحـاة ـ لان موضوع البحث بنو هاشم وبنو امية ، على انهما شخصيهما داخـلان فيما نحن بسبيله الان ، بصفتهما اول الحديث ، وبما انهما مصدران لهذه الحياة التي شغلت العالم الاسلامي والعالم العربي اربعة عشر قرنا بـل خمسة عشر قرنا .

ومن الحق ان وضع هاشم بنفسه وبنيه في كفة تقابل كفة فيها امية وبنوه ـ من الحق ان هذا من الصروف الغاشمة الظالمة الدالة على بواخ منطق الدنيا وبواره ، وعلى ضيعة المقاييس الصحيحة التي ترتفع بأقدار الناس او تهبط بها على مقدار ما فيها من وزن الحقائق ، فان النسبة بين هاتين الشخصيتين ثم بين هذين النفرين من ابنائهما نسبة منقطعـة وان كان لا بد من نسبة فلتكن تباينا ـ كما يقول علماء المنطق .

أميــة

كان أمية جهما آدم قصــيرا ذميما سيىء الطالع نكدا ضئيلا عمي آخر عمره فكان يقوده عبده ذكوان ، وكان سارقا اباحيا عاهرا ضعيفا ادنى الى صفات العبيد منه الى صفات الاحرار، ثم هو مشكوك في نسبه مستعبد استعبده عبد المطلب ، منفي نفاه هاشم .

مصادر مختلفة

لأمية شخصية مجهولة الواقع يحوم التاريخ حولها بشك وريبة ، وينسبها المؤرخون باحتياط وتحفظ .

فاذا قيل انه عبشمي اللحمة ، كان قولا لا يستند الى اليقين ، ولا يصدر عن القطع ، ذلك لان في الرواة والمؤرخين من يقول بأنه عبد رومي لعبد شمس ، ثم تبناه عبد شمس لاسباب لا تتحقق منها جيدا .

ولعل من هذه الاسباب ان من العرف عند العرب ان يتبنوا الربائب والعبدان اذا استوى ذلك لاحدهم بحب منه لربيب او لعبد ، او لعل منها ان امية كان قرشيا بالولاء ، والنسبة بهذا الوجه صحيحة عند العرب ، او لعل منها ان امية كان لبقا في استيلائه على مولاه ، وفي استئثاره بحبه ورضاه .

ومهما تكن الاسباب فان عبد شمس تبنى امية ، ثم مضى الزمن وامية يدعو مولاه ابا ، والمولى يدعوه ابنا ، حتى ألف الناس هذه الابوة وهذه البنوة التنزيليتين .

ولعل احدا يستبعد ان يكون أمية عبدا مستندا في استبعاده الى جرأة امية على منافرة هاشم ، او معتمدا على ان قريشا كانت تنظر اليه

نظرها الى القرشي الصريح ، لعل احدا يستند الى هذا او الى نحوه في استبعاده عبودية امية ، ولكن جرأة أمية العبد مستمدة من جرأة عبد شمس المولى ، ولا نرانا في حاجة الى التدليل على هذه الظاهرة ــ ظاهرة استمداد العبيد قوتهم من مواليهم فأمية ان تكن به قوة على منافرة او تحرش فانما يركب في ذلك عبد شمس ويستلئم بقواه ، وحسبه منها ان عبد شمس اخ لهاشم وابن لعبد مناف .

على اني اشك في صدق هذه المنافرة ــ وان رويتها بعد هذا الفصل (١) وارتاب جد الارتياب في خبر جرأته ، واحسب ان للدعاية في سلطان الامويين شأنا في عمل هذه الاحاديث لتلحقهم ببني عبد مناف وتثبت لهم النسبة الى قريش ، فهم مطمئنون الى انغلابهم والى فشلهم في حديث المنافرة ما دام سياقها يثبت بنوة امية لعبد شمس ، وصنع الانغلاب والرضى بالعبودية طريقان وعران لم يختاروا سلوكهما لولا انهم محتاجون الى اثبات هذه النسبة التي تقربهم من هاشم :

ويكاد يثبت عندي ان هذه الاقاصيص والاخبار مصنوعة او محرفة فانه لا يجوز في رأيي على الاقل ان يتواضع هاشم وعبد المطلب الى منافرة امية وكل تقدير من تقادير حياتهما وتقادير حياته لا يبيح ذلك ولا يرضاه ، واكاد لا اشك ان امية نفسه لم يحدث نفسه ان يطمح الى هذا الخيال من معارضة هاشم او مجاراة عبد المطلب في مآتيهما او مساواتهما في مراقيهما ، بل لا اكاد اشك في ان المجتمع الذي عاشا فيه لا يبيح لامية ذلك ، وامية امية الذي عرفوه ثم عرفونا به ، وهاشم وابنه

---

(١) لا يمنعني شكي فيها من روايتها فانها مهما يكن حظها من الواقع اصدقا ام كذبا فانها في الحالين تصور جانبا من حياة هاشم وجانبا من حياة أمية ولانها ان صدقت فلا بد ان تكون كذلك بطبيعتها وانا واثق من نتيجتها حين تكون صحيحة .

هما هما كما عرفوهما وعرفونا بهما .

ولكن فلتكن الرواية صحيحة ، وليجرؤ امية فينافس هاشما وينفس عليه مكانته ، فما اظن ان هذه الجرأة تستطيع ان تضمن له صحة النسب ما دام في الامكان ان يتذرع العبيد بأسماء مواليهم .

وما اظن كذلك ان نظر قريش اليه نظرهم الى القرشيين يكفل له صحة النسب ايضا ما دام استطاع ان يستحوذ على عبد شمس نفسه وان يسوقه الى تبنيه وايثاره ، فانه مستطيع ــ اذا استطاع ذلك ــ ان يسخر الوسائل التي استحوذ بها على عبد شمس فيسعى بها الى بعض هذا الجاه كمعبر عن رأي عبد شمس او ناطق بلسانه ، ثم يرتقي بعدئذ وترقيه وسائله الى ان ينال بعض النظر اليه قرشيا .

وما يدرينا لعلهم نظروا اليه قرشيا تبعا للعادة التي تبنوا بها الربائب والعبدان على نحو التنزيل ، او لعلهم نظروا اليه قرشيا على نحو المجاز بعلاقة الولاء ولكل تقدير من هذه التقادير وجهه المعتبر في عرفهم .

وما يدرينا فلعلهم لم ينظروا اليه الا عبدا كما نظروا بعدئذ الى ابنه ابي عمرو ــ كما كناه امية حين اراد ان يتبناه ــ فكان عند امية وبنيه ابا عمرو وعند قريش كلها « ذكوان » العبد ــ كما يقول النسابة دغفل (٢).

---

(٢) يروي ابن ابي الحديد في شرح النهج جـ ٣ ص ٤٦٦ عن الاغاني : ان معاوية قال لدغفل النسابة ، أرايت عبد المطلب ؟ قال نعم : قال كيف رايته ؟ قال : رأيته رجلا نبيلا جميلا وضيئا كان على وجهه نور النبوة ؟ قال معاوية : أفرايت أمية ؟ قال نعم : قال كيف رأيته ؟ قال : رأيته رجلا ضئيلا منحنيا اعمى يقوده عبده ذكوان فقال معاوية ذلك ابنه ابو عمرو ، قال دغفل : انتم تقولون ذلك اما قريش فلم تكن تعرف الا انه عبده .

وبعد ان استفدنا من هذا الحديث ان امية وبنيه كانوا يحاولون اقرار العبد ذكوان ابنا لامية على عيون قريش وان هذه المحاولة ممكنة في امية

وفي الحق ان تكرار التبني في هذا النفر ، وحرص معاوية والامويين على ان ذكوان العبد انما هو ابو عمرو بن امية ، نقطة ضعف تضاعف الشك في امر امية نفسه ، والنواء يثبت ان تداخل الانساب في تاريخهم شيء مألوف فعلوه في الجاهلية ، ولم يتحرجوا عنه في الاسلام حين احتاجوا اليه في زياد بن ابيه هذا الذي تأخاه معاوية وتبناه لابيه فيما هو معروف من امره مشهور شهرة تغنينا عن شرحه وايضاحه (٣) .

نفسه ايضا بعد هذا نستطرد فنستفيد صورة امية وشكله من شهوده ومعاصريه فلعل معرفة ذلك تجدي علينا في معرفة نفسه وروحه : يروي ابن ابي الحديد بالاضافة الى هذا في ص ٤٦٧ جـ ٣ من شرح النهج : ان عثمان تمنى رجلا يحدثه عن الملوك وعما مضى فذكر له رجل بحضرموت ، فأحضره وكان له معه حديث طويل كان منه ان سأله : ارأيت عبد المطلب ؟ فقال : نعم رأيت رجلا قعدا أبيض طويلا مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال ان فيها بركة ، وان فيه بركة ، قال : أفرأيت امية ؟ قال : نعم رأيت رجلا آدم دميما قصيرا اعمى يقال انه نكد ــ وان فيه نكدا ــ فقال عثمان يكفيك من شر سماعه ، وأمر باخراج الرجل .

(٣) تتضافر الاخبار وتتواتر في مسألة الصاق زياد بالامويين وحسبنا ما جاء في كتاب كتبه حبر الامة عبد الله بن العباس ليزيد بن معاوية جوابا له على كتاب كان يريد ايراده اليه يثني فيه عليه ويستميله به اليه وقد بلغه ان ابن العباس امتنع عن بيعة عبد الله بن الزبير فظن يزيد انه انما آثره على ابن الزبير فأراد ان يستحثه على نصره ويعده في ذلك ويمنيه ولكن ابن العباس سفه رأيه وعاب عقله حين خدعه فيه ، ثم ذكره بشاراته عنده في قتل الحسين وسبي نسائه وجابهه بعدم الرضى ولا كرامة وكان مما قال « ومهما أنس من الاشياء فلن أنسى تسليطك عليهم ابن مرجانة ــ يعني ابن زياد ــ الدعي ابن الدعي العاهر الفاجر اللئيم أما وأبا ، الذي اكتسب ابوك في ادعائه اياه لنفسه العار والخزي والمذلة في الدنيا والآخر فلا شيء اعجب من طلبك ودي ونصري وقد قتلت بني ابي الخ » راجع الكتاب في الجزء الرابع من انساب الاشراف البلاذري .

وان من يمعن شيئا من الامعان ويحاكم التاريخ على ضوء التحليل

واضيف اليه ما رواه البلاذري ايضا في جـ ٤ ص ٧٨ عن يزيد بن مقرع حيث يقول :

الا ابلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب ان يقال ابوك عف ... وترضى ان يقال ابوك زاني
فاقسم ان رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الاتان

وقال في عبيد الله بن زياد (انساب الاشراف) ص ٧٩ جـ ٤ :

شهدت بأن امك لم تباشر ... ابا سفيان واضعة القناع
ولكن كأن امر فيه لبس ... على وجل شديد وارتياع

وقال عقيبة الاسدي كما في ص ٧٨ من البلاذري جـ ٤ ايضا :

نجار فهر مبين في توسمهم ... لكن نجار زياد غير معروف
لستم قريشا ولكن انتم نبط ... صهب اللحى والنواحي ضهية الليف

وقال عروة بن أدية (ص ٨٨ البلاذري جـ ٤) لعبيد الله بن زياد :
أولك لزنية وآخرك لدعوة :

والشهادات على دخلة نسب ابن سمية كثيرة جدا ولا تقل عنها كثرة وتوفرا الشهادات على ان في انساب الامويين تداخلا مصدره تبني الاماء والعبيد وعدم المبالاة في انسابهم حتى شاع فيهم الاختلاط وكثرت الدعوة لغير الاباء وحتى عرض بعضهم ببعض في ذلك ـ يقول البلاذري في ص ١٣٨ جـ ٤ ، ان يزيد ولى عمرو بن سعيد الاشدق على المدينة ثم عزله وولى عثمان ابن محمد بن ابي سفيان فلما انتهى اليها خطب الناس وذكر عمرا بسوء ـ وعمرو حاضر ـ فغضب عمرو ونهض فقال : يا عثمان ما انا بحلو المذاقة واني لقمن المضرة ، ولقد ضرستني الامور وجرستني الدهور ، فزعا مرة وامنا اخرى ، وان قريشا لتعلم اني ساكن الليل داهية النهار لا اتتبع الظلال، ولا اقمص حاجتي ، ولا يستنكر شبهي ولا ادعى لغير ابي :

والمناقشة يجد عونا اي عون على اعتبار امية عبدا استغل بساطة سيده الساذج ، واستأثر به استئثارا .

اقول : ان من يقف الى هذه المحاكمات ان لم يستيقن ان امية ان كان الا عبدا فانه يشك ـ على الاقل ـ في نسبته ويرتاب في امره ، فلا يقطع بحكم .

ان هاشما وعبد شمس توأمان (٤) فيما يرويه الطبري وابن الاثيروابن

وفي ص ١٥٥ من انساب الاشراف ايضا ان عبد الله بن خالد بن اسيد ابن ابي العيص خرج الى معاوية معرا واخذ من زوجه أم حجر أمة فلما عادت الجارية حبلى وانكر هو ان تكون حبلى منه ، فولدت ولدا سمته رشيدا ولما مات عبد الله اعتقت ام حجر رشيدا العبد وقد بلغ الاربعين من سنه فاكتني بابي عثمان ودعي بعبد الله ورزق ولدا سماه عبد الاعلى وحين بلغ عبد الاعلى حظا من دنياه وعد مرة خلفا الا قطع بشيء ثم اخلف فقال خلف :

اراك اذا هممت بفعل خير ... هممت لدفع ذاك بأمر شر
أبت لك ذاك امات ثلاث ... من الاحبوش هن شر نجر
ولم يعتق ابوك من اعتبار ... ابو عثمان الا بعد دهر
ألم تك أمه أمة لكاعا ... من الفزان قينة ام حجر
تعممت الخبيث على اعتداء ... بلا اذن الحليلة او بمهر

وقال الفرزدق (كما في ص ١٦٤ من انساب الاشراف) في خالد بن عبد الله بن اسيد واخويه أمية وعبد العزيز ـ وقد فر اولهما من وجه ابي فديك بالبحرين وفر ثانيهما من الازارقة في فارس بعد قتل جيشه وزوجه قال :

كل بني السوداء قد فر فرة ... فلم يبق الا فرة عند خالد

وما اكثر ما قيل بهذا المعنى .

(٤) ويروى ان هاشما كان اسن من عبد شمس وبناء على هذا فالشبهة أقوى .

ابي الحديد وان هاشما مات عن خمس وعشرين سنة من العمر في اعلى الروايتين ، وفي رواية انه قبض وله من العمر عشرون .

وبناء على اي الروايتين نستبعد ان يكون لعبد شمس يومئذ ولد كبير يكتوي بنار الحسد وتتحرك فيه نوابض المنافسة على مجد يذكر او على ذكر ينشر .

متى تزوج عبد شمس ؟ ومتى ولد امية ؟ وما مقدار عمر امية ــ ان كان ابنه ــ وعبد شمس في العشرين او في الخامسة والعشرين من عمره . بل هو دون هذه السن في الغرارة من غير شك لان المنافسة لم تقع سنة مات هاشم وانما وقعت قبل ذلك .

ولنفرض ان هاشما هشم الثريد في المجاعة الجائحة ــ كما سنفصله ــ وهو ابن العشرين ، ويلزم هذا الفرض ان يكون لعبد شمس مثل هذه السن بطبيعة كونهما توأمين او دون هذه السن اذا كان هاشم أسن منه ــ كما يروى ــ .

ثم لنفرض ان عبد شمس تزوج في الرابعة عشرة من عمره وعلقت زوجه بأمية سنة الزواج فكم يكون عمر امية سنة المجاعة حين طمح الى مجاراة هاشم ؟

يكــون عمره ســت سنــين على اوســع تقدير ، ثم لنوسع الفرض فليتزوج عبد شمس مبكرا جدا ، ولتكن المنافسة متأخرة جدا . فهــل يضاف الى السنين الست اكثر من سنتين او ثلاث ؟ ولتكن اربعا على فرض شاذ فماذا عسى ان يكون عمر امية آنئذ ؟

يكون عمره عشرا .

فهل يجوز لغلام غرير في مثل هذه السن ان يطلب ما طلبه اميــة ؟ وهل تكون عنده ثروة تسمح له بالاتفاق على نحو يضارع به هاشما مع العلم بأن اباه عبد شمس كان فقيرا مقلا يتكل على اخيه هاشم في جل

عيشــه ؟.

ما اظن احدا يستطيع ان يصدق هــذه المعجزة لرجــل لم يعرف بروحانية ولم تؤثر به عبقرية .

اضف الى كل ذلك ان هاشما اجلى امية ــ كما يقول المؤرخون ــ حين تنافرا عشر سنين عن مكة ، واذا جاز ان يقضي امية هذه المدة في منفاه بعد وفاة هاشم (٥) فانه لا يجوز لهاشم ان ينازل غلاما مهما كانت ظروف المنازلة .

ثم اذا نازله فلا يجوز ان يحكم عليه هذا الحكم القاسي وهو في مثل هذه السن ، لا يجوز ذلك لان لهاشم من خلائق بره وعطفه واحسانه ما يمنعه من ذلك .

هذا ما بدا لي وانا اقلب وجوه الرأي من هذا الموضوع في صفحات من الطبري وابن الاثير وطبقات ابن سعد وشرح النهج والبلاذري فلا أكاد انتهي من قراءتها ومناقشتها حتى استقر او اكاد استقر على اعتقاد الصاق امية بعبد شمس الصاقا او على الشك في نسبته هذه أقلا .

واذا تجاوزنا هذا كله فانا مستهدون بعض الواقع من امر امية على ضوء النصوص الصحيحة الصريحة .

يقول امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) لمعاوية في بعض كتبــه اليه بعد الموازنة بين هاشم وامية وبين حرب وعبد المطلب وبين نفر من آل هاشم ونفر من آل امية ــ يقول امير المؤمنــين : وليس المهــاجر كالطليق ، ولا الصريح كاللصيق .

ويقول ابو طالب من ابيات أنشأها حين تظاهر عليه وعلى رســول الله (ص) بنو عبد شمس ونوفل .

---

(٥) انما احتطنا بهذا الفرض لان هاشما توفي في العشرين من عمره .

توالى علينـا موليانـــا كلاهما	اذا سئلا قـالا الى غيرنـا الامر
بلى لهما امر ولكن تراجمــــا	كما ارتجمت من راس ذي القلع الصخر
اخص خصوصا عبد شمس ونوفلا	هما نبذانا مثـل ما نبـذ الخمر
قديما ابوهم كان عبدا لجدنا (٦)	بني امة شهـلاء جاش بها البحر

يشير امير المؤمنين بقوله (اللصيق) الى هذا الذي نبحثه وتتساءل عنه في نسب امية . وليس ادل من كلمة « لصيق » في اللغة العربية على انتحال امية نسبه الى عبد شمس .

وأما قول ابي طالب فلا يقل دلالة عن قول ابنه بل يزيده تفصيــلا لما اجمل امير المؤمنين ، وتبيينا لما ابهم ، فاذا كان الالصاق ملتبس الكيفية في قول امير المؤمنين فقد اوضحه ابوه بقوله .

(بني أمة شهلاء جاش بها البحر)

ونلاحظ انه نصب « بني » باضمار فعـل يخصص من كان ابوهم عبدا لجد الطالبيين فالمعنيون في البيت ــ اذن ــ بنو امية بقرينـة نصـب (بني) بفعل (اعني او اخص) وبهذا التقدير يتسق البيت ويتضح معناه .

ثم نلاحظ انه أنث الموصوف (امة) وأتبع ذلك بتأنيث الصفـة (شهلاء) وتأنيث الضمير (بها) أنث كل ذلك باعتبار اللفظ ثم أنثـه قاصدا الى تأنيثه استصغارا له وتعويضا عن تصغير لفظه الذي لا يستقيم معه الوزن لو جاء بلفظ « امية » فكأنه حين اراد المصغر ولم يواته الوزن

---

(٦) يشير الى حادثة استبعد فيها عبد المطلب اميـــة عشر سنين في رهان سنقص خبره .

جاء بمكبره (امة) ثم دل على ما يريده منه بتوهين امره واستصغار شأنه بهذا التأنيث المطرد وبهذا الوصف الزري .

وبعد هذه الملاحظة فالبيت صريح بأن امية شيء قذفه البحر الى الحجاز مع هذه التجارة التي كانت ترد الى مكة من الروم وغيرها .

وهل يجيش البحر بشيء من السلع الآدمية غير الرقيق والاماء ؟ لا ولعل اختيار كلمة « شهلاء » في وصفه يدل على هذا الذي نفهمه من البيت ، ويعني الروم بصورة خاصة ، فالشهل زرقة يشاب بها سواد العين ، وهي صفة لا تعرف بها العين العربية وربما عرفت بها العين الرومية ، او ربما كثرت هذه الصفة في عيون الروم ، وبهذا يصح له ان يشير بها الى ما فهمنا منه او يصح لنا ان نفهم منه الاشارة الى ما ادعيناه .

هاتان شهادتان لعلكم تقولون ان الاخذ بهما اخذ بشهادة الخصم .

ولكن عليا وابا طالب كما عرفناهما وكما عرفتهما الدنيا رجلان بران تقيان يتحرجان من القول في غير علم ، ويأنفان من الاعتماد على الهجاء ، فاذا قالا لم يرجما بالغيب ، واذا اخبرا لم يصدرا الا عن الصدق والانصاف والحق ، لا تأخذهما عداوة او صداقة ، ولا ينحرف بهما رضى او سخط ، ولا يميلان الى ممالأة او مداجاة او ما الى ما يميل اليه ضعاف النفوس .

***

وبعد فما اريد ان افرض هذا الرأي في نسب امية فرضا ، وانما اريد ان اضعه موضع الاعتبار والتأمل كأمانة تاريخية اتخفف من وزرها بالقائها ، ولمن يقرأ ــ بعدئذ ــ ان يحكم فيها رأيه وعقله ، وله ان يأخذ بها او يتعداها الى ما يشاء من عقيدة او ايقان .

ولئن شككنا بعبودية النسبية ــ فانه لا شك بعبودية السببية كما يدعي المؤرخون والمحدثون ــ وقد استعبده عبد المطلب الى اجل ، ــ امية نفسه سماه ــ وقدره عشر سنين افتدى بها جز ناصيته في سباق غلب فيه (٧) .

وسواء أكان امية عبدا روميا ام كان امرأ عبشميا ، فلم يكن له في نفسه ميزة او خليقة ترفعه الى شرف او نباهة او نبل ، ولم يكن لابيه ــ التقديري او الحقيقي ــ عبد شمس نفسه ميزة كذلك (٨) وان كان عبد شمس شيئا مذكورا بأبيه وبأخيه هاشم الذي كان يكفل عيشه وسد مسغبته (٩) .

ثم انما كان امية بعدئذ شيئا مذكورا ببنيه (١٠) الذين واتاهم من الحظ ما قرنهم ببني هاشم في التاريخ خصوما ألداء لهاشم وبنيه فلا يذكر الهاشميين ذاكر الا ذكر معهم الامويين مهما كان نوع الذكر .

على ان الدهر ابادهم وعفى على آثارهم واحتفظ بالهاشميين بقية السيف نجوما يشرقون في كل جيل اشراق الصباح في انحاء الزجاجة ، ويشيعون في كل خلف شيوع الحياة في الاجسام الحية كثرة ونفعا .

وحسب امية وبنيه من المجد ما اصابوه من مناوأتهم الهاشميين وبعثهم في الدهر خصوما لهم أشداء ، وليكن بعدئذ روميا او عبشميا ألم يستطع بنوه ان يقفوا لما فشل هو به واخفق فيه من هذه المساواة الزمنية ؟.

نعم ومنطق الدنيا لا يقيس بغير هذه المقاييس الزمنية التي تتبرر فيها

---

(٧) انظر شرح النهج ص ٤٦٦ جـ ٣ .
(٨) انظر شرح النهج ص ٤٥٤ جـ ٣ .
(٩) راجع شرح النهج ص ٤٦٦ جـ ٣ .
(١٠) انظر ص ٢١ من النزاع والتخاصم للمقريزي .

الوسائط بالغايات ، وتتخذل فيها المواهب والمعنويات لدى الحظوظ القوية ، والظروف الجائحة .

ولكنا حين نعود الى أقيسة الحقيقة ومعايير الواقع ، وحين نغفل النظر الى امية من ناحية شرفه النسبي فلا نأبه له روميا كان ام عبشميا ، فانا نجده امرأ عريا تخلق أسماله ، وينطفىء ذباله ، ويذهب في غير كفاية تسمو به الى التعريج على مراقي هاشم الرفيعة او العروج الى اجوائه العالية التي استحق بها هاشم ان يمتلك النفوس ويأتسر الالباب ويسود الوادي غير مدافع .

والواقع ان امية رجل — لو كفل التاريخ صحة نسبه — من هؤلاء الجاهليين الذين تغريهم الحياة بمناعمها ، وتدعوهم اللذات الى ترشف مباسمها ، فيقبلون عليها راضين مفتونين ، ويخفون اليها طائعين مهرولين ، ينفقون الساعات في اغتنام فرصها والاستباق الى متعها وخلواتها .

ولشباب مكة — يومئذ — مآرب في الحياة وملاعب من الغزل ومسارح للمجون ، كان فتيان مكة يخلعون فيها وتخلع غانياتها معهم ما يقتضيه العرف السليم ، وما تقتضيه الانظمة الصحيحة ، وما ترضاه الاخلاق الكريمة ، فاذا امتدت سدول الليل سعى الفتيان وسعت الفتيات معهم من اطرافها الى المواعيد والاسمار يؤلفهم الغناء ، وتنتظمهم موائد الخمر في برد العشاء ، فاذا نالوا حظا من السمر ، وحظا من اللهو والعبث لفتهم المضاجع مع انفاس السحر لا يستفيقون من سكر الكأس ونشوة الفسق الا حين تندلع ألسنة الشمس بالدفء والحرارة ، والا حين تتجاوز المتوع الى الضحى ثم تنتشر في الافاق مترقرقة متدفقة لألاءة .

بمثل هذه الحياة فتن أمية ولها خلق — على دمامته — ولهذه الحياة اعد نفسه لا للبذل والعطاء ولا لدفع المغارم او جر المغانم ولا لرفع الحياة في ذلك البلد المحجوج البيت المعظم الشعار .

ولعله كان احرص خلعاء مكة على الخلاعة واشدهم تمسكا بعقابيل منكراتها ، وتدل اخباره المروية على ان الادمان والاستخفاف بلغا منه مبلغا ادانه بالاباحية والدياثة ، وجره الى عوراء تستنكرها جاهلية المنكرات .

روي انه نزل عن زوجه لابنه ابي عمرو (١١) ــ الذي يقول عنه دغفل انه ذكوان العبد ــ فبنى بها ابو عمرو وامية حي لا يأنف ولا يطرق ولا ينـدى .

فكان بهذه الاباحية نقيضة من نقائض عصره ومحيطه واسلوبا خاصا من أساليب الفسق لا يعرفه العرب ، وربما صلح هذا الاسلوب للدلالة على الشك في نسبه وايد القول بعروضه على مكة من وراء البحر حيث تنبت هذه الآراء فيكثر القائلون بها والعاملون عليها اما العرب فيجهلون هذا النوع من الفسوق وينكرونه ويأنفون منه على شيوع الفسق وكثرة ألوانه .

نعم كان امية نقيضة من نقائض عصره لان الغلمة وخليقة الفسوق انحدرتا به مع مجراهما الى لون من أبشع الوان الاباحية في عصر ومحيط ينحدران ايضا من غلمة وفسوق الى حضيض لا يكادان ينتهيان اليه حتى يثوبا وتردهما نواتىء صلبة من الغيرة والحمية الى حضيض يناقض حضيض امية ويعاكسه بالنتائج وان ماشاه في المقدمات .

سبق امية الى الاباحية والاسترخاء فكان بهذا النقيض الذي لا يلتقي أبدا مع اخلاق العرب وتقاليدهم وكان النقيضة المدابرة لعصره مدابرة لا تواجه فيها فقد كانت الحمية تطبع العصر الجاهلي وتدمغ العفاف بسنة قاسية ظلوم كسنة الوأد هربا من خيال العار وحرصا على حماية المرأة

---

(١١) النزاع والتخاصم ص ٢٢ وشرح النهج ص ٤٥٦ ج ٣ .

من تلك المهاوي الوقاح .

واذا كان امية مبالغا باباحيته واستهتاره في وسط يغالي بمناقضته في هذا الخلق اباء وغيرة فلا جرم ان عرف فيه عاهرا ضعيف النفس (١٢) .

روي ان حربا بن امية نافر عبد المطلب بن هاشم الى نفيل بن عدي جد عمر بن الخطاب فكانت دهشة نفيل عظيمة جدا حين رآهما مقبلين للمنافرة ، وكان غريبا جدا ان يطمع رجل كحرب بمنافرة رجل كعبد المطلب مع تلك الفروق العظيمة بينهما نفسيهما ، وبين ابويهما من قبل ، تلك الفروق الاجتماعية والنفسية والعقلية والجسمية ، فروق كثيرة انى التفت منها تجد فارقا عظيما يرفع جهة ويحط جهة .

قال نفيل لحرب (١٣) يعلن هذه الحقيقة وقد انتهيا اليه « اتنافر رجلا هو اطول منك قامة واعظم منك هامة ، واوسم منك وسامة ، واقل منك لآمة، واكثر منك ولدا، واجزل منك صفدا، واطول منك مذودا (١٤).

ابـوك معـاهر وابـوه عـف وذاد الفيـل عن بلـد حرام (١٥)

نحتاج من هذه القصة الى ما تنم عليه من شهرة اميـة بالعهر ، ثم نحتاج منها الى ما يسود وجودها من الاعتراف بهذه الفروق الكبيرة بين الرجلين وبين ذويهما على نحو بعث الدهشة والعجب في نفس نفيل من اقدام حرب على هذه المجازفة !

وانها لمجازفة حقا لان في الحكم فضيحة منتظـرة لحرب ولابيـه

---

(١٢) انظر شرح النهج ص ٤٥٦ جـ ٣ .

(١٣) راجع الطبري المجلد الثاني ترجمة عبد المطلب ، وطبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٢ .

(١٤) الصفد العطاء ، والمذود اداة الدفاع .

(١٥) راجع شرح النهج ص ٤٥٦ جـ ٣ والنزاع والتخاصم ص ٢٢ .

لا يستطيع حرب نفسه ان ينساها او يتغافل عنها او يدفعها حين يحكم عليه بهـا .

وليت المجال يتسع لنا ان نقف الى طريقة الحكم عند العرب . هذه الطريقة التحليلية الرائعة الصادقة المبتنية على عناصر التفصيل والترذيل ، بهذا النمط الذي يبدأ بالمميزات البدنية من بسطـة الجسم واتسـاق الاعضاء ، وانسجام الصورة كأنهم يقولون مع القائلين بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ثم بالمميزات المعنوية النفسية من بعـد عن لـؤم وقرب من كرم وتعريق في محتد ، واظن ان البديهة خانت نفيلا حين اختار لهـذه الميزة قوله « واقل منك لآمة » ـ ان كانت هذه اللفظة صحيحة الرواية [16] فان السياق صريح بانه لا يريد من التفضيل مشاركة وزيادة وانما يعنى بالنفي والاثبات فقط ، وللاسجاع ـ بعد ـ احكام تضطر المعبرين الى شيء من التسامح احيانا .

ثم ينهي الحكم بمميزات القوة والايد والكثرة وهي من عدة الزعامة وادواتها يومئذ ويعقب ذلك بخاتمة يعرض فيها للآباء وللآثار النافعة التي يشرف بها الشريف ويهمل بدونها الرجل الضعيف .

وما يعنينا من هذا فانما نحن بسبيل الاستشهاد على هذه الظواهر الحافة بأمية وحسبنا ان تتبين هذ هالخلة من خلال امية في هذه القصة .

وليس غريبا ان يكون عاهرا معروفا بالعهر بعد ان رضي لنفسـه الدياثة بل كان حتما على من يرضى لنفسه الدياثة ان يسلم نفسه للشهرة بالعهر راضيا فخورا .

بل لعله كان يلتمس السبل والوسائل لهذه الشهرة فيتجاوز العواهر

---

(١٦) في دائرة المعارف للبستاني « واقل منك ملامة » .

والمومسات الى الحرائر والمحصنات يتعرض لخدورهن ويجترىء على كرامتهن متحرشا معترضا .

قيل انه اعترض امرأة (زهرية) بريبة احفظت احد الزهريين حين بلغه الخبر فخرج اليه وضربه بالسيف ثم بلغ الامويين ما صنع الزهري بصاحبهم فهبوا محنقين واعتزموا ان يجلوا بني زهرة عن مكة .

واحسب ان لهذه العزيمة اسبابا تضافرت وعللا اجتمعت ثم وجدت في هذه الحادثة سبيلا للثورة على بني زهرة وربما كان من المهم في هذه الاسباب ان الزهريين يوالون بني هاشم وربما كانت هناك اسباب تنضم الى هذا السبب ثم تتألف فتحدث هذا الغليان اما ضرب امية وحده فلا أظنه مبررا لثورة تعرضوا فيها لخزي الفشل لان امية انما ضرب ذودا عن حرمة من اقدس الحرمات الا ان يكون الامويون جميعا يخرجون على احترام الصون وحماية الاعراض ولان امية لم يكن من المنعة في رهطه حيث تضيق بهوانه صدورهم .

ومهما يكن من شيء فان الامويين نهضوا لاخراج بني زهرة ولكن قيسا بن عدي السهمي كبح نهضتهم وخضد شوكتهم بصرخة واحدة دوت ثم ذهبت مثلا (اصبح ليل) ثم غضب لاخواله الزهريين وابتدر ينادي (الان الظاعن مقيم) متحديا مبارزا .

فاذا ارتد الامويون على اعقابهم مدحورين ارتجز وهب بن عبد مناف ابن زهرة جد النبي (ص) لامه [١٧]

مهلا (اميّ) فان البغي مهلكة لا يكسبنك يوم شره ذكر

---

(١٧) راجع النهج ص ٤٥٦ ج ٣ .

تبـدو كواكبـه والشمس طالعة يصب في الكأس منه الصبر والمقر[18]

★ ★ ★

بعد هذا كله لا نستبعد ما تلصقه به الاخبار من النقائص والصفات التي تجتمع للصعاليك من ضعاف النفوس ، وقد اجتمع لامية منها ما تفرق فيهم فكان له اكبر نصيب ممكن.

كان ــ بالاضافة الى ما ذكر ــ لصا يغير على الحجاج وهو غلام[19] فيختلس ما يتاح اليه اختلاسه من اشيائهم ولعله انما كان يسرق ليتمرس بالسرقة ويعزى له شيء من الحساب حين يعد ذوو الخطر من رجال مكة فان مكة يومئذ كانت مستعمرة للقوة لا يعلو فيها غير كلمة الاقوياء ، وكان في مكة انحاء وانماط من مذاهب النفوذ والسيطرة بعضها يلتقي والسرقة ببعض المشابه والمعاني ، فنفوذ بني عدي او بني جمح مثلا كان من طرقه السرقة ولكنها سرقة لا تعتمد على الخلسة والاختفاء بل تعتمد على القهر والغلبة، واذا كان السلب طريقا الى النفوذ والظهور فلماذا لا تكون السرقة طريقا اليهما ؟ بل لماذا لا ترتقي السرقة يوما فتكون سلبا واقتدارا ؟

لعل امية فكر بهذا وهو يطوف بين مضارب الحاج وعلى هذا التقدير يكون قد اشبع من السرقة ميلين في نفسه ، ميله الطبيعي الى الاختلاس والتلصص وميله الى الشهرة والوجود عن هذه الطريق .

---

(١٨) المقر بتسكين القاف وكسرها نبات مر وهو الصبر او شبهه وهي في البيت من عطف التفسير .

(١٩) يقول في شرح النهج ص ٤٦٧ جـ ٣ « روى هشام بن الكلبي ان امية لما كان غلاما كان يسرق الحاج فسمي حارسا » وهو من بـاب تسمية الشيء بضده .

ولا يبعد عليه ان يرى في السرقة طريقا للشهرة التي كان يركب اليها كل مركب ألم نره يغلو في الفسق الى حد الاباحية ؟ ألم نره يجترىء على خدور المحصنات؟ ألم يلتحق بعبد شمس بناء على الشك في نسبه ؟ ألم يؤثر عنه انه نافر هاشما ثم نافر عبد المطلب ؟ كل هذا كان في سبيل الحصول على شيء من الوجود ايا كان عنوانه واية كانت صفته .

وصفات أمية — بعدئذ — تدلنا بجملتها على انه كان طموحا تواقا الى البروز وان كانت ادواته ووسائله الى ذلك وسائل الاحمق الى بروز شيء خزيان .

كان خبا لئيما حسودا ، وآية ذلك انه كان يأرق من هم وألم ويقلق من حقد وغبن اذا رأى مكرمة لعمه هاشم — ان صح نسبه — ومن اعتز بنسبته الى هاشم عن قرب او عن بعد فان أمية كان يؤذى اشد الايذاء بما ينشر لهاشم من صحف الحمد ويذاع باسمه من سور الثناء .

والحسد صفة يندر تحقيقها من غير طموح او ما يشبه الطموح من نهوات النفس فيما تصبو اليه أو تحسد عليه ، ويوشك ان يكون الحسد على هذا التقدير معنى من معاني الطموح وصورة من صوره ولا يلزم ذلك ان يلازم الطموح معنى الحسد فكثير من الطموح طموح لا حسد فيه وكثير من الطامحين طماحون بصدور نقية من الغل منزهة عن الحسد منكرة لهذه المعاني الدنيا التي تصطلح على المتخلفين ليشتهوا ما للمجاهدين من ثمرات ومثوبات .

ولئن لم يدل الحسد على شيء من الطموح عند احد من الناس فان حسد امية صريح الدلالة على طموحه ، حسده يدل على ذلك بذاته ويدل على ذلك بما ينضاف اليه من صفاته التي لا تفتأ تتمنى ولا تزال تتشهى ولا تنفك تنظر الى امام والى وراء فيأسى لانها لم تدفعه للعمل ويحنق لانه لا يقدر ان يعمل .

وجملة القول ان صفات امية تدل على طموح ابليسي موهوب .

وما نظن احدا يقف الطموح على جهات التمام وطرق الخير فقط فان الطموح معنى تشترك في تلبسه والاتصاف به جهات النقص وجهات التمام على السواء .

ويطمح الطامح الشرير الى اعاجيب الآثام والجرائم ولا مانع من اعتباره طامحا يمتاز في بابه وموقعه .

يطمح الطامح الصالح الى المبادىء المثلى وصالحات الاعمال وهو طموح ممتاز في بابه وموقعه .

ولن ينافي ذلك التضاد ولا التناقض فيما تستعمله فيه وتستخدمه له.

فاذا قلنا ان امية كان طموحا فانا لم نعد الواقع من امره وان كان طموحه منصرف الامال والوجوه والوسائط الى الهنات والاوباء الروحية غير ان ذلك لم يخرجه عن تقدمه في هذا الضرب على من كان على هذه الشاكلة .

كان فاسقا لا يرضيه من حياة الفسق الا ان تتلاقى عنده اطرافها . وضربت على حياته هذه الطغراء التي اختارها لنفسه والتي كان مسوقا الى اختيارها باسلوب اخلاقه وخصائص نزعاته وطبيعة غرائزه فكان حديثا من احاديث المجون والاستهتار والخنا يبلغ من ذلك الى شهرة ان اراد معها الخمول ما استطاع وينال بروزا كفاء معنى طموحه ، فان تكن به شهوة الى الشهرة والبروز فقد اشتهر وبرز وساح اسمه يطوف في الاندية والمجالس والبلاد .

هذه الشهرة هي الشهرة المعقولة الممكنة التي تتهيأ لامية كما رأيناه. وغير هذه الشهرة ممتنع عليه وان حوّل طموحه اليه ، لانه انما ينسجم وهذا النحو من الحياة التي طبع عليها .

ولكنه مع ذلك يحاول ان يتطبع بطبع غير طبعه فيجرب ان يجري في

غير ميادينه ولولا طموحه فيما هو فيه لم يستطع حتى هذه المحاولة الفاشلة غير انه وجد من صفة الطموح في نفسه عونا له على محاولة التزيي بغير زيه وعلى تجربة توجيه اندفاعاته الى جري غير جريه . فيسول له الطموح – وهو في هذه النفوس يرادف الحسد وربما لازم العجز – ان يجاري هاشما في مراقيه الصعاب .

ينظر الى هاشم في ألقه الباهر وفي عرفه العاطر تحيط باسمه الالقاب الكريمة يرددها الشعراء بالقوافي الحسان ، وترددها أندية قريش بالاسمار والاحاديث ، وترددها القوافل تصدر عن مكة الى اطراف الارض . وترد الى مكة من اطراف الارض ايضا .

ويعيد النظر الى هاشم فاذا هو ملء السمع والبصر وملء القلوب والافئدة .

ثم يعيد النظر الى امية فاذا امرؤ ضامر ينزوي من كل ذلك في حانة يندفع اسمه منها بروائح الخمر والسكر ويقطر بالفسق والعهر .

فهو من الناس في الوهاد والسفوح والمنخفضات ، وهاشم في الاعالي والقمم والانشاز يستشرفه الناس من حيث يشرفون على امية .

هذا وما اليه حز في نفس امية ودفعه لان يتقمص صفات ليس ميسورا له ان يتقمصها لانها ليست من طبيعته ولا خلقه ولو سأل نفسه كيف صبا الى غير اشيائه ، بل لو سأل نفسه عن وسائله الى تحقيق هذه الصبوة الممتنعة ، بل لو سأل نفسه أيستطيع ان يجد اقبالا من الناس على اقراره فيما يصبو اليه ان انقادت له الوسائل والاسباب ؟ لو سأل نفسه بعض هذه الاسئلة لم يجد عندها من الجواب الا ما سمعه حرب ابنه من نوفل بن عدي في تفضيل عبد المطلب بن هاشم عليه فيما سمعت من حديثهما « ابوك معاهر وابوه عف » .

ولعله من الفطنة ان يقال في هذا المقام : لو لم يكن امية على شيء

مما يصلح للمعارضة بهاشم او المنافسة له لم يحدث نفسه بالطموح الى شيء من معارضته او منافسته ولم يدخل في روعه ان يحسده او ينفس عليه ، واذا كان طموحا في غير سبب للطموح ولا اساس فلماذا آثر هاشما بالمعارضة ولم يعارض غيره من زعماء قريش ليصل بمعارضتهم الى غرض من اغراض طموحه ؟

ولكن امية يعلم ان كل علاقة بهاشم موجبة للكرامة والمجد وهي ميزة لهاشم وحده لا يشاركه فيها غيره من زعماء قريش .

علاقة الصداقة والولاء لهاشم توجب الكرامة والمجد ولكنها غير ممكنة من طرفيها فلا هاشم يستطيع ان ينسب اليه أمية ولا أمية يستطيع ان يوالي هاشما .

وان امتنعت هذه فضدها ممكن وهو في امكانه موف على الغرض لان علاقة العداء لهاشم توجب الكرامة والمجد ايضا .

من هنا رأيناه يصير اليها ويصر عليها .

وغير بعيد ان تسهم في هذه المنافسة مع هاشم بالخصوص اسباب عائلية ونزعات اسرية وتاريخ الاسر والعوائل مشحون بهذه الضغائن والمنافسات يحقدها المناكير على المشاهير والجهلاء على العلماء والفقراء على الاغنياء .

ولا يفهم مني اني اعترف بصحة نسبة امية الى عبد شمس فان الاسر في هذه الحدود تتسع للعبيد والاماء وتدخلهم في العصبيات كما تدخل الادنين من الابناء ، فأمية ان كان ابنا لعبد شمس فانه يأخذ بحظه من هذه الظاهرة الاجتماعية كقريب يغيظه ان يتأخر عن قريبه وان كان عبدا فهو ابن تنزيلا او ولاء وبهذا استحق او رأى لنفسه — على الاقل — ان يسهم بحظ من هذه الظاهرة ولا يمنعه النظام الاجتماعي من ادعاء هذا الحق والعمل عليه ما دام عبد شمس يتبناه ويؤثره ويورثه .

اما هاشم فانه لا يعترف بشيء من هذا بدليل انه يأبى — كما سنقص

عليك ــ ان يسف الى معارضة امية ومنافسته ، وهل معنى امتناعه عــن معارضته غير انكاره ان يكون امية كفؤا ؟ وهل امتناعه الا معنى مــن معاني الثورة على النظم التي أباحت لرجل في مثل حال امية ان يطمح الى منافسته او يطمع بمعارضته .

لا ، ولعلي اغرق كثيرا اذا فهمت من هذا الأباء ايعازا بنفي الصفة النسبية عن امية .

***

منافرتــه لهاشم

ومهما يكن من امر فان روايات التاريخ تجري بقصة طموحه فتسوق لنا انه ذهب مرة في اثر هاشم يتكلف هشم الثريد واطعام الطعام ، وخيل اليه الحسد الذي اثاره (٢٠) ان الثريد كان سبيل هاشم الى مجده ووسيلته الى زعامته ، وحين رآه يستأثر بالفضل في رد المسغبة عن الناس في تلك السنة المجدبة احتذى مثاله في التعرض للعفاة الجائعين ولكنه لم يطــق الاستمرار فارتد وشيكا الى سجيته منكمشة قواه الخائرة على عجز ظاهر في نفسه قبل كفه ، واخذه النقد يومئذ انه ان لم تكن به قدرة فلماذا يقحم نفسه هذا الاقحام تحت عبء ثقيل ؟ ثم اذا لم يقبل على هذه الاريحيــة بطبــع كريم يلزمها حتى يعذر في الكف عنها فلماذا يتطبع غير طبعه ولماذا يتكلف غير وضعه ؟

لحاه اللاحون بهذا وما اليه وكان من خيبته واخفاقه في حال تدنيه من الغضب السريع والثورة في غير سبب ومن اجل هذا ملكته ثورة من

(٢٠) هذا هو السبب المذكور في كامل ابن الاثير « جلد ١ ص ٧ مــن الجزء الثاني » وفي طبقــات ابن سعد جـ ١ ص ٤٤ وفي الطبــري ص ١٣ والنزاع والتخاصم ص ٢٠ .

الحدة لا موضع فيها للتدبر ، وزين له شيطانه أن يحمل تبعات اخفاقه هاشما فذكر هاشما بسوء ثم تمادى فذهب ينافره كأن هاشما تعمد ابطال مجده او تولى احباط سعيه الى ذلك المجد الموهوم .

ولكن هاشما ابى ان يسف الى منازلته فاعرض عنه ضنا بكرامته ان تمس بمنافرة (٢١) رجل كأمية تصطلح عليه عوامل من شر وضعة ، وتكتنفه هنات من خلاعة وهوان . غير ان قريشا آثرت لهاشم ألا يستكبر وان يجيب داعية المنافرة لئلا يفسر الاحجام بمعنى من معاني الخوف او الاخفاق في هذا التحدي .

ومع هذه الاحتمالات الملحوظة في حساب المنطق اصر هاشم على ابائه واصرت قريش على ان يجيب حتى احفظته بكثرة ما احتملت وبشدة ما ألحت فاضطرته الحفيظة المرة ان يقبل على المنافرة ولكنه مع ذلك احتال لصد هذه المنافرة ورد هذا الموقف الذي لم يشأه لنفسه فأثقل شروط المنافرة ليهول بها امية لعله منسحب منها ناكص عنها ، وفي ذلك يومئذ منجاة له من هذا الموقف ومرضاة لكرامته التي حرص عليها القرشيون واشفقوا عليها مما يظن في احجامه ان احجم في غير حجة واضحة .

اشترط خمسين ناقة سوذ الحدق تنحر في بطن مكة ، وجلاء عشر سنين عن مكة فكان على المغلوب ان يرزح تحت هذين الشرطين .

وفي الحق انهما شرطان ثقيلان في ثانيهما اعنات شديد فهل تنجح هذه الحيلة في ارهاب امية ؟

نعم لو انه رجل يضع لكرامته ميزانا او يرصد لعزته حسابا لنكل ــ اذن ــ واحجم بل لاعترض واحتج على الاقل ولكنه لم يفعل شيئا من

---

(٢١) المنافرة هي المحاكمة ، يقال نافرت فلانا فنفرته اي حاكمته فحكمته .

ذلك بل اقدم راضيا غير متبرم مقبلا غير مدبر فهل معنى ذلك انه واثـق من النجاح او مطمئن من الفوز ؟

لا ...، لان هاشما رجل لا طريق الى التفوق عليه بوجه من وجوه الحـق .

اذن أيكون معنى ذلك ان امية مغرور احمق يضيع عن نفسه حساب المنطق .

ايضا لا . لان لامية من الذكاء ما يضمن له معرفة مصلحته في حدوده وآفاقه . فماذا ــ اذن ــ سلكه في هذين الشرطين راضيا مطمئنا ؟

لقد مر الجواب عن هذا السؤال ، فان كل علاقة مع هاشم موجبة للشرف والمجد والخلود ، علاقة العداء كعلاقة الولاء في ذلك ، كلتاهما تقوم بالغرض وتفي بالغاية . وحسب امية من هذه المنافرة ان تروى ، ثم لا يهمه ــ بعدئذ ــ ان يكون مغلوبا يتقاضاه انغلابه الجلاء والتخسير .

***

قال الكاهن الخزاعي ــ جد عمرو بن الحمق ــ وهو يحكم لهاشم :

« والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو مـن طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم امية الى المآثر ، اول منه وآخر ، وابو همهمة ــ كنية الكاهن ــ بذلك خابر » .

فدفع امية خمسين ناقة ذبحها هاشم واطعمها .

وجلا امية عشر سنين عن مكة قضاها في الشام .

ويقول المؤرخون في التعليق على هذه الحادثة (انها اول عداوة بين هاشم وامية) وكان البادىء بها أمية وكأن هذه العداوة كانت مقدرة بين هذين الحيين تنعقد نطفها في الاصلاب والارحام حين كان هاشم وعبد

شمس ينحدران توأمين (٢٢) ـ سبحان الله ـ تلصق ابهام هاشم في جبهة عبد شمس ، وكأن هذا ايعاز بسيادته وتقدير لزعامته ، ولكنهما حين فرق بينهما سال دمهما فتطير من حضر ومن سمع الخبر وتشاءموا أن سيكون بينهما خصام .

***

مع عبد المطلب

لم ينتفع امية من الدرس القاسي الذي ألقاه عليه هاشم ، ولم يتعظ بما ناء تحته من شرط هاشم فعاد بعد عشر سنين من الشام وكأنه كان يتجر فيلبث ما يلبثه تجار قريش من قطع هذه المراحل في الذهاب ومن قطعها في الاياب ومن المكث فيها ريثما يتم البيع والشراء ثم يضمن الربح او يبوء بالخسارة .

لم يستفد من نفيه الا الحاحا على العناد والا اسرافا في الفساد والا مضيا في الحسد والعداوة ولكأن بعـده عن مكـة اوغر صـدره وازكى حسيكته فظن انه ان اخفق في منافرة هاشم فقد يصيب بعض النجاح مع عبد المطلب فمضى على غلوائه يحفظ « شيبة الحمد » ويلقاه بما يكره ويستفزه ألوان الاستفزاز فيعرض عنه عبد المطلب اباء وكرما ولكن امية يلح في ذلك الحاحا يضطر عبد المطلب ـ كما اضطر اباه من قبل ـ الى الوقوف له غير انه حين عزم على هذا الموقف ذكر ان امية لم ينتفع بشرط ابيه فاشترط ـ لذلك ـ شرطا انكر وامكر وأبعد أثرا في اذلال هـذا الانسان الذي لا يني يتسور عليه بغير سبب ويتطاول اليه في غير طول ولا وسيلة .

---

(٢٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٧ .

راهنه عبد المطلب على سباق بين فرسين ووضع لهذا الرهان فقرا صعبة ثقيلة لم تكن تقصد الى التخسير فقط وانما كانت تقصد مع ذلك الى التحقير والاهانة والى اماتة معنوية أمية اماتة لا ينشر بعدها ولا تقوم له معها قائمة .

ولعل الاولى ان نسمي هذا الرهان مباهلة او ارهاصا ــ كما يقول المتكلمون ــ والا يكن من هذا القبيل فمن يضمن لعبد المطلب ان يسبق فرسه ؟.

انها مباهلة حقا وليست رهانا فان لعبد المطلب من حجاه ما يمنعه من المغامرة بكرامته لقاء سباق كهذا ، وعن المخاطرة بمجد كمجده في شوط بين فرسين متماثلين او قريبين من التماثل .

ان عبد المطلب لا ينيط مصير كرامته بفرسين تعرض لهما الكبوات لو لم يكن الامر مباهلة يثق منها بنجاح مضمون .

ولا نستبعد على عبد المطلب هذه الروحية العظيمة فقد كان من صفاء النفس وقدس الذات بمكان ..

كان هذا الرهان ، او كانت هذه المباهلة ــ كما اراها ــ تجعل على المغلوب مائة من الابل وعشرة من الاعبد ، ومثلها من الاماء ، يضاف الى كل ذلك استعباد سنة وكل ذلك ينضاف الى جز الناصية .

***

واستشرفت العيون ميدانا وعرا يتدفق فيه جوادان يطويانه طيا ويثيران حصاه الآمنة وجنادله المستقرة ويعقدان خلفهما جوا من النقع وسماء من الغبار . وكانت القلوب سريعة الخفق عاليته والاحداق واسعة النظر حادته ، والنفوس بينة القلق قويته ، تستحث الجري وتماشيه بالمناكب والاعناق والاكف الا عبد المطلب فانه كان هادئا مطمئنا راضيا ،

وان ثغره الجميل الوضاح ليفتر عن ابتسامة غراء تشير الى سبق جواده السابح المنساح .

ولم تلبث حال القوم هذه طويلا فما هي الا لحظات يخفق فيها الطرف ثم يعود واذا بجواد عبد المطلب ينهب المضمار نهبا ويختصر المسافة اختصارا ويقر في الغاية يعلن انتصاره بالهمهمة والصهيل ويعقد من ذيله المنتصب قوسا لهذا النصر فيقوسه حتى يبلغ بطرفه ما بين اذنيه معتزا مزهوا وخلفه منافسه يجري ويجهد في غير انتفاع .

وعاد عبد المطلب بالشرط فوزع منه ما يقبل التوزيع على قريش وأراد ان يجز ناصية أمية ولكن امية افتدى جز ناصيته بأن يكون عبدا لعبد المطلب عشر سنين (فكان امية في حشم عبد المطلب وعضاريطه عشر سنين) [٢٣] .

ويدل على هذه العبودية قول ابي طالب حين تظاهر عبدشمس ونوفل على رسول الله وقد ذكرنا الأبيات فراجعها .

ويدل عليه ايضا ما افتخر به عبد الله بن جعفر على يزيد عند معاوية في حديث جاء فيه ان عبد الله قال ليزيد : بأي آبائك تفاخرني ؟ بحرب الذي اجرناه ام بأمية الذي ملكناه ام بعبد شمس الذي كفلناه ؟

يقول ذلك على مسمع من معاوية فيقر معاوية فخره ويأمر يزيد ألا يفاخر الهاشميين لانهم « قوم لا يجهلون ما علموا ولا يجد مبغضهم لهم سبا » [٢٤] .



---

(٢٣) راجع شرح النهج ص ٤٦٦ ج ٣ .
(٢٤) راجع شرح النهج ص ٤٦٥ ج ٣ .

هذه بداية النزاع بين هاشم وامية .

ثم درجت السنون تتم هذه البداية بأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض .

وكانت هذه البداية التي لا مبرر لها ــ كما رأيتم ــ بداية ظالمة لاتصدر عن الحلم ولا عن الاناة ولا عن العقل ولو كان فيها شيء من ذلك لانعكست ــ اذن ــ الى ود ، بل الى اعتزاز بهذه القربى الرحيمة الحكيمة الممتازة وبهذه الرحم القريبة البرة العظيمة ، وبهذه العمومة (٢٥) التي ملأت مكة فيضا وغيثا وخيرا عارما وادقا ، ثم تجاوزت مكة الى الحجاز كله ثم ضاق بها هذا القطر الضيق بطماحها وآمالها فتدفقت من هنا وهناك في مسارب الارض ومسالك البيد تنجد وتتهم وتشئم وتعرق وتتيمن وتتحبش وتترك في كل مكان نشرا وفي كل نجد عطرا وفي كل ارض ذكرا .

لو ان لهذه البداية مصدرا من العقل لاعتاضت ــ اذن ــ عن الجفاء بالولاء وعن الصد بالود واقبلت على هذا معتزة مزهوة فيمن اقبل من قريش القريبة ومن قريش البعيدة ومن غير قريش ممن ألم بمكة في تجارة او زيارة ولكن هذه البداية انسبقت بالحسد فامتلأ صدر امية من كل ذلك غيظا وظل ذاكي الحقد حران الصدر غير منقوع الغليل .

ومرد هذا الحسد وجود هاشم هذا الوجود الذي ملأ السمع والبصر ، وبلوغه من دولة مكة ما لم يبلغ عبد شمس بعضه .

ثم يرد هذا الحسد الى ما تركه الهاشميون في حياة مكة من انظمة العدل والفضيلة واسباب التجارة والنعيم ووسائل الامن والسلام على نحو لم يكن فيه للامويين ضلع ولا يد .

وبعد فاجمال حديث امية انه منتحر امام هاشم : اشنع الانتحار .

---

(٢٥) نجاري بهذه التدابير احد القولين في نسب امية .

فهو مندحر بخلقه واخلاقه .

ثم هو مندحر بنسبه الذي لا يطمأن الى القطع باحد احتماليه .

ثم هو مندحر بنفسه المجدبة من مؤهلات هاشم .

وهو مندحر بأبنائه الذين تتقطع بهم الطرق دون شأو ابناء هاشم .

ثم هو مندحر بأنه لم ينل حظا من مناصب قريش ولم يسهم بشيء من الخير في حياة مكة .

وبعدئذ فهو مدحور حين اراد ان يزاحم هاشما باصطنـاع بعض اخلاقه ومطرود لقاء هذا التزوير الخلقي عشر سنين مع غرامة نقدية قدرها خمسون ناقة سود الحدق .

واخيرا فهو مستعبد عشر سنين عند عبد المطلب قضاها بين حشمه وعضاريطه .

هاشم

ولا بد لمحمد وعلي الزكيين فيما كانا فيه من قدس ان يصدرا عن رجل كهاشم ولا بد لهاشم وهو يحمل نور محمد وعلي ان يكون أمة وحده ممتازا بخلقه واخلاقه وبأجوائه وآفاقــه .
ولا بد له ان يكون كما كان وكونه في دنيــاه احســن الاكوان .

لم يكن هاشم نبيا ولكن ما كان احراه ان يخرج للناس هذا النبي الكريم ينتجع لهم الخير ويرد بهم شرائع الحياة المسلسلة المترقرقة الغراء .

ولم يكن هاشم اماما ولكن اخلق به ان يتحمل من الله امانة الامامة ثم يضعها حين يريد الله حيث يشاء فيطلع على الدنيا بأئمة هداة يملأون الدنيا قسطا وعدلا وينشرون في ارجائها المترامية المديدة مثل الحق والخير والجمال .



النبوة والامامة كالكائنات الحية تتقلبان في ارحام واصلاب وتجريان على سنة تعدهما للنضج والكمال ، وتنتقلان في مراحل طبيعية ترهفهما في السبيل الذي ينتظرهما فهما في قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب وعبد الله وابي طالب في مدارج التطور والنمو . وزعامات هؤلاء النفر الكريم مراتب من الاعداد للزعامة الكاملة الهادية التي شعشعت بمحمد وعلي وابنائهما المنتجبين .

كانت النبوة والامامة توأمين متحابين تتسايران معا في معارج هذه الاصلاب الشامخة ، وتتوقلان معاً في هذه الارحام الطاهرة حتى اذا انتهتا الى عبد المطلب وجدتا في بنيه ـ وكل ابنائه سراة ـ سريين متكافئين ومقرين متشابهين فوزعهما شيبة الحمد في عبد الله وابي طالب .

وكأن هاشما في بره واحسانه وفي جماله وجلاله وفي صلاحه واصلاحه ، كأنه في كل ذلك كان يستوحي هذه الارواح البرة المحسنة الجميلة الجليلة الصالحة المصلحة .

كأنه كان يستمد من ارواح النبوة والامامة المجمعتين له في هذه المرحلة عطفه على ذلك البلد الجديب ، وعلى ذلك الوادي الممحل وعلى تلك النفوس الشقية البائسة فيأخذ على نفسه ان ينشىء في البلد خصبا وفي الوادي نماء وفي النفوس سعادة وهناءة .

ونحن اذا نظرنا الى هاشم فانا نرى فيه صورة حقة صادقة اكبر الصدق من صور الاسلام الصحيحة ، صورة سبقت زمانها وتقدمت أوانها ، فان اعمال هاشم وعقله وهداه ، ان هاشما باخلاقه كلها وحياته كلها كان نواة صالحة تفتقت عنها أكمام النبوة وبراعم الامامة وقد اخضرت هذه النواة وافرعت وآتت أكلها الطيب وثمرها اليانع اسرارا اشرقت لها الحياة وانست بها الانسانية وازدهرت منها الحضارة وأترعت المدنية من سلسالها النمير كؤوسا لم تعرف الدنيا اعذب منها وردا .

وليس غريبا ان نرى في هاشم هذه الصورة المحببة ما دام نواة لهذه الاسرار العلوية التي كانت اكسير الانسانية المعذبة الشقية ، وهدى للقافلة الحائرة القصية .

ولا بد لمحمد وعلي الزكيين فيما كانا فيه من قدس ان يصدرا عن رجل كهاشم ، ولا بد لهاشم وهو يحمل نور محمد وعلي ان يكون امة وحده ممتازاً بخلقه واخلاقه وبأجوائه وآفاقه ، ولا بد له ان يكون كما

كان ، وكونه في دنياه احسن الاكوان .

هذا هاشم في نفسه واذا رأينا هاشما على هذا النحو كان لنا ان نقول : ان من عسف الايام ان يوضع هاشم في كفة تقابلها كفة فيها أمية ومن فعل ذلك فقد وضع وزنا في كفة رست تحت ثقلــه وترك الاخرى فارغة تتأرجح متقلقلة ثم تتزايل طائرة من هزة الكفة الحافلة بوزنهــا العظيم .

★ ★ ★

واذا انتهى الحديث الى هاشم فقف منه حيث شئت فانما انت واقف الى المفاخر البكر والى المآثر الغر ، والى المجد المؤثل المستقل الوارث الموروث في وقت معا .

ثم قف حيث تشاء من الامكنة التي سعى اليها هاشم يومئذ او طاف بها فسترى عطفا على العاني والمكروب ، وهشا الى البذل والعطاء . وموئلا للمظلومين والبؤساء . وستسمع ـــ انى اتجهت ـــ اياديه توحي للمــداح ما توحي وتنطق القرائح ما تنطق !

ففي كل ركب حديث وفي كل بلد شاد ترق الحانه وتنسجم اوزانه ، وتحتبك قوافيه ، وتتعالى معانيه، وتندفع انغامه عالية واضحة مرنانــة تحبب للناس هاشما وتدعوهم الى احترامه وايثاره .

أرهفوا السمع معي .

فلا تزال تلك الاصداء ترن متجاوبة مدوية في هذا الاثير الحافظ . ولعل العلم الذي ولد اللاقطة للاصوات الحية البعيدة يلد مرة ثانية لواقط تمتعنا بترديد الاصوات البائدة التليدة ، وعندئذ نسمع الاصوات نفسها ونستغني بها عن رجع الصدى في الكتب التي اقبرت اهم الحقائق ـــ فيما اظن ـــ وتركت اصدق الاخبار فنسمع حينئذ الاصوات نفسها بجرسهــا

ولحنها مرفوعة العقيرة ــ أرهفوا السمع معي ــ تقول :

كانت قريش بيضة فتفلقت | فالمخ خالصه لعبد مناف (١)
الرائشون وليس يوجد رائش | والقائلون هلم للاضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه | ورجال مكة مسنتون عجاف

وتقول :

تحمل هاشم ما ضاق عنه | واعيا ان يقوم به ابن بيض (٢)
أتاهم بالغرائر متأقات (٣) | من ارض الشام بالبر النفيض
فأوسع اهل مكة من هشيم | وشاب الخبز باللحم الغريض (٤)
فظل القوم بين مكللات | من الشيزاء حافرها يفيض (٥)

وتقول في هاشم وبنيه :

ملوك وابناء الملوك وسادة | تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر(٦)

---

(١) هذه الابيات لعبد الله بن الزبعرى وقد ادرك الاسلام وكان من خصومه الهجائين الموجعين وانتدب له حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة حين استعدى النبي (ص) المسلمين عليه في خبر معروف ضرب فيه حسان بأرنبة انفه وقال : لو ضربت به شعرا لانحلق او حجرا لانفلق .

(٢) هذه الابيات لوهب بن عبد قصي .

(٣) متأقات ممتلئات . والبر النفيض القمح النقي .

(٤) شاب خلط ومزج ، اللحم الغريض الطري وعملية المزج بين الخبز واللحم تنشىء الهشيم المثرود .

(٥) يقال : شيز البرد اذا خططه بحمرة والشيزاء هنا استعارة لتخطيط اللحم فوق الصحاف المكللة باللحم والثريد الفائضة بالدهن والهشيم .

(٦) هذه الابيات من قصيدة لحذافة العدوي يوصي فيها ابنه (خارجا) ان يتمسك بولاء بني هاشم وستمر قصة هذه الابيات .

متى تلق منهم طامحا في عنانـه	تجـده على آجراء والده يجري
هموملكوا البطحاء مجداوسؤددا	وهم نكلوا عنهـا غواة بني بكر
وهم يغفرون الذنب ينقم مثلـه	وهم تركوا رأي السفاهة والهجر
أ (خارج) امـا أهلكن فلا تزل	لهم شاكرا حتى تغيـب في القبر

فانكم حين ترهفون السمع تستمعون الى مدائح لا تنتهي يصوغها الشعراء قلائد في جيد كل خلف من هذا البيت الكريم .

سر عظمتـه

وكان طبيعيا ان يظفر هاشم بهذه العظمة وينتهي الى هذه المكانـة المرموقة يسود بها العرب غير مدافع ولا مختلف فيه فان حيـاة هاشم الغضة القصيرة بمقدارها الطويلة الكبيرة بكيفيتها حياة حافلة المـآتي تفيض بألوان البر وتحفل بضروب من الخلق والتجديد في حيـاة قريش التي كانت حبيسة في مكة بعيدة عن الامتزاج والتواصل وعن الاسفـار والضرب في وجوه الارض قانعة بما يفد اليها من سلع وبما يمر بها مـن بضائع .

وعظمة هاشم ـ عندي ـ في هذا التجديد والابتكار وفي ارهـاف الحياة الى عمل مجد اعظم منها في بره واحسانه وفي هشمه الثريد واطعامه الطعام ، وفي رده المظالم عن العانين والمكروبين .

على ان في هذه العظمة مظاهر من الانسانية الرفيعة لها جمالهـا ولها قيمتها في ذاتها .

ولكن عبقرية العظمة اظهر ما تكون بهذا الفكر المبتدع وبهـذه النفس الخلاقة التي تخرج بقومها من الضيق الى السعة ، ومن البؤس الى السعادة ، ومن القلة الى الوفر .

ولعل عظمة الاحسان والبر نفسها في هذه الناحية اعظم منها في البذل

والرفد والاطعام ، أليس براً اعلى البر ان تنقل الحياة كلها من مقامها على ضحضاح الى منابع ثرة وجنان مخضرة تجري من تحتها الانهار ؟ أليس الاحسان الى المجموع خيرا من الاحسان الى الفرد ؟

على انا نجد من يشارك هاشما في البذل والعطاء والاهتزاز بهذه الاريحيات العربية ولكنا لا نجد من يشاركه بهذه العظمة . عظمة الفكر والاصلاح فهو بها مفرد وحيد بعيد عن الند .

نعم ، عظمة هاشم فيها شكول من العظمة وازهى هذه الشكول ادخاله مع حياة قريش مذاهب في العيش جديدة ومسالك من الحياة تعدها للاصلاح الاجتماعي وتكفل لها الرغادة والنعيم وطيب البال .

وكذلك كل غطريف من عمود هذا النسب الشريف يمتاز بناحية من نواحي التجديد في زمانه فيتم ما نقص من الحياة حتى بلغت بمحمد (ص) تمامها الكامل الشامل .



عصره يصفه

كان هاشم غض الشباب . وريق العمر . طيب النشر . مشرق الثغر ، وكان ناضر العود اغر الجبين صبيح الوجه مبارك الناصية لا تكاد تقع عليه العين حتى تعلق به فلا تنصرف عنه . تحب منه هذه القسمات الواضحة وهذا الجمال الرائع وهذا البياض الناصع وهذا الشباب الرائع في قوام معتدل وخلق سوي وبناء مستقيم ، ولا تكاد تقع عليه حتى تألفه الروح وينفتح له القلب وتضعه النفس منها موضع الحب والاحترام .

كان لهذه الوسامة المشرقة يسميه الناس (البدر) مرة و (القمر) اخرى ، يقول مطرود الخزاعي في قضية حاكم فيها بعض قريش الى هاشم

الى القمر الساري المنـير دعوته ومطعمهم في الازل من قمع الجزر(٧)

وقد عني به معاصروه اشد العناية .

عنوا باسمه وبزعامته وباخلاقه وببنيه فأحاطوا كل ذلك باعتبارات خاصة ، وعاملوه معاملة لا نجدهم يعاملون بها احدا غيره .

اسم هاشم (عمرو) ولكنهم لم يسموه عمرا وانما اشتقوا له من عمله الصالح اسما كريما محببا عذبا وسموه (هاشما) لانه هشم الثريد لقومه (٨) ثم غلبوا عليه هذا اللقب الكريم .

واذا اراد ذاكر ان يذكر اسمه لم يذكره مجردا من اضافة تدل على عنايتهم به هذه العناية الخاصة فيقول (عمرو العلا) (٩) وهو بعدئـذ (القمر) و (البدر) (١٠) وما الى هذه المجازات والاستعارات التي كانوا يعبرون بها كلما تحدثوا عنه في شعر او نثر تكرمة له واجلالا لاسمه ان يذكر كما يذكر غيره من الاسماء .

ونحن اذا رجعنا الى ما في الطبع العربي من البعـد عن المجامـلة والتكلف واساليب التعظيم علمنا انهم كانوا مطبوعـين على احترامـه لا يتكلفون في ذلك ولا يجاملون .

★ ★ ★

---

(٧) الازل الشدة والضيق والقمع بفتح القاف والميم من كل شيء خياره وهو جمع مفرده قمعة والجزر النحر والذبح وقد اقيم المصدر هذا مقـام اسم المفعول .

(٨) راجع ترجمة هاشم في كامل ابن الاثير المجلد الاول جـ ٢ ص ٧ وشرح النهج جـ ٣ ص ٤٥٧ .

(٩) شرح النهج جـ ٣ ص ٤٥٣ .

(١٠) ابن الاثير في ترجمة هاشم وشرح النهج جـ ٣ ص ٤٥٣ .

وكان الى جانب بهائه وسنائـــه وجماله الخلقي ـ بكلمة جامعة ـ جميلا بصفاته الخلقية النفسية ايضا .

كان يجمع الى سماحة الطبـــع ولين الجانب ورقة الشمائل كبريـــاء النبل وبذخ الشرف وقوة النفس وكان مع شبابه وعلى انحشاره في تلك البيئة التي تمتلىء بأرجاس الجاهلية كان ـ على ذلك ـ لا يصدر الا عن الرزانة والوقار والا عن الروية والعقل فلا يبسم لما يخدع الشباب من هذا اللهو الاثيم ولا يلم بما يطير بشباب قريش الى هذا الغش الجريء يتعرض للكريمات ولذوات الريبة معا بما يكرهن وبما يرضين كما كان يفعل امية ومن اليه من فتيـــان قريش المأخوذين بالصيد والخمر والميسر والزنا بـــل كان هاشم يعرض عن كل هذا لا يحفل به ولا يلقي اليه بـــالا وربما تجاوز ذلك الى طعنه وتجريحه والنهي عنه .

وكان يمتاز عن سروات قريش بهذه العقيدة الروحية التي تسيطر عليه فتسمو بدعوة غشيان ما يغشاه الناس يومئـــذ ، كان يمتاز بصدق الايمان وقوة اليقين فاذا قال لم يكذب واذا عمل لم يظلم واذا اكتسب كان كسبه من الحلال الطيب .

على هذا النحو يلم بالحياة طاهر الذيل عف الازار لا يلحقه دنس او رجس وهو بعدئذ يصل الارحام ويعطف على الفقير . ويؤاسي الكسير ويطعم الجائع ويكسو العريان وينتصـــف للمظلوم مـــن الظالم ويمنـــع المستجير امينا على كل ذلك ميسرا له .

بهذا تمكن ـ في بداية الامر ـ من نفوس قريش وجمـــع اليه كل الرأي فكان سيد بني ابيه ، ثم سيد قريش وارسخها قدما في المـــآثر والفضـــل .



منصبـــان

كانت مناصب قريش في (عبد الدار) عوضه بها ابوه (قصي) عن خمول ذكره [11] ليلحقه باخوانه الذين شرفوا عليه وتقدموه .

ثم أورثها هو ابناءه فكانت لهم السقايـــة والرفادة والحجابة واللواء والندوة ومع ذلك فلم يكن امر قريش لهم وانما كانت السيادة لعبـــد منـــاف [12] .

والجمع بين الخبرين [13] ــ كما هـــو ظاهر ــ ان تكون هـــذه المناصب لبني عبد الدار في غير كفاية لها ، وان تكون الزعامة لعبد مناف وبنيه استحقوها بكفاياتهم الراجحة واهلياتهم الممتازة .

ومهما يكن من شيء فان هاشما لم يجد انسجاما ما بين بني عبد الدار وبين هذه المناصب الرفيعة في قريش ، ولم يجدهم امناء على القيام بأعباء هذه الوظائف ، فهم فيها ولكنهم لا يفهمون حكمـــة وضعها ، ولا يلائمون بينها وبين ما تطلبه من تنظيم الحياة في مكة على النحو المطلوب من تأسيس هذه المراكز .

فقام ــ من اجل ذلك ــ يدفعهم عنها ليحقق امانيه في تنظيمها وتنظيم الحياة على نحو ما يرجو ان تكون هذه الاحياء الكريمة من قريش في بلد

---

(١١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤١ .

(١٢) الطبقات ص ٤٢ ج ١ .

(١٣) في كتب التاريخ هنا بعض التواء مرده اختلاف الروايات . فابن الاثير وابن ابي الحديد يقولان ان هاشما تولى السقاية والرفادة بعد ابيـــه ويفهم من هذا ان عبد مناف كان يتولاهما ، وابن سعد يقول ان عبد الدار ورثهما وبقية المناصب من ابيه تعويضا له عن خموله . وللجمع بين القولين قد يقال بأنه ربما تنازل عنهما لصعوبتهما الى اخيه عبد مناف ولكن يعترض هذا التفسير ان هاشما اخذهما عنوة الا ان يكون عبد الدار استردهما ثم اخذهما هاشم بعدئذ والقدر المتيقن في كل حال ان هاشما وليهما بشهادة اجمـــاع المؤرخـــين .

كريم كمكة .

وفي يوم اغر من ايامه المحجلة المباركة يجمع اخوانه (١٤) المطلب وعبد شمس ونوفلا (١٥) ويدعوهم للتساند في طلب السقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة والحجة في استيلائهم على ذلك ان لهم هم الفضل والتقدم والوجاهة في قومهم . فهم ـ لهذا ولانهم اعرف بتوجيهها ـ احق بها من بني الدار .

ثم يغدو بهم على بني عبد الدار فيدعوهم الى اعتزال هذا الامر والى ان يفسحوا لبني عبد مناف الطريق للقيام بمهام هذه المناصب على وجهها الاكمل الاصلح الذي عجز عنه العبدريون . ولكن العبدريين ابوا الاعتزال واصروا على التمسك بما لديهم .

وكان لا بد للالحاح المتبادل ان يفضي الى البراز .

فتنشق مكة الى صفين بل الى ثلاثة صفوف فاما الاول فهو الصف المطالب ويتألف من بني عبد مناف واحلافهم بني زهرة وبني اسد وبني تيم وبني الحارث وقد عرف ذوو هذا الصف بالمطيبين لانهم اخرجوا جفنة ملأوها عطرا فغمسوا بها ايديهم وتحالفوا على التساند ما بل بحر صوفة .

واما الصف الثاني فهو الصف المستأثر ، ويتألف من بني عبد الدار ومن احلافهم مخزوم وسهم وجمح (١٦) وعدي وقد عرف ذوو هذا الصف بالاحلاف وبلعقة الدم لانهم اخرجوا جفنة ملأوها دما فغمسوا بها ايديهم

---

(١٤) الطبقات ص ٤٤ ج ١ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ طبع محمد علي صبيح .

(١٥) انقسموا بعد هاشم فكان بنو هاشم ،والمطلب وبنوه يدا واحدة وكان نوفل وعبد شمس وابناؤهما يدا واحدة .

(١٦) كانت جمح وسهم معروفتين بالغلظة والعدوان ، وعدي من الارذلين في قريش ولمخزوم نباهة وشرف .

وتحالفوا على التساند ما بل بحر صوفة .

واما الصف الثالث فهو الصف الذي آثر السلامة ورأى الحياد ابقى له واضمن لوداد الجميع ، ويؤلف هذا الصف بنو عامر وبنو محارب .

★ ★ ★

وعبأ كل صف من صفي النزاع احلافه للقتال وفيما هم يدلفون الى الحرب او يكادون اذن مؤذن بالصلح فتداعى القومان وتراضيا على ان ينال بنو عبد مناف السقاية والرفادة ويبقى في بني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة .

ويظهر ان وزارتي السقاية والرفادة اعظم خطرا مما يليهما من وزارات قريش ولعل ذلك لانهما اكثر اتصالا بمفاخرهم وامس ابتلاء بحياتهم العامة ومن هنا كانتا في القسمة اثنتين تقابلان ثلاثة .

وكان من المتعين ان يتقلد الوزارتين من بني عبد مناف هاشم ذلك لانه هو مجدهم وسيدهم واذا صح ان يعارض بأحد من بني ابيه فلا يصح ذلك لغير المطلب (فيض قريش) ونداها السمح الكريم ولكن فيض قريش من الادب وعرفان مقام اخيه بمكان التسليم له والخضوع اليه ، وقد وليهما بعده مدة طفولة عبد المطلب ثم ارجعهما الى عبد المطلب حين شب واشتد ساعده .

اما عبد شمس فقد كان ذا اقلال وكان عيالا على اخيه هاشم يضمنه وينفق عليه فلا يستطيع في هذه الحال ان يصبو الى نزاعه .

وأما نوفل فأهون بأمره عن أمر اخيه .

قام هاشم بأمر هاتين الوزارتين يعد لهما ادارة صالحة يستقيم عليها مجد قريش وترجع بها حميدة مشكورة اذا اقبل الحجيج على ضامر من

كل فج عميق .

فكان يفرض على قريش جعلا رقيقا هو اشبه بالتخيير منه بالتكليف والامر ان يجبوا اليه من أموالهم الطاهرة الطيبة « ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام (١٧) » وكانت قريش تستجيب لـه راضية منقادة يرسل اليه كل اهل بيت من عامة قريش ما تسمح به حالهم من الميسور لهم . وكان الخاصة من المياسير يرسل اليه كل منهم مائـة مثقال ذهب هرقلي (١٨) يجمع منها الخراج (١٩) للسقاية والرفادة ويسد عجز النفقات من ماله الخاص بالاضافة الى ما يبذله من المال الكثير .

وكانت اوامره تصدر بخطابات يجمع لهـا قريشا في كل موسـم فيذكرها بأحسابها وانسابها وبما لهذا البيت الذي تخدمه من فضل ومكانة، وبما لزواره من حق وكرامة ، ثم يمضي على بسط الاكف بالبذل لضمان راحة هؤلاء الوفود المتعبين .

يقول في احدى خطبه :

(يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته ، وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم لذلك ضيف الله ، واحق ضيف بالكرامة ضيف الله وقد خصكم الله بذلك واكرمكم به ثم حفظ منكم افضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون من كل بلد ضوامر كالقـداح وقـد ازحفوا وتفلوا وقملـوا وارملوا فأقروهم

---

(١٧) من كلامه في احدى خطبه .

(١٨) راجع كل ذلك في الطبقات ج ١ ص ٤٥ وشرح النهـج ج ٣ ص ٤٥٦ والنزاع والتخاصم ص ١٨ .

(١٩) نعني بالخراج الميزانية فان الدول الاسلامية كانت تطلـق لفظ (الخراج) على الواردات ولفظ (النفقات) على الصادرات ونحن آثرنا لفظ (الخراج) لانه اجرى مع الفصحى .

واغنوهم وأعينوهم (٢٠) .

بمثل هذا البيان الساحر المشرق المحـكم العبقري يستحثهم على الترادف في المساهمة بتيسير وسائل الراحة لوفود الموسم .

فاذا اعد الخراج واقبل الموسم امر بالحياض ينقل اليها الماء مـن البئار ليسقى منها الحاج وكان يطعم الحجاج قبل الترويـة بمكة وبمنى وبجمع وعرفة فيثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر .

ويزودهم بالمياه الى منى على قلة الماء يومئذ . فاذا صدروا من منى فقد انتهى الموسم وتفرق الناس وختمت الضيافة .

★ ★ ★

صـــلاح



وقبل ان افارق هذا الموضوع من حديث هاشم احب ان اقف على طرف من نسكه وصلاحه وتأثمه في تلك الجاهلية التي لا تتأثم من مكروه في قطع رحم او نهب مال او أكل حرام .

اريد ان اجتلي منه هذه الصورة الاسلامية الصحيحة التي سبقت زمانهـا .

كان هاشم يحرص الحرص كله على الا يقطع رحما ولا يظلم احـدا ولا يأكل حراما في مال يكسبه ، وكان ـ من ورعه ـ اشد حرصا على ان يكون المال الذي ينفق في سبيل الله فيطعم منه ويسقى به الحـاج كان

(٢٠) الضوامر : الضعاف الهزال ، والقداح ، جمع قدح بكسر القاف وهي السهام وفي المثل وحن قدح ليس منها . وازحفوا : أعيـت أبلهم . وتفلوا : ذهب عطرهم يكنى بها عن بعد عهدهم بالطيب والنظافة لطول السفر وقملوا : كثر قملهم . وأرملوا : احتاجوا . واقروهم : احسنوا ضيافتهم .

حريصا ــ بوجه خاص ــ ان يكون هذا المال كله حلالا طيبا ، فانه اذا كره لنفسه المال الخبيث ثم كرهه لغيره كذلك وكره ــ الى ذلك ــ ان يختلط ماله الحلال بمال حرام في نفقات الحاج ، فانه لهذا المال يأكلـه حجاج الله اشد كرها فينبغي الا يدخل اجوافهم وهم بين يـدي الله الا الحلال الطيب .

لا اتقول عليه هذا النسك ولا انحله مني هذا الورع فانه هو يقول في بعض خطبه :

« فورب هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك ــ يشير الى نفقات الحاج لكفيتموه الا واني مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شاء منكم ان يفعل مثل ذلك فعل .

وأسألكم بحرمة هذا البيت الا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم الا طيبا لم يؤخذ بظلم ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب (٢١) .

هذه الاخلاق شيء نادر حقا في الجاهلية بل في كل زمان ولكنها من مميزات هذا البيت الكريم الذي برهن في كل جيل من اجياله على ان له رسالة تمتد ما امتدت اسباب الحياة في الناس ، يتضافر كل خلف منهم على اتمامها وسمكها وتوطيـد امرها لا يبالون في سبيلهـا اشد المكاره واشق العنت .

على ان حرصه على هذا الورع لم يكن ورعا فقط بل كان اصلاحا ودعوة الى التقوى واستدراجا حكيما الى الاستقامة والتهذيب فان من انتهى عن الظلم والحرام وقطع الارحام ورجع الى نفسه الصالحة من تلك

---

(٢١) راجع شرح النهج ج ٣ ص ٤٥٨ .

الاثام في بعض الاحوال يرجى ان يستدرج الى الانقطاع في كل الاحوال او في اكثرها ، وهذا ما يرمي اليه هاشم بعظاته الى جانب ما ابان عنه من ورعه وتقواه وحرصه على مقابلة الله وزواره بالطهر والعفو والقدس .

★ ★ ★

اصـــلاح

لم يطمئن هاشم الى ما بلغه في مكة من الجاه والبسطة والنفـوذ فيقف عند ذلك .

ولم يقف عند رفادة الحاج وسقايته حين اتهتا اليه بل كان تواقا الى ما وراءهما من وجوه الاصلاح ومعاني التجديد .

كان يطوف به طائف من نفسه يدعوه صباحا اذا اصبح ويدعوه مساء اذا امسى ان يخرج من عسر هذه الحياة الى يسر ومن ضيق هذا العيش الى سعة فما بال قريش ترضى بهذا الانكماش ؟

يسعى اليهم الناس وهم يسعون الى الناس ؟!

ويموج بهم من في الافاق وهم عن الخروج من مكة منصرفـون يخافون ان تمتد اليهم انياب الذئاب اذا هموا بالانصراف الى تشوف ألوان الحياة بعيدين عن ليالي الشعاب ونهارات البطاح فيظلون جامدين على هذا النوع من الحياة لا يحيدون عنه .

يستقبلون عروض التجارة ولا يصحرون به ويبدلون من بضائعهم وعوائدهم بقدر ما تسمح عناية الوافدين ورغبة المسافرين القاصدين ، وليست الحياة الا الحياة التي تصحر وتبحر وتقصد كما تقصد فتأخـذ وتعطي قريبة وبعيدة مسافرة وحاضرة :

ولو يدرك العز بين البيوت ـ لما اصحر الاسد الباسل

هذا ونحوه كان يشغل بال هاشم فيبيت منه في هم ويصبح منه في

تفكر يملأ ثنايا نفسه ويملك زمام همته .

يشغله ان يجد لمكة وقريش حياة اوسع من هذه الحياة وحالا انعم من هذه الحال فقد كانت قريش قبائل متشابكة تقتعد مكة وتعتمد في اكثر معاشها على تجارة ضيقة يسيرة لا تتجاوز ان تنتظر الاعاجم يجوبون اليها الصحراء بالسلع والعروض فاذا جاءهم الاعاجم ابتاعوا منهم وتبايعوا بينهم (٢٢) مما تبضعوا فاذا فضل عنهم شيء من هذه السلع جاوزوها بالبيع الى من حولهم من العرب .

هذه هي الحالة التي كانت قريش تتجر فيها وتقتصر منها على هذه التجارة الحصينة في غير خروج عنها .

حتى اذا أيفع « بدر قريش » وضاقت نفسه بهذا العيش المحدود ابتدع فكره الولود طرقا انداحت له كما يريد وابتكر لقريش وسائل جديدة للتجارة والرفادة يوغلون بها يمينا وشمالا . فيعودون موقرين حقائب واحمالا .

يقول عبد الله بن العباس : « والله لقد علمت قريش ان اول من اخذ الايلاف واجاز لها العيرات لهاشم .

والله ما شهدت قريش رحالا ولا حبلا بسفر ولا اناخت بحضر الا بهاشم .

في دمشق

والله ان اول من سقى بمكة ماء عذبا وجعل باب الكعبة ذهبا لعبد المطلب » .



(٢٢) يروي هذا شرح النهج ص ٣٥٨ جـ ٣ عن الزبير بن بكار .

نعم انعقدت على تجديد مجرى الحياة نية هاشم وما يزال في غض الشباب وريق العمر ، فاستمد لنيته الحازمة قوة من شبابه المقتبل ومضى في حدث بكر في حياة قريش . يعد الرواحل والحمول ويزم الركائب والمطي يرقل بها ارقالا ، ويقطع المسافات تفصيلا واجمالا ، بين تعريس وتغليس ، يهبط واديا ويرقى جبلا حتى يشرف على المروج الخضر والمرابع الفيناء من مشارف الشام الفيحاء .

وعندئذ يحط في مخيم عريض مضرب الاطناب ، عالي الذرى سمين الافياء واسع الارجاء تذبح بين يديه الشياه وتمتلىء في فسحاته الجفان كالجوابي وتحتشد في مطابخه القدور الراسيات ويمتد خوانه بهذا الثريد الطيب المعطر بالاحماض والبهارات فيجتمع على صحافه الناس يأتدمون منه ثم يصدرون عنه ندية ألسنتهم بالثناء مخضلة قلوبهم بالحب والولاء .

ولم يكن ليمر غزو هاشم الشام ولاسواقها غزوا هينا يلم بها وينصرف عنها كغيره ممن يغشون هذه العاصمة في غير اثارة الى انتباه ولا احداث الضجة تدل على عظمته وتعلن عن وجوده وان كان الناس ليأتونها ويفارقونها من غير ان تحفل بهم او تلقي اليهم بالا .

وانه المفروض في العواصم الكبرى الا تحس بالداخلين اليها والخارجين منها والشام يومئذ مثابة قيصر عاهل الروم ومستقر ملكه العظيم فليس بدعا ان تنطفىء فيها لوامع الشخصيات وتفيع في دويها الهادر الاجراس والاصوات .

ولكن ذاتية هاشم العظيمة تأبى الا الاشراق ، فتسطع في كل افق وحياته القصيرة بكل ظروفها تلفت الانظار وتفرض له الاعجاب والاكبار لانها حافلة بكل مآت جسام .

من هنا كان مفروضا في هاشم ان يلفت النظر الى وجوده حتى في هذا الجو المزدحمة فيه انماط من الزعماء واشكال من الوجوه وألوان من

الوفود ، فلا يهبط دمشق حتى تشع فيها انواره وتتواتر اخباره يتهاداها طبقات من اهل الشام يختلفون الى قيصر ويحملونها اليه فيصفون له شباب هاشم وجماله واريحيته ونواله فهو شاب وسيم جميل جليل كريم يثرد للمعتفين الخبز في جفان من المرق ثم يكسوها بلحم غريض طري .

كان ذلك سببا في اتصال المودة بين هاشم وقيصر ، فان قيصر حين بلغه عن هاشم ما بلغه دعاه اليه وكلمه فأعجب به (٢٣) واحبه وجعل يرسل اليه فيسعى له هاشم متزنا حصيفا في أبهة من الكرامة ومواكب من العزة وكان يمس قلب قيصر ببنان من تأثيره ونفوذه ويستولي عليه بسلطان من عقله وحديثه فيصل منه الى حيث يريد .

وقال له مرة وهما يتحدثان — وقد عرف مكانته منه — :

لعلك — ايها الملك — تتسع لقريش تختلف بمتاجرها الى هذه المملكة الغنية فتصارف رعاياك بما تحمل اليهم ما تحتاج اليه مما عندهم فتصيب التجارة في بلدك بعض الربح المتبادل بينها وبين سلع جديدة قد آثر اهلها ان يتصلوا بهذا البلد لما تحمله اليهم عنه الاخبار الحسان .

ولعلك — ايها الملك — تربح من معنويات هؤلاء الوافدين اكثر مما تربح رعيتك من مادياتهم فان لقريش جاها في العرب وسلطانا تستحق بهما ان تختصها ببعض الود وتصطفيها ببعض المنافع وتؤثرها بشيء من هذه الامتيازات ولقريش من الوفاء — رعاك الله — وعرفان الجميل ما تستطيع ان تعتمد عليه وتثق به وتعلم منه ان يدك البيضاء لن تضيع ولكنها ستهز قريشا كريمة وفية برة فتحفظ لك من الوفاء ما يحفظه الكرام لمن يصطنع

---

(٢٣) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٤٣ وشرح النهج ص ٤٥٨ جـ ٣ وفي ترجمة هاشم من ابن الاثير وابن سعد ان هاشما اخذ الحلف من قيصر لقريش ان تختلف آمنة الى الشام .

فيهم الخير :

ولعل قريشا ـ ايها الملك ـ في نفسها وفي بيتها وفي وسطها من العرب ومن التجارة مستحقة ان تأذن في الاختلاف الى مملكتك وان تميزها في هذا الاختلاف بحلف مكتوب بينك وبينها يخولها الالمام بهذه الاسواق وبهذا البلد مطمئنة آمنة .

وكان قيصر يصغي الى هاشم مبالغا في الاصغاء مأخوذا بمنطق حديثه مقبلا على نبل غايته محترما بره ببلده وقومه .

وكان من ذلك ان اقتنع بفكرة سياسية قد تعينه على مزاحمة كسرى بهذه المعاهدة فكتب حلفا يعطي قريشا طلبات هاشم .

ثم يتوسط الى النجاشي بطلب من هاشم ايضا ان يسمح لقريش بالاتجار في الحبشة ويعقد معها حلفا كحلفه معها .

***

وتسفر شمس مكة عن صباح مشرق الحواشي منبلج الانوار مبارك الغداة يحمل لمكة ولاهلها من الايد والكرامة ومن الحياة والمتعة ما حمل اهل مكة ان تقذف بأبنائها لاستهلال (قمر قريش) في موكبه الهادف اليها كما يزحف الغيث من افاقه بالخير والري والحياة .

هذا الرغاء يملأ سماء مكة بالحنين وهذه الجمال تملأ بيوت مكة بكل علق ثمين ، وهذا (قمر قريش) يطل عليها بطلعته الميمونة فيكل النفوس بالبشر والبشاشة ويطلها بالبرد والندى وتبدأ منه في هذا اليوم حياة منسوبة الثراء والخير الى هاشم فتعرف قريش به نعمة اليسار وسعة العيش وتطعم بايلافه من جوع وتأمن من خوف وتطرد بعدئذ في ربح يمهد لها الخفض والدعة في ذلك البلد الجديب ، وهو بعدئذ يصلها بدول

ذات سلطان بعيد قاهر تعقد معها وشائج الود والسياسة .

***

الايــلاف

يقول المؤرخون ان هاشما اخذ الحلف من قيصر لقريش ان تختلف الى الشام آمنة مطمئنة ، فما معنى هذا الحلف وما مفاده ؟

أكان محظورا على الزوار والسائحين والتجار ان يختلفوا الى الشام او يلموا بها فأخذ هاشم لقومه جوازا يحل لهم ان يغشوها في حين ان غيرهم يصدون عن غشيانها ؟

أكانت يومئذ حدود وسدود وعراقيل تحول دون الوصول بغير هذه النصوص والتصريحات الرسمية؟ لا، ما نظن شيئا من هذا كان يعترض المختلفين الى الشام بوجه من وجوه الاختلاف .

واذن فما معنى الحلف وما مفاده وابواب الشام منفتحة للوالجين في غير حلف ولا ضمان ؟ واذا لم تكن مفتوحة لكل داخل فاي امتياز لهذا الحلف عن غيره اذا كان جوازا يأذن بالمرور فقط ؟ الحلف يومئذ كالمعاهدة اليوم يقوم على شروطها ويكتسب امتيازاتها ويدل على معناها . وحلف هاشم هذا معاهدة اقتصادية او اتحاد تجاري يبتنى على صدق المعاهدة وحسن الجوار والتبادل . وهو بعد عقد صحيح الايجاب والقبول بشروط تضمن المصلحة المشتركة .

وفرق وجوده عن عدمه انه يسهل اسباب المعاملة بامتيازات لا تمكن بدونه فالامن والوجاهة والحرية والاعفاء من ضرائب يومئذ وجماركه وما الى ذلك كلها من امتيازات الحلف .

وربما تجاوزت التعاون الاقتصادي الى ما وراء الاقتصاد مما يسببه التعاون فيه من التعاون السياسي ومما يجره كل ذلك من الاستفادة

القهرية في نواحي الثقافة والاجتماع .

ولفظ « الايلاف » في مفاده قريب المعنى والوضع جدا من معنى « المعاهدة » بل هو ادل منها على ما يقصد بالمعاهدات من اتفاق على مصالح معينة وارتباط ـ من اجل ذلك ـ بمودة او تفاهم ، فالايلاف اشتق من الالفة او التآلف والمؤازرة على ضمان السلامة للحلف ـ كما سنحدثك ـ واحراز منافعه ومن هنا سمي ايلاف .

فوضع الايلاف سلاحا سلميا لحماية الحلف يدل على ما يريده الحلف من معاني المعاهدة او الاتحاد او التعاون او ما يشبه ذلك مما تصطلح عليه اليوم الدول او المؤسسات الكبرى فيما يشبه ذلك من اغراضها الاقتصادية او السياسية .

والحق ان هاشما عبقري مشبوب الجذوة محكم الرأي لا يدخل النقص الى شيء من عمله او قوله بنقد ، اخذ من قيصر هذا الحلف أفمقتصر هو على ما اخذ ومكتف منه بهذا القدر الرسمي ؟

لا وان يقظته العقلية تأبى له ان يجتزىء بهذا المقدار من العمل فانه يعلم ان الحلف وحده لايأتي بكل الغرض المنشود، ذلك لان قيصر اذا اجاز لقريش ان تختلف الى الشام وتوسط لها ان تختلف الى الحبشة بمثل ما تختلف الى بلده فمن يمنع هذه القبائل الممتدة في الصحراء ان تملك السبيل على هذه التجارة فتستلب اعيانها واموالها او تلتحم مع حراسها واجنادها بمعارك تجعل التجارة جحيما والاسفار اليها عذابا يعكس الغرض الذي يرمي اليه هاشم من اليسار لقريش في امن وراحة .

كان عليه ان يستكتب قيصر هذا الحلف ـ وقد فعل ـ ثم كان عليه ان يضمن سلامة القوافل والعير حين تقبل من الحجاز الى الشام وحين ترجع من الشام الى الحجاز . واذا لم يضمن الثانية فانه لا يصنع شيئا من الاولى فماذا هو صانع ؟

ان لعقله الموهوب تدبيرا يقود الامور سلسة طيعة ، وبهذا التدبير الماهر امتاز هاشم في كل موقف وبه كان صاحب الايلاف الضامن الذي منّ به الله على قريش وامرهم ان يعبدوه لهذه النعمة اعتدادا بها وتمجيدا لها « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

بهذا التدبير الحكيم استن لقريش رحلتي الشتاء والصيف الى اليمن والى الشام وربما جاوزهما الى انقرة في رحلة الصيف والى الحبشة في رحلة الشتاء .

ثم ضمن السلامة لهذه السنة بفكرة الايلاف [٢٤] فاشرك في التجارة ملوك الروم في الشام والعباهلة ملوك اليمن واليكسوم ملوك الحبشة وجعل لهم نصيبا من الربح [٢٥] وكان يسوق لهم ابلا مع ابله ليخفف عنهم مؤونة الاسفار ، ويشترط عليهم لقاء هذا كله حفظ القوافل وامان التجارة .

ثم تجاوز هذا كله الى القبائل والاحياء المنبثة في الصحراء فاذا به يتفق معهم على الامان والسلامة بأن يحمل لهم بضائعهم بلا كراء .

بهذا النظام حول هاشم مسبعة الطريق الضارية الى امن ودعة وبدل

---

(٢٤) يقول ابن سعد في طبقاته ص ٤٥ ج ١ : ان هاشما اتفق مع القبائل ان تحمل لهم قريش بضائعهم بلا كراء لقاء امن قريش في الطريق ، ويفسر الجاحظ الايلاف (كما في شرح النهج ج ٣ ص ٤٥٤) الايلاف بتفسيرين اولهما ما ذكرنا في الاصل وثانيهما ان هاشما فرض على القبائل الجريئة التي لا تحترم البيت كقضاعة وخثعم وطيء ضرائب قيدهم بها ان يعتدوا على قريش ، ومهما يكن من شيء فان هاشما هو صاحب الايلاف بلا جدال .

(٢٥) يدل هذا على عظم التجارة وكثرة الربح الى دلالته على غزارة العقل وقوة التدبير .

تهاويل الصحراء الفاتكة الى طمأنينة واستقرار ، يمر فيهـا من مكة الى الشام فأنقرة ثم من مكـة ايضا الى اليمن والحبشـة كما يمر الصديـق الحميم والشريك الامين يتلقونه بالترحيب ، ويستقبلونه بالشوق والود والاحترام ، فيذهب ليلا ــ اذا شاء ــ او نهارا يسير في غير حذر ولا رقبى كأنه انما يسير في املاكه انى سار ، وكأنه يمشي في حدود سلطانـه وهو يقطع الفيافي والقفار . فاذا دخل الشام كان من قيصر مكان الاحترام والحب ، واذا دخل اليمن او الحبشة كان من الملـوك موضع الترحيـب والاكرام ، واذا عاد من هنا او من هناك عاد بالخير والوفر يملأ بهما مكـة مفاخر ومآثر وحسن احدوثة .



عبقريـــة

هذه الاحداث المجددة اشتقت بمعجزة هاشم من جدب مكة خصبا ناميا مزدهرا وكل هذه الاحداث العظيمة كانت لهاشم ولما يزل حدثـا في غرارة العمر ، فقد اختار الله هاشما وهو في ميدان هذا الجهاد (٢٦) عن عمر اعلى رواية فيه تقول انه كان خمسا وعشرين ربيعا . وابناء هذا العمر الغض ممن نعرف ويعرفهم الناس ــ يظنون انهم لا يزالون اغرارا فـلا تطمح بهم نفوسهم ــ الا القليل ــ لبعض هذا التعالي ولا لشيء من هذا السمو في تجديد او اصلاح .

---

(٢٦) مات هاشم في احدى رحلاته الى الشام ، اصيب بوعكة في (غزة) فأودت بحياتــه .

ان العشرين او الخمس والعشرين في عرف الناس شباب مقتبل غض لا ينفق بطرق الاصلاح الواعرة ، وانما هو ريق من العمر الغزل الناعم يستبق الى اللذات ويتزود من المناعم ما دام في هذا الجسم قوة واقبال على استلاب ما في الحياة من متع وانتهاب ما في العيش من رخاء واستدرار ما في الشباب من امل .

اما هاشم فلم يكن ابن عشرين يشترك مع ابناء سنه بهـذا النظر المحدود ولكنه كان بعقله وعمله واصلاحه باذلا معمرا تتوافى سنه ـ وهي عشرون ـ على اجيال مذهبة وعصور منورة .

وفي الواقع ان احدا ممن يسمع بحديث هاشم ومآتيه في غـير علم بحقيقة سنه الطرية لا يضع له في الذهن الا صورة الشيخ الهرم الذي ناء بأعباء السنين الطوال واحتقب الاعوام الثقال ، واستوعب من التجارب المديدة ومن الامتزاج الكثير ما مكنه من فتـح كهذا الفتح في حيـاة الصحراء ، يؤلف قريشا والروم والاحباش على اتفاق اقتصادي يحفظه نظامه السمح الحكيم ، وتحميه تجارته فهي به حامية محمية ، وهو دستور للتجارة والربح من جهة ونظام للامن والارتباط من جهة اخرى .

هذا عمل عظيم جدا ليس من السهل ان يأتيه ابن عشرين وهو كما نعرف من ابناء العشرين وانه لعمل جد عظيم نعذر به من يتخيل هاشما ـ قبل عرفانه واقع سنه ـ شيخا تأسس على القرون والتجارب ولكن هاشما لم يصدر عن التجربة ولا عن العمر الطويل وانما صدر عن العبقرية الفذة النادرة وعن العقل الموهوب المشبوب وعن الفطرة الملهمة المرهفة فبنى وهو ابن عشرين ما لا تبنيه الاحقاب والاعمار .

هذا ما اشرنا اليه حين قلنا انه مجدد مبتدع جوال الفكر واسـع آفاق الذهن ومن هنا كان حقا أن ترجح سني هاشم العشرون رجحانا مبينا حين توزن بأضعافها وبأكثر من اضعافها باضعاف اخرى من هـذه

السنين الهينة العابرة بين سهو ولهو وبين خمود وجمود .

حساب العشرين بالاعداد حساب يسير حين يراه الناس والعادون مخطئون حين يقيسون الاعمار بالمقادير والارقام فانما العمر بكيفيته وأعماله لا بكرور اهلته واعوامه ، وليعش المعمرون ما يعيشون في غير مكرمة مأثورة او مصلحة مذكورة او احسان متروك فانهم يسخرون — في هذه الحال — حين يخرجون من دنياهم كما دخلوها اطفالا صغارا وان عمروا عمر نوح من حيث طوله .

اما هؤلاء الشبان الذاوون في بكور الاعمار وميعات الصبا المخلفون للناس من تراث العقول وافياء الاعمال ما يصلح حال الدنيا فانهم في منطق الحياة هم المعمرون الخالدون — ان كان العقل وقفا على كبار السن — .

الناس معذورون حين يظنون ان هاشما رفيق اعوام وحقب لان قياسهم المقدار في موازين الحساب ولان مخلفات هاشم لا تصدر عادة عن حدث شاب ولكن في نفس هذا الشاب من عبقرية النفس ورهافة الحس وصدق النظر وبعد الغور ما تعنو له عقول الشيوخ المجربين .

لذلك احرز هذا الفوز في مقتبل الحياة ومضى التاريخ يسجل له الزعامة الاولى في العرب ويسجل له انه اول زعيم خلق لقريش حياة جديدة وانه صاحب الايلاف وانه اول من سن الرحلتين وانه اول من اخذ لقريش العصم (٢٧) ونشرهم من الحرم ، ويسجل له سلسلة متلاصقة من الاوليات التي طوق بها اعناق قريش والعرب كافة بما اشترع لهم من وسائل الخير وسن لهم طرائق الحياة في عصر لم يكن يهضم هذه الطرائق ولا يتصل بشيء من تلك الوسائل وانما كان يعرف الوسيلة بالفتك

---

(٢٧) هذه عبارة ابن الاثير ، والعصم المعهود يشير الى ما اتفق عليه هاشم مع قيصر والنجاشي ومع رؤساء القبائل من العهود على التجارة وعلى سلامتها .

والنهب ويجد الطريقة بالغزو والسلب ويعتنق هذه الشريعة الدموية الحمراء الظالمة للحياة المعتدية على الحقوق المعتزة بالوحشية والتنمر . اما هذه المذاهب التي تتوسع بالعقل وتربح في حدود الانسانية وتعيش على ثمار الجهود وقطاف العمل فقد كانت مزوية لا يفهمها عصر هاشم ولا يذوقها ، وان كانت مكة متصلة بطرف منه ضعيف مدخول على نحو ما بسطناه قبل قليل .

ولكن مكة وهي حاضرة كانت تعتمد طرق البادية بنمط آخر من الظلم والسلب يسخر الاقوياء فيها نفوذهم لغصب الناس اشياءهم وابتزاز الضعفاء ما في ايديهم وبهذا خرج نظام الحياة في مكة عن انظمة الحواضر والبوادي جميعا فكان خليطا مزيجا لا هو بالنظام الحضري المعتمد على الكسب والتجارة والممازجة ولا هو بالبدوي القائم على الغزو والاغتنام وانما هو بين هاتين يأخذ من كل طرف بأسوائه وهناته .

كسبهم لا يعتمد على نظام معروف ولا يتسع الى حدود بعيدة وانما هو تناول ــ كما ذكرنا ــ من القوافل العابرة لبضائع يجاوزونها الى من وراءهم من الناس .

وغزوهم يقتصر على غصب الضعفاء ممن يمر في مكة بسلعة او عروض وهذا ما دعا الهاشميين بعدئذ الى تأسيس حلف الفضول ليمنعوا بفضله نزوات الجاهلين ويبسطوا في جو مكة ظلال العدالة والفضيلة والانصاف .

كذلك كانت مكة حتى اذا التمعت لهاشم امانيه البيض السعيدة الوثابة خرج بأهلها الى الفيحاء يكتالون من ثمار غوطتها المسك الاذفر ومن برها التبر الاحمر وطاف بهم في اليمن والحبشة يحوز ويحوزون بسببه النفائس والاعلاق وينشر لهم وينشرون به المآثر في الممالك والآفاق، في سعة من حلفه مع قيصر ومن ايلافه في الرحلتين . ومن دستوره الاقتصادي

العظيم الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

غيـــث

هذا فضل هاشم من الناحية الفكرية ومن حيث الجدوى والعمل .

واذا تجاوزنا هذه الناحية الخلاقة المجدية فالى هاشم ترجع المكارم، ومن راحتيه ينبعث الحيا فيمطر الهلكى فاذا نفوسهم مخضرة وآمالهم معشبة ووواديهم خصيب .

يجمع المؤرخون على ان الله امتحن مكة بسنوات كسني يوسف اكلت الاخضر واليابس وارهقت الناس من امرهم عسرا ، فخلت البيوت مما فيها من قوت ، وخلت الجيوب مما يسد الرمق او يمسك الذماء وانقلبت مكة من المجاعة الى جحيم من العيش لا يطاق ، وفاقة ردت الكريم الى البخل والسمح الى الضيق ، والمحسن الى التكتم بما عنده من روائح البر او البر الا هاشما وحده فانه نهض لهذا العبء يمد المجاعة بالشبع ، والفقر بالغنى والاقلال بالجدة (٢٨) فاذا قل الموجود في مكة اصحر الى الشام عجلا لا يتريث تعبا لا يستريح مرقلا لا يتئد حتى اذا بلغها تحمل من البر وشحن ما شاء ان يشحن مما يحتاج اليه في مؤاساة تلك الجروح القريحة ثم عاد كما جاء مسرعا خفيفا يصل نهاره بليله وليله بنهاره حتى يبلغ مكة فيأمر الطهاة والجزارين ان يعدوا الخبز واللحم لهذه القصاع الكريمة ويجعل الاكال فيها اكواما ينثال عليها الناس من

---

(٢٨) الفقر والغنى من الامور النسبية فقد لا يطلق الغني على من يملك المئات بينما قد يعتبر من يملك قوت يومه غنيا يختلف ذلك باختلاف الاعتبارات والظروف .

هنا وهناك ثم يصدرون عنها يتجشأون شبعا .

هـــذه من عـــلاه احـــدى المعـــالي وعلى هـــــذه فقس ما سواها

هكذا اوسع هاشم قريشا ورد لها رونق الحياة بعد الذبول والذوى في خريف من هذه المجاعة التي صوحت بها كل نبتة فبدت عارية جرداء .
وكان هذا اول الحيا ــ كما تقول طبقات ابن سعـــد ــ ومنه سمي هاشمـــا .

عبد المطلب

انما عبد المطلب قبسة نبوية تستمد وقودها من نور محمد الازلي ...

.. كان كل يوم من ايامه دليلا جديدا على اتصال حياته بحياة الفضيلة لكأن عروقه تنبض بهيكلها وكأن دمها يصب في انابيبه فيترادفان في الدلالة على كل خير والهداية الى كل حق والانسجام مع كل جمال ..

ووجود عبد المطلب بعد وجود هاشم تمرين للناس على الفة هذا الوجود الرفيع واعداد العرب ان يستقبلوا يوما بعد عهد الدنيا عنه ...

اخشى ان اكون قد اوجزت الكلام في هاشم وان اطلت فيه فان لهاشم من الفضل ثم ان لهاشم من الحق ما احسب نفسي معه مقصرا وان افردت له كتابا خاصا .

وانا لذلك الفضل ثم لهذا الحق آثرت ان ابسط الكلام بعض البسط على انه لم يخرج عن الصدد في الواقع .

وحسبنا ما تحدثنا به عن هاشم دليلا على منشأ هذه الذحول المزمنة بين هذين النفرين ، تصدر عن الحسد بادىء الامر ثم ينقلب الحسد عداء فيكون العداء صراعا فيترك الصراع من معاني الغلب والانغلاب ما اورثه المغلوب الى ابنائه تراثا يستفزهم لكل نهزة على نحو ما حدث وحذو ما كان .

واذا كان لهاشم من الفضل والحق ما يأخذ بالايدي والافكار الى التحدث عنه فان لعبد المطلب من ذينك ما يدعو الى مثل ذلك .

واحب الا يفوتني حظ الوقوف الى هذا الرجل السمح الطيب العظيم المعجز في تلك الفترة من الزمان ووجود امثال عبد المطلب معجز حقا في كل زمان ولكنه معجز بصورة خاصة في هذه الفترة التي كانت تستجهل

الحليم وتستدرج العاقل الى الصدوف عن عقله وتطوي العالم كله بظلمات بعضها فوق بعض .

مقارنـــة

كان عبد المطلب يمتاز بكل ما امتاز به ابوه من مواهب واخلاق وحسن احدوثة وكان يمتاز ـ الى ذلك ـ بمعان روحية تتضح فيه اكثر من وضوحها في ابيه فكأن اسرار النبوة واضواء الامـــامة كلما تقدمت في مراحلها وكلما قربت من وجودها ازدادت اشراقا وافاضة للخير والجمال ونسبها في ذلك تتبع نسبة القرب والبعد من نبعة النور وقبس الروحانية المرسل من التيار القوي الذي يقف على طرفيه محمـــد (ص) وعلي (ع) ويبعثان منه ما يبعثان من هدى وصلاح .

وعبد المطلب اقرب الى هذا النبع وأحس بهذا السر من ابيه لذلك كان اجرى منه مع الروحانية على ما في هاشم من جلال وقدسية .

استغفر الله ما اردت ان افضل عبد المطلب على هاشم فاني اشفق ـ ان قصدت الى هذا ـ ان اكون من الآثمين ، ومن يعصمني من غضب عبد المطلب نفسه اذا لوحت الى هذا التفضيل بايماءة او تأشير ، وهاشم ـ في الواقع ـ قدوة لعبد المطلب فيما اختار لنفسه ولبنيه من المكارم ، وفيما شق لهم من طرق الى ذلك .

ولعل هاشما اول عربي تعنيه المصلحة العامـــة ويفتنه الاصـــلاح الاجتماعي فيضع لذلك التصاميم والدساتير .

ويأتي عبد المطلب على أثر ابيه فيتم رسالته ويصلها برسالته هو على قدر ما هو ميسر له من العناية بهذا الاصلاح .

لم ارد ان افضل عبد المطلب على ابيـــه فانما هما في الفضـــل سواء

ذرية بعضها من بعض ولكني اردت ان ألتمس السر في هذه الروحية التي تظهر في عبد المطلب اكثر من ظهورها في هاشم ، وفي هذه الكرامات المقدرة الجارية على يد الغيب في حياة عبد المطلب اكثر منها في حياة هاشم .

اردت ان ألتمس منشأ لهذه الروحية التي تغلب على عبد المطلب على نحو لا نعرفه الا للانبياء والصديقين ومن اليهم ممن ايدتهم المعجزات والآيات.

لم تخل حياة هاشم من هذه المعجزات ولكنها كانت معجـزات لم تخرج عن نواميس الطبيعة ولم تخرق العادة وانما كانت قوة في النفس ومضاء في الهمة وابتداعا في الفكر ورهافة في الحس وسلامة في الذوق .

اما حياة عبد المطلب فقد جمعت الى هذا آيـات لا تكاد تكـون طبيعية ، كانت تقوده وتسيطر عليه منها اوامر غيبية والهامات غير حسية فيأتمر بها ويجري معها ويذعن اليها .

هذا ما اردنا ان نعرف له مصدرا ولعلنا وفقنا الى هذا المصدر الذي نلتمسه وهذا المصدر هو ما اشرنا اليه ، ان مرحلة النبوة والامامة في عبد المطلب قريبة جدا من نهايتها الكاملة وتطورهـا الموصول بالدور الاخـير .

الى هذا قصدت فقط ولم اقصد الى التفضيل .

وما يدرينا فلعل هاشما لو احتاج الى شيء من هذا التأييد الغيبي لكان له ما اراد منه ؟ ما ندري ولكنا نعلم ان ظروف هاشم غير ظروف عبد المطلب ولكل ظرف حاجته وحياته ، وعبد المطلب كان في بادىء الامر غريبا او كالغريب عن مكة ، وكان قليل الولد والعرب تفاخر بكثرة الاولاد وكان جديد العهد بمكة وبعتاة قريش الذين تظاهروا عليه بعد عمه المطلب فكان لكل ذلك محتاجا الى ان يسد فراغ ابيه باعلاء من مكـانه ليرد هؤلاء الموسرين ــ وبفضل هاشم ايسروا ــ الطامحين الى مكانته . ولهذه الحاجة ايدته روحانيته في مواقفه المختلفة واظهرته على خصومه ومزاحميه.

وما اولى عبد المطلب ان يسد الفراغ على هذا النحو وان يرد طموح القوم خاسئا حسيرا وان تستوي له زعامة تقع من زعامة هـذا البيت الكريم موقعا وصفه لنا معاصروه على لسان شاعرهم :

انما عبد مناف جوهر زين الجوهر عبد المطلب

صـورة

نعم كان عبد المطلب زعيم الوادي غير مدافع وسيد العرب نفسا وأبا واولادا وجمالا وكمالا واقوالا وعبقرية وافعالا .

ومن هنا عني عصره به كما عني بأبيه من قبل فأحصى اسماءه وألقابه وصفاته الخلقية فاسمه « شيبة » سمي بذلك لانه ولد وفي رأسه شعرة بيضاء ولكنهم لا يسمونه بهذا الاسم مجردا عن اضافة تدل على احترامهم له وتشير الى صفته عندهم فيقولون « شيبة الحمد » حين يسمونه باسمه .

وهو عبد المطلب يشيرون اليه بهذا اللقب كلما اقبل يطوف بسكك مكة واحيائها وهو حدث طيب النشر يثير حسنه فضول الناس ورغبة المارة في النظر اليه (١) ويطلقون عليه هذا اللقب المحبب يشيرون به الى اول عهدهم به يوم رأوه رديفا لعمه المطلب فأكبروه وتساءلوا عنه .

وهو ـ فيما اجمعوا عليه ـ اندى قريش كفا واعظمهم حلما واشرقهم وجها وامدهم جسما واطهرهم ذيلا واعفهم ازارا ، كان ابعد رجل عن دنية وادنى رجل الى كمال نفس ونقاء روح ، وكان اول من تحنث بغار حراء

---

(١) راجع شرح النهج ص ٤٥٩ ج ٣ .

وطيبه بذكر الله (٢) .

وقد افاض الرواة والمؤرخون في شرح ملامحه الجسمية وانطباعاته النفسية فقرروا الواقع من انسجام خلقه في وضع كل ظاهرة بدنية ازاء كل ظاهرة روحية تناسبها فكانت الفاظ جسمه تماشي معاني روحه وتنهض بها.

فهو جميل وسيم ابيض مديد معتدل مقرون الحاجبين اشم العرفين اغر مبارك يلوح على جبينه نور النبوة وتحيط به هالة من هيبة الملك (٣).

وكان الى هذا الشكل المنسوق الجميـل يحمـل نفسا « متألهة » قدسية يستسقي بها الغمام ويستدفع بها الضر ويشف لها الغيب فاذا هي قريبة دائما من الحق وصولة دائما الى الصواب تتناول الحكمة من منبعها الثر فتفيض الخير والبركة على الناس وعلى الزمان وعلى المكان فاذا كل ذلك منه في بشر وايناس وفي نعمة وامان وفي رجاء وريق مخضل يتفاوح ارجه بالعطر وتدر افاويقه بالحياة .

وكان لطلعته المباركة سحر يبلغ به الى القلوب وينفذ منه الى اعماق النفس فيسطو على محدثيه بطلاقة محياه وجمال نفسه واشراق منطقه .

وكان لهذا السحر محببا الى النفس كريما على الناس يحترمه الملوك ويشفعونه وينزلونه منهم اعلى منزل يضعون فيه وافدا كريما او سيدا عظيـما .

نشـــأة

وكان عبد المطلب ممتازا منذ نعومة اظفاره ولين اخادعه تنطـق

---

(٢) كان يحرم على نفسه الخمر وكان مجاب الدعوة وهو اول من تحنث بغار حراء فاذا استهل شهر رمضان صعد حراء واطعم المساكين ورفع مـن مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال .

(٣) انظر شرح النهج جـ ٣ ص ٤٦٦ وما قبلها وما بعدها .

طفولته المباركة عن يمنه وترشحه للتقدم والفوز .

نشأة

كان في صباه يسبق لداته واترابـه في كل شوط يخوضـون الى مضاميره ، ويتزعمهم مرضي الزعامة لا يجدون في تقديمه حرجا ولا ضيقا على انه غريب عنهم فهو مكي وهم مدنيون ولم يكن يخفي عـن رفـاقه الصغار ــ حين يتزعمهم ــ غربته عن دارهم بل كان ينتسب كلما فـاز بالسبق ويعلن غربته معتزا بهذه الحماسة المنداة بشرف المحتد فيقـول « انا ابن عمرو العلاء » فلا يضيق رفاقه لا بفوزه عليهم ــ لانه منتظر ــ ولا بفخره كذلك ــ لانه معترف به ــ فهو اكفؤهم واولاهم بالفخر والفوز.

ولد عبد المطلب في المدينة نزولا على شرط امـه سلمى بنت عمرو الخزرجية النجارية (٤) وقضى من طفولته في المدينة سبع سنين كان خلالها موضع الحفاوة والكرامة ، وكان خلالها يغشى ملاعب الصبيـة يرتاض معهم على الفروسية ويتمرن على الرمي والنضـال ، فكان ابرع الغلمـان ضربا وارشقهم رميا ، وكان اذا انتضل اصاب واذا اصاب قال : انا ابن عمرو العلاء ، انا ابن سيد البطحاء (٥) .

وبينما كان ينتضل ــ مرة ــ في جمع من صحابته المدنيين مرتهامي

---

(٤) اشترط عمرو والد سلمى على هاشم حين خطبها منه ان لا تلد ولدا الا في اهلها فلما حملت حملها هاشم الى المدينة ومضى في تجارته فلما بلـغ « غزة » توفاه الله فيها . وجاء سلمى المخاض فولدت له « شيبة » وانمـا سمته امه شيبة لانه ولد وفي رأسه شعرة بيضاء وبقي مع امه الى ان بلغ سبع سنين من عمره كما يقول ابن الاثير في ترجمته او ثمانيا كما يروي ابن ابي الحديد عن الزبير بن بكار في ص ٤٥٩ ج ٣ .

(٥) راجع طبقات ابن سعد والكامل لابن الاثير في ترجمة هاشم وشرح النهج ص ٤٥٩ ج ٣ .

في رواية ، اومر جد حسان بن ثابت في رواية اخرى ، اومر رجل من بني الحرث بن عبد مناف في رواية ثالثة ، مر احد هؤلاء على الصبية المتنضلين فاستوقفه ضرب احدهم وهتافه كلما اصاب « انا ابن سيد البطحاء » فيقبل عليه ويسأله من انت يا غلام ، فيقول الغلام انا « شيبة » بن هاشم ابن عبد مناف.

ثم يمضي الرجل في وجهه الى مكة . ويسعى فيها الى المطلب « فيض قريش » فيجده في الحجر فيقص عليه نبأ ابن اخيه ويشهد له انه « اضرب ــ احسن ضربا ــ غلام رآه قط » .

ولا يرجع المطلب الى اهله قبل ان يأتي ابن اخيه ، بل يأخذ سمته، من وقته الى المدينة يغذ السير حتى يبلغها ويصلها عشاء ليلة فيقف على ايقاع من بني النجار وصبيتهم يتنضلون فيعرف منهم شيبة ــ ولم يره من قبل ــ بدمه وروحه وبراعته ثم يردفه خلفه ويعود ادراجه (٦) الى مكة خفيفا سريعا يطوي الوديان والتلاع حتى ينتهي الى مكة في ضحوة ماتعة الشمس ساجية الجو ويقبل يتخطى الاسواق والمجالس المكتظة بقريش .

---

(٦) تختلف الرواية في كيفية اخذه لعبد المطلب ففي رواية انه اخذه بدون علم امه وانها حزنت لذلك ثم اطمأنت حين علمت انه عمه ، وفي رواية انها حاورته في اخذه وان المطلب غلب على رأيها وانها طلبت منه الاقامة ثلاثة ايام فأقام ثم ارتحل بابن اخيه ، وانا ارجح الاولى بدليل اتفاق الرواة على ان المطلب قال لمن سأله عن رديفه « هذا عبدي » ، ومن هنا سمي « عبد المطلب » ولم يقل لهم ذلك ــ كما ارى ــ الا لان لباس ابن اخيه لم يكن لائقا به او مناسبا له ، ولا يفهم من ذلك ان امه كانت تهمل لباسه لا وانما اخذه عمه على غرة وهو في ملابس لعبه وانتضاله . واللباس في مثل هذه الاحوال لا يعتنى به عادة ويقيني لو ان المطلب اقام ثلاثة ايام لجهزت سلمى ولدها بأفخر الثياب على نحو يليق بابنها العزيز وبوجاهة ابيه وعمه الزعيمين ولا يضطر المطلب عندئذ الى اخفاء امره الى ان يلبسه الحلة الجديدة التي هيأها له .

فيقبل عليه الناس يحيونه ويرحبون به ويسألون عن هذا الرديف الجميل الصغير فيجيبهم باقتضاب « أنه عبدي » .

ثم يمسي المساء ويجتمع القرشيون حلقات في مجالسهم فيخرج المطلب الى مجلس بني عبد مناف يردفه الجميل الصغير ـ وقد غسل عنه اوضار السفر وغبار الطريق وألبسه لباسا جديدا ـ ويعلن آنئذ انه « شيبة » بن هاشم .

فكان شيبة بعدئذ اذا مر في سكك مكة واسواقها امتدت اليه الابصار واتلعت نحوه الاعناق واشارت اليه الاصابع : هذا عبد المطلب ، يسمونه بأول عهدهم به كما عبر عنه عمه ثم غلب عليه الاسم فاذا عدل عنه الى اسمه الحقيقي اضافوه الى ما يدل على فضله فيقال « شيبة الحمد » .

حياة جديدة

استأنف عبد المطلب في مكة حياة جديدة تختلف عن حياته في المدينة كما تختلف حياة البلدين . ولعله : احس بشيء من الوحشة لفراق امه ولفراق اخواله ولفراق لداته هؤلاء الذين كان يقضي معهم ويقضون معه اكثر الوقت بالمرح والانتضال . لعل شيئا من هذا خامره في ايامه الاولى في مكة بلده وبلد آبائه ولكن لعمه المطلب من البر والحنان ما يرد به عن نفس ابن اخيه الوحشة ، ولعبد المطلب من نفسه وطباعه واخلاقه ما يمده بالثبات والرزانة وبالانس والانشراح فاذا فارق المدينة بلد اخواله فانما فارقها الى مكة بلد آبائه بيت الله ودار القدس واذا فارق امه واصدقاءه فانما فارقهم الى عمه واقربائه ، وما في هذا الافتراق من ضير ان لم يكن الى جمع كل ذلك من سبيل ، وما في التعجل بهذا الفراق من

ضير ايضا اذا كان لا بد منه واذا كان لا بد لكل مسافر من اوبة ولكل غريب من رجعة .

لعله فكر اول الامر بالمدينة وبأجواء المدينة وبما في المدينة من ذكريات وعهود ثم لعله لم يطل التفكير في هذا وانما عاد منه سريعا الى مظاهر العطف والسعة التي وجدها في دار عمه ، ثم لعله عاد لما هو اسمى من هذا كله ، فانه يعلم انه ابن عمرو العلاء وان على ابن عمرو العلاء ان يسمك لمكة من الحياة مثلما سمك فيها ابوه فيحدث بها : اشياء نافعة تجري على الناس خيرا ويؤسس بها امورا مفيدة تصلح من الحياة العامة ففي مكة جوانب كثيرة محتاجة الى الاصلاح ، ومن اصلح مكة فقد اصلح العرب ومهد لاصلاح الجزيرة ، ذلك لان مكة مهوى الافئدة ومحط الرحال يحج اليها الناس من اطراف الجزيرة يعظمون دارها ويرفعون شعارها ويحفظون آدابها واخبارها .

لعل عبد المطلب شغل بهذا او بنحوه حين رأى مكة وطاف بأحيائها واختبر دخائلها ونظر الى روح ابيه ترف في سمائها مجنحة سبوحا تومي اليه ان يتسع لما ضاق عمر ابيه عنه .

من هنا لم يره المكيون منذ اول عهدهم به الا الملاك بأخلاقه وهديه والا الملك بتصرفاته وسلطانه ، يجمع الى السماحة والحلم والرفق الشجاعة والايد والارادة التي لا تلوي ، ولم يعرفه الناس منذ عرفوه الا مثلا عاليا في الاخلاق والنبل والكرامة، سيرته تبدأ كذلك من فجر حياته ثم تنتهي كذلك الى يوم وفاته كل يوم منها دليل جديد على اتصال حياته بحياة الفضيلة لكأن عروقه تنبض بهيكلها ، وكأن دمها يصب في اتابيبه فتترادفان في الدلالة على كل خير والهداية الى كل حق والانسجام مع كل جمال .

وجـــود

ووجود عبد المطلب ــ عندي ــ بعد وجود هاشم تمرين للناس على ألفة هذا الوجود الرفيع الرفيع ، واعداد للعرب ان يستقبلوا يوما بعد عهد الدنيا عنه .

ويكاد يكون من المحال ان يباده الله الناس بمحمد فجأة قبل ان يمهد لظهوره بمقدمات من الخير الصرف ليسهل بها على الناس فهمه والاقتراب منه بالتدريج .

ولعلنا نستطيع بهذا ان نفهم بعض السر ــ مضافـا الى ما قلنـاه سابقا ــ في احتفال حياة عبد المطلب بالروح اكثر من احتفال حياة ابيـه بها ، ذلك لان هاشما قام بنصيبه من اعداد مجتمعه للحياة الرفيعة بطرق من العبقرية يستطيع الناس فهمها وردها الى مصادر قد تكون قريبة مـن اذواقهم ، ثم ارتقى الاعداد الى درجة عبد المطلب فكان اكثر روحية وابعد عن ذوق هذا المجتمع المادي الذي يعيش فيه ، ولكنه على غرابته منتظر الى حد فان الناس تعودوا من هاشم ان يروا امورا غريبة فوق حسبانهم . والواقع ان الايلاف وسن الرحلتين وما الى هذا من مآتي هاشم ليس اقل غرابة ولا اصغر شأنا من مآتي عبد المطلب عند الموازنة وحين نأخذ بنظر الاعتبار هذه الظروف التي تمهد لاعلان النبوة .

وفي كل حال فانما عبد المطلب قبسة نبوية تستمد وقودها من نـور محمد الازلي لذلك لا نستغرب سيرته هذه السيرة الريا بانداء الله المنداة بأنفاس الملائكة في تلك الصحراء الفـاجرة التي تكويها هـاجرة القيظ ويحرقها حجيم الاخلاق ولكنه احراق في غير تطهير .

سيـــادة

وكان لا بد لعبد المطلب في نفسه وفي ابيه ان يسود ، وكان لا بد

لهذا المحيط الذي يشعر (بانخفاض ارضه عند سماء (٧)) عبد المطلب ان يسوده ، وكانت سيادته سيادة طبيعية منظورة يفرضها كل ما في عبد المطلب من شمائل ومزايا وصفات .

وقد خطا الى هذه السيادة ولما يخضر عارضاه ، تناولها من عمه وقد كانت عند عمه وديعة من هاشم مذخورة لشيبة ، ولا اعني ان المطلب لم يكن لها اهلا ، كلا فان المطلب مليء بأحفل الكفايات لاعلى الزعامات ، ولكن الذي اعنيه ان الزعامة كانت لهاشم ثم توفي عنها في غض الشباب وكان شيبة الحمد جنينا ، فكان على المطلب ان يقوم مقام اخيه في امر السقاية والرفادة وفي مطالب هذه السيادة المكية العربية ، ثم حين ولد « شيبة الحمد » ارصد له مكان ابيه من هذه الزعـامة فلما درج وترعرع وعاد الى « الشعب » بدأ يتأهل وبدأ عمه يؤهله حتى اذا اتسع ذرعـه للنهوض بما ارصد له رد اليه المطلب ارثه من هاشم واحاطه بالعطـف والحنان والبر والايثار فكان عبد المطلب مدة حياة عمه ــ في خفض ودعة من العيش .

ومن هنا تنكشف اسرار العظمة في نفس المطلب .

بعـد عمـه

فاذا اختار الله المطلب وغامت لوفاته سماء مكة بكل غمامة جون استعد عبد المطلب لان يقابل الحياة وجها لوجه ولان يرفع على كاهله الغض ما كان يحمل سلفه وانه لقليل الولد قليل الناصر على مكانته في النفوس ومنزلته من الناس .

---

(٧) من كلمة للبحتري يفضل بها ابا تمام على نفسه في قصة معروفة في كتب الادب .

ما اقدم اللؤم في الانسان ؟

ان لعبد المطلب هذه الشخصية الحبيبة الاثيرة التي وصفناها في غير غلو ، وانه مع ذلك يتعرض لاذى الناس وحسدهم فلا تخلو حياته من اسوائهم ومكرهم ودواهيهم .

ولعل من اوضح طبائع الانسان ان ينفس على الكريم كرمه وعلى النبيل نبله وعلى العالم علمه فيؤذونه بما يكره ويلقونه بما لا يحب لانه كريم او نبيل او عالم .

ومن هنا لقي عبد المطلب من الناس ما كره وأوذي بما لا يحب ولكنه كان يصمد لذلك ويذل رقاب خصومه بأيد وعزة وحلم يستعمل القوة حيث تجب والعفو حين يبعد عن مظان الضعف ويسوس الناس كما تقتضي الحكمة .

واول مكروه تعرض له بعد وفاة عمه المطلب اعتداء عمه نوفل عليه باغتصاب ساحات له بمكة (٨) .

وتأبى لعبد المطلب منعته وحفاظه ان تستباح ساحاته عنوة ، ولو ان نوفلا سأله اياها لجاد بها متهللا هشاشا كريما ، ولكنه اعتمد في حيازتها على الغضب مستندا الى ان عبد المطلب قليل الناصر .

سأل عبد المطلب وجوه قريش ان ينصفوه فما استجابوا له بل ابوا ان يدخلوا بينه وبين عمه .

ولعل هذا الاحجام من قريش كان مدبرا مقدرا بينهم وبين نوفل ، ولعل عبد المطلب كان يعلم انهم سيحجمون عن انصافه من نوفل ولكنه انما يريد ان يلقي الحجة ويضع عن نفسه الملامة اذا اضطر الى ردها عنوة واذا استعان على ردها بغير المكيين من الاباعد عن مكة .

---

(٨) كان نوفل الى عبد شمس وكان المطلب الى هاشم من بداية النزاع .

ما ندري ولكنه حين دعاهم فلم يجيبوا جهز الى المدينة رسولا يدعو اخواله بني النجار الى عونه على اعادة حقه . لا لان للساحات قيمة مادية خاصة ــ وان كانت قيمة ــ بل لقيمة معنى ارجاعها او عدمه .

واقبل الرسول ومعه ابو سعيد بن عدس في ثمانين [9] حتى شارفوا الابطح فوجدوا عبد المطلب يستقبلهم في ظاهر مكة . فيقول عبد المطلب لابي سعيد ــ بعد العناق وتبادل السلام ــ « المنزل يا خال » فيقول ابو سعيد « حتى ألقى نوفلا » .

ثم يمضي ابو سعيد في وجهه يتخطى السكك حتى ينتهي الى الحجر فيجد نوفلا الى مشائخ قريش فيقف على رأسه ، وعصبته حوله يهتفون (لا والله يا ابا عدي ــ ينادون نوفلا ــ ما رأينا في هذا الغائط ــ المطمئن من الارض ــ ناشئا احسن وجها ، ولا امد جسما ، ولا اعف نفسا ولا أبعد من كل سوء من هذا الفتى ــ يعنون عبد المطلب) [10] .

ويسل ابو سعيد سيفه فوق رأس نوفل ويقول « ورب هذه البنية لتردن على ابن اختنا ركحه ــ فناءه ــ او لأملأن منك هذا السيف » [11] .

فيقول نوفل (فاني ــ ورب هذه البنية ــ ارد عليه ركحه) .

فاذا اشهد ابو سعيد عليه واطمأن ان الساحات عائدة الى ابن اخته التفت الى عبد المطلب فقال : « المنزل يا خال » .

حلــف

هذه الحادثة ايقظت عبد المطلب واطلعته على دخيلة القوم فعلم ان

---

(٩) الكامل لابن الاثير ص ٥ جـ ٣ ، ويروي في شرح النهج ص ٤٦٦ جـ ٣ ان عددهم كان سبعين .

(١٠) شرح النهج ص ٤٦٦ جـ ٣ .

(١١) ابن الاثير ص ٥ جـ ٢ والطبري في ترجمة عبد المطلب في المجلد ٢ .

أمرا يراد وان كيدا يكاد ، وان العبشميين ومعهم النوفليـون يدبرون سعاية في قريش تصد ما يهولهم من مستقبل هذا الفتى الهاشمي المقبـل كالبحر الهادر ، وتشبع حقدهم على ابيه من قبل وقد ظنوا ان الفرصة سانحة مواتية ، فان شيبة ما يزال طري العود وانه لا يزال بعد عمـه وحيدا ، ولكنهم غفلوا عن ان الوحدة ليست مناطا للضعف وان القـلة ليست منشئا للانكسار ، وان الوحدة العاقلة والقلة المسلحة بالرأي والهمة وبالمضاء والعزيمة ليس الى خضدها من سبيل .

غفلوا عن هذا في حين ان عبد المطلب فطن اليه وفطن منه الى بطائن نياتهم السود ..

لذلك كان مضطرا ان يجد عونا اقرب اليه مسافة من بني النجـار فقد تدعو حاجة عاجلة لا تسمح من الوقت بما يتسع لدعوة النجاريين من المدينة على ان دعوتهم على نحو الاستنصار لا يرضي اباءه تكررهـا فماذا يفعل ؟

عليه ان يتصل ببعض القبائل القوية اتصالا سياسيا رسميا تكتـب بنوده وتحرر حدوده وتكون فيه منفعة متقابلة وفوائد متبادلة تضطره الى اعانتهم وتضطرهم الى اعانته عند الحاجة .

نعم يمثل هذا العهد مرضاة لآبائه وفيه ـــ الى ذلك ـــ امان من كيد الكائدين واعتداء المعتدين .

وما اسهل ان يجد هذا الحل اليسير وكل القبائل تعلم مكانه وتوقن انه سيد قريش وصاحب الرفادة والسقاية وانه ابن عمرو العلاء ، واي هذه الميزات لا يدعو الى الترحيب بمحالفته وموالاته ؟

من اجل ذلك عقد حلفا مع خزاعة وكتب في الكعبة كتابا يشتمل

على بنود مرضية للمتعاقدين (١٢) .

اعد هذا الحلف لحاجته حين يتألب عليه هذا النفر المغيظ من سطوع نجمه وتدفق اضوائه مع اضواء كل طالع ، تغمر مكة بالدفء والنضج والخصب .



روحي

جرت الحياة بعد ذلك على منوالها ... يصبح عبد المطلب فيها ويمسي

---

(١٢) وهذا نص الحلف :

« باسمك اللهم ،

هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق ، الاشياخ على الاشياخ والاصاغر على الاصاغر ، والشاهد على الغائب .

قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا ينقض ولا ينكث ما اشرقت شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما اقام الاخشبان – هما جبلان في مكة – واعتمر بمكة انسان .

حلف ابد لطول امد ، يؤيده طلوع الشمس شدا وظلام الليل مدا ، وان عبد المطلب وولده ومن معهم ، ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون، على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق او غرب او حزن او سهل وجعلوا الله على ذلك كفيلا وكفى به جميلا » .

ولا نريد ان نعلق عليه بأكثر من لفت النظر الى صيغته المحكمة واسلوبه القانوني البارع الذي يضيف الى عظمة عبد المطلب عظمة جديدة ولعلنا لا نغرب اذا ادعينا انه انما عقد هذا الحلف ليتأيد به ولده اكثر مما يتأيد به هو ، واذا صح ما أظن فهذا الحلف ايضا سر نبوي من اسرار المحمدية التي تغمر عبد المطلب بحمايتها وتوفيقها ، وآية كبرى من آيات عبقريته العظيمة .

كريما مهابا يخطو الى زعامته الكبرى واسع الخطوة سريع المشية ، تحمله اليها ايام محجلة وتصعد به الى قمتها نفس مجنحة .

وكان يلم بمجالس قريش ويغشى انديتها في الكعبة والحجر ، وكانت تتكفف في مجلسه حلقات من قريش وتدور بهم ألوان من الحديث ورنات من الفكه وشكول من الحياة ، ولكنه كان في كل الاحوال على سمته الرزين الوقور ، اكبر حظه من الاشتراك في التندر هذه البسمة المشرقة الحازمة .

وكان مشغولا عما يشغل قريشا ، مدفوعا الى غير ما اندفعوا اليه منصرفا الى روحيته هذه التي تسيطر عليه وتختاره ممن يحدق به من الناس .

ولهذه الروحية ألوان في حياة عبد المطلب ومظاهر سنراها الان .

حاجة الماء

كان يضيق في امر الماء اشد الضيق ويجد اشق العنت في نقله من الآبار الى حياضه التي يسقي منها الحجيج ، وكان من اجل هذا دائم الفكر يقلب في نفسه وجوه الرأي عساه يجد مندوحة عن هذه المشقة الجامحة الجاحمة التي تصب عليه في مواسم الحج من كل عام ، وهو وحيد لا يجد من الاعوان غير هذا الوليد الناشىء (ابنه الحارث) .

الهام

وفيما هو كذلك في ليلة من ليالي القيظ المغرية بالانتشار من البيوت الى الباحات الواسعة ، والى الافنية الطلقة لاسترواح انفاسها المبلولة ببرد هذا الليل وبأندائه المنعشة وبنسائمه الوسنى ـ فيما هو كذلك في مثل هذه الليلة التي يجد نعمتها المصهورون بلهب الشمس الكاوية ، عاد من

مجلسه الى مخدعه يطلب عنده الراحة من هذا الفكر العنيف يلازمه يقظان ويلازمه وسنان ، ومن هذا الهم يطوف به منفردا ويطوف به حين يجتمع اليه زواره واضيافه .

ولكن النوم كان حربا له . وكان الارق البا عليه مع هذا الفكر الملح يذودان عنه الراحة ويصدان عنه القرار ويدفعان اليه القلق او يدفعان به الى القلق ــ كما يعبر طه حسين ــ (١٣) ولكن مع ذلك فلا بد للتعب من نهاية الى نوم ، ولا بد للمسهد من سنة تغتمض فيها عيناه ويذوق بها راحة الكرى .

هوذا الليل يوغل ايغالا ، وهي ذي ستوره تمتد قصارا وطوالا وهم اولاء الاحياء كلهم في دنياه كلها يغرقون في بحر من السبات العميق فتمتد على الكون روعة السكون ووحشة الظلام ، ويبلغ فيها الخليون كل مأمنه من فراشه ، فما بال عبد المطلب لا تطمئن جوانبه الى هذا المأمن الذي ينتظره ؟

---

(١٣) بهذه المناسبة نحب ان نشير الى اننا اعتمدنا في اطياف عبد المطلب على سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وشرح النهج ــ والطبري ، وحديثها مستفيض في كتب التاريخ والسير واول من فصل وصنعها على هذا النحو واستنطق بها الخيال الدكتور طه حسين في كتابه على هامش السيرة . اما الكتب القديمة فلا تقحم الخيال وتحليل الخواطر في ذكر هذه الروى وانما تسردها سردا واقعيا في غير تعليق ورأيت ــ انا ــ ان اتبع الدكتور طه حسين فأدخل فيها ما اراه من الخواطر كما يحدث عادة لمن يمتحن بمثل هذه الطيوف الملهمة لان ذلك يعيننا على قراءة بعض الاحوال النفسية لعبد المطلب ويسهل لنا ايضاح بعض ملامحه ــ وقد قرأت ما كتب الدكتور يوم صدوره فأعجبت به ثم غبت عنه الى الان ولم احب ان ارجع اليه وانا اكتب هذا الفصل لاترك لنفسي فسحة القول بعيدا عن سحر الدكتور على اني ما ازال مهتزا بما كتب حتى الان .

انه يقبل الآن على مضجعه هادئا متعبا قد دب فيه خدر النعاس وامتد الى خطاه فقيدها ورتحها فما كادت تبلغ به المضجع حتى ألوت به اليه وألمت به فيه ولا يكاد يلقي بنفسه على فراشه حتى يطبق عليه النوم إطباقا شاملا . فتكرى عيناه بعد اباء ويروض للراحة بعد امتناع .

وما هي الا هدأة يسيرة يرى فيها المرء بغير عين ويسمع فيها من غير اذن وتمتد فيها الابصار والاسماع بغير وسيلة الى حدود لا تتسع لها الوسائل — ما هي الا هذه الهدأة حتى ينتصب له شبح لم يعرفه من قبل يسمعه يلقي اليه امرا فلا يفهم عليه ، يقول له بحزم وفي غير تردد « احفر طيبة » !!

ما طيبة هذه ؟ يهم عبد المطلب ان يستفهم او هو يلقي هذا الاستفهام ولكنه لم يتلق جوابا وانما احزنه ان ينظر الى فرار الشبح وعودته من حيث اتى في غير جواب على سؤال ولا ايضاح لاستيضاح .

ولم تكن هذه الزورة القصيرة وهذا القول الغامض الا هما جديدا من هموم عبد المطلب التي يحار بتأويلها .

ألهذه الزورة صلة بأفكاره وآماله ؟ أفي هذا الامر مندوحة عن الشقاء في نقل الماء ؟ ام هي مشاكل اليقظة تظهر باشكال الحلول في الرؤى والاحلام ؟

لم يكد عبد المطلب يستيقن شيئا من الجواب عن هذه الاسئلة وما اليها مما دار في نفسه ، فقد كان الجواب عنها غامضا ، ولكنه استيقظ بعد عروج زائره وما ادري كم قضى من ليلة بعد ذلك يقظا سهران يعيد (احفر طيبة) مرة ومرة ومرات كثيرة لعلها تتوضح في ذهنه .

ولم تكن زورة هذا الزائر الموحي هذه هي الاولى والاخيرة بل تبعتها زورات اخريات في ليال متتابعات ، وكان من السهل على هذا الطائف العنيف ان يختصر الطريق على ابي الحارث فيوضح حين استوضحه

في الليلة الاولى ، ولكنه ـ فيما ظهر ـ كان ظريفا حكيما يريد ان يشوق عبد المطلب الى سره ويحثه على تصديق امره فلا يوضح له السر من اول الامر لئلا يحمله على ما تحمل عليه الاطياف العابرة من اوهام الاحلام ، فكان بهذا التجني وبهذا الالحاح وبهذا الغموض المتكرر داعيا صادق الدعوة الى امر حقيقي لا شك فيه . وكأن هذا الطائف أراد ـ الى ذلك ـ ان يترك للادب والتاريـخ والقصص الواقعي لونا من ألوان المفاجـأة الطريفـة .

جاءه في الليلة الثانية في مثل وقته ووقف في مثل مكانـه من عبد المطلب السهران المسهد في اول هجعته ..

ولكنه يقول له في هذه الليلة احفر برة ، !!

ما برة ؟! يسائل عبد المطلب نفسه للمرة الثانية عن امر لا يقـل عن سابقه تعميدا ولا غموضا ، ويحار فيه حيرته بسابقه ايضا ، وكان يرجو ان يرد عليه في ليلته هذه ما يفسر له رؤياه في ليلته الاولى . فاذا « بـره كطيبة » كلتاهما من الغموض واللبس حيث يضيق الصدر ويطول الفكر، واذا هما تتعاونان على اقضاض مضجعه واقلاق وسادته ، وتجديد اسئلته، امس طيبة والليلة برة ؟. فهل هما مترادفان وهل هما متغايران ؟ وعلى اية حال فما هما ؟ وما الفائدة من حفرهما ؟ واين موقعهما ؟ وهل هما نبعتان او نبعة لها اسمان ؟ وكيف السبيل الى معرفة ذلك بالتفصيل ؟

بهذا لعله قضى شطرا من ليلته الثانية بعد ان تولى طائفه الظريف ، وبهذا علقت نفسه صبيحة نهاره الى امسيته لا تجد منصرفا عن الوقوف الى هذا الطائف العجيب يلم به ثم ينقلب عنه وشيكا لا يحتمل سؤالا ولا يهم بجواب .

ولتمض هذه الليلة ايضا وليمض يومها كذلك فانه عائد ـ في اكبر الظن ـ اذا امسى المساء واعتكر الظلام الى موقفه الذي لا يخلو من سر

ولا يعرو من غرض لعله مستبين هذه السحرة .

هوذا عبد المطلب يستدني النوم ويتعجل الكرى ويقبل على الهجود اشوق ما يكون فيصطنع الرقود اصطناعا فتمتنع عليه الغفوة — اول الامر — امتناعا ثم تدنو منه بعدئذ وتسعى اليه فلا يكاد يحسها حتى تشتبك عليها اجفانه اشتباكا ، فاذا امعن في النوم غير بعيد اقبل الطائف المنتظر يدنو برفق وبشاشة . ووقف منه موقفه المعين وامره « احفر المضنونة » .

يا عجبا ! ما المضنونة ؟ : يقول عبد المطلب .

ولكن الطائف لا يجيب وانما يختلس نفسه من موقفه ثم يغيب .

وينهض ابو الحارث فلا يجد غير الذكرى والاسئلة والشكوك .

يا للطائف العجيب ! يلم به ثلاث ليال فيزعجهن ازعاجا ويملأهن بالاسى والحيرة والوجوم الا انه — مع ذلك — رفيق برجاء عبد المطلب متلطف بأمله يغريه ويطمعه . فاذا هو امل القلق المتعجل ، ورجاء الشجن المستبق الامر قبل اجله المستعجل الاجل قبل كتابه .

وفي الليلة الرابعة حين تكرى عينا عبد المطلب وتكتحلان الغمض يزوره طائفه كعهده به منذ ثلاث ليال فيأمره « احفر زمزم » ولكنه لايلوي على رجعة سريعة بل يقف ليتلقى الاستفهام ثم ليلقي الجواب .

سأله عبد المطلب ! ما زمزم ؟

فقال : لا تنزف ابدا ولا تذم . تسقي الحجيج الاعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل .

يفسر له هذا المبهم الذي حار به وفكر فيه فاذا هو بئر تسقي آماله وطماحه وتريحه من هذا الجهد الذي كان يعاني به البرحاء والمشقة .

وتملك — عندئذ — عبد المطلب الفرحة يشرق لها وجهه الوضاح وتستفيض منها نفسه بالرجاء والامل ، اذن لقد كان تجني هذا الطائف الملهم مفضيا الى هذا الخير ؟ فلا بأس — اذن — بالشجن . ولا بأس

ـ اذن ـ بالقلق ما دامت طيبة وبرة والمضنونة تجتمع كلها اخيرا فتكون زمزما هذه البئر الفياضة التي لا تنزف ابدا ولا تذم .



اســاف ونائلة

افاقت مكة على صبح سافر رائع الحواشي يتصل بضحى ماتــع متدفق الاضواء مترقرق الانوار .

واقبلت قريش على البيت الحرام على العادة ففاجأها مشهد انكرته لانها فوجئت به في غير حسبان ولا انتظار ، انها تستقبل في هذا المترع حدثا يسخط قريشا ويحفظها .

رأوا عبد المطلب بن عمرو العلاء يحفر بين وثنيهم « اساف ونائلة » بمعوله ماضيا في الحفر يضرب وجه الارض فيتخدد ويتداعى ، وخلفه ابنه الحارث هذا الفتى اليافع الجلد يجمع ما فرقه ابــوه من اديم الارض بمسحاته العريضة ثم يحوزه اليه فيرفعه بساعد قوي خفيف فيفرغــه في مكتله ، فاذا امتلأ المكتل وضع المسحاة ورفع المكتل ومضى يفرغ ما فيه ثم يعود الى مثل ما كان عليه .

وعبد المطلب دائب على الحفر في جد وقد تكلل جبينه الاغر بهذا العرق يتزرر ثم يسيل في مسارب واضحة من وجهه الابيض الكريم .

لا يأخذه في ذلك كلل ولا ملل ، ولا يأخذ ابنه الحارث ملل في عمله ولا كلل وانما هما متكافئان يستبقان الى النهاية ، يوفر لعبد المطلب من حفره ما يشغل مسحاة الحارث ومكتله ويملؤهما ، ويوفر الحارث لمعول ابيه ما يشغله من نقله لكأنهما يتجاريان ايهما يتعب صاحبه ويسبقه ؟ غــير

انهما كانا متوازنين حفراً وثقلا .

★ ★ ★

وقف القرشيون على هذا المشهد الغريب الرائع معاً . وكان منتظرا ان يحتجوا وان ينكروا حفراً يحفر بين وثنيهم وكان منتظرا ان يروا في هذا الحفر ايذاء لآلهتهم واعتداء على كرامتها . وكان بالفعل ما كان منتظرا فقد حاولوا ـ بناء على هذا الشعور ـ ان يمنعوا ابا الحارث من المضي في عمله . بل اعترضوه قائلين (والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما) .

ولكن عبد المطلب ليس الرجل الذي يرده عن عزمه انكار او احتجاج ، او يلويه عن ارادته تحد او لجاج ، وانما هو الرجل الحازم الصارم فيما يريده ، وفيما يعزم عليه ، وفيما يراه من حق وخير .

وليس ادل على هذا من قولة لابنه في غير احتفال بلغط القوم ولا أبه باختلاف اصواتهم « يا حارث ذد عني حتى احفر فوالله لأمضين لما أمرت به » .

وانا لنلاحظ في هذه الكلمة القصيرة ثقته العظيمة بجلادة ابنه وايده ونلاحظ خشية القوم لفتوة الحارث وصرامة ابيه ونلاحظ قبل ذلك قوة ايمان عبد المطلب وايقانه بأن ما رآه في اطيافه امر سماوي والهام غيبي يقاتل عليه ويمضي فيه وان تعرض للاذى .

بهذه الارادة الحازمة المؤمنة ذادهم ومضى في عمله لا يلوي عليهم ولا ينثني عما يراه خيراً له ولهم وللحجيج جميعا .

ولعلكم تجدون ما اجد من شبه بين ارادته في قوله (يا حارث ذد عني حتى احفر فوالله لامضين لما امرت به) وبين ارادة حفيده (ص) في قوله (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان اترك هذا

الامر ما تركته او اموت دونه) .

دفينـــة

مضى عبد المطلب والحارث كلاهما ذاك يحفر ويحفر وهذا ينقــل وينقل وما زالا كذلك حتى انتهى عبد المطلب من حفره الى « الطي » ثم تمادى في الحفر حتى بدا له لمعان ذهب وبريق سيوف تأتلق وراء التراب وتعكس ما وصل اليها من وهج الشمس في تلك الظهيرة القائظة .

وجد وراء ذاك اللمعان وتحت هذا البريق غزالين من ذهب وادراعا وسيوفا وكانت جرهم دفنت كل ذلك حين نزحت من مكة .

ويشيع في مكة ان عبد المطلب انتهى الى هذه الخبيئة النفيســـة فيجمع نفر من قريش ان يفرضوا لانفسهم نصيبا من هذا الذي وجــده شيبة الحمد وان يغنموا شيئا منه في راحة لم يمسسهم منها نصب .

ما هم اولئك ؟ يأتون في بداية الامر ليصـــدوه عن الحفر ويحولوا بينه وبين ما يريد ؟

وما هم اولئك ؟ يتوافدون بعد انسلالهم ويجتمعون بعــد نفرهم يطلبون الربح والغنم في امر لم يريقوا فيه قطرة من عرق ولا ضربة مــن عمل ولا وقفة الى هذه الهاجرة تحت هذا الوهج المحــرق ، وانما هم سامدون ليان في اكناف وارفة الظلال من حجرات الشعب وغرفات مكة ؟

ما بالهم ينتشرون كأنهم يدعون الى مصـــبن تغريهم ضحكاتــه وتناديهم نغماته ؟ يا سبحان الله ! اتكروا على عبد المطلب اختياره هذا الموضع يعمل فيه معوله الباني حين لم يأملوا من عمله خيرا فاذا بدرت بوادر الخير وكانت الطلائع ذهبا وهاجا وسيوفا لماعة جاءوا يدعون بحق ما هم بأصحابه ويطلبون نصيبا ما هم بأحرياء به !.

يقولون له « يا عبد المطلب انا معك في هذا شرك » وكيف يكونون شركاءه وقد تعب واستراحوا وعمل وقعدوا ، واكتشف موضع الكنز وشرع يكشف عنه وهم معارضون .

ولكن عبد المطلب السمح الكريم أبعد الناس عن الاثرة واقربهم الى الايثار ، وما اولاه ان يهبهم ذلك كله فما هو من امله ولا رغبته ، فهو بالهبة جدير لولا انهم ابتدأوا بالطلب على وجه الشركة والحق . من اجل هذا منعهم ولكنه منع المنصف الحكيم الذي يقطع على خصومه سبل الشغب والعناد ، ويروضهم على الطاعة والرضا بأن يريهم الحق من حيث يرون ويعقلون .

اجابهم هادئا راضيا « لا ، ولكن هلم الى امر نصف بيني وبينكم . نضرب عليها الاقداح » .

ويقسم الاقداح [14] على ثلاث حصص . « قدحان للكعبة وقدحان له . وقدحان للقوم » ثم يعلم الاقداح ويضربها فاذا الكعبة تفوز بالغزالين ، واذا عبد المطلب يفوز بالادراع والاسياف ، واذا القرشيون خاسرون ، ولكنهم راضون .

ويضرب ــ بعد الفوز ــ الغزالين على باب الكعبة يحليها لاول مرة بالذهب ويتقدم بالاسياف فيجعلها بابا للكعبة ايضا إيثارا لها وتخفيفا لآثار انتصاره في نفوس القوم فكأنه لم يشأ ان يثقل عليهم بحيازته ما يرونه غنيمة ثم كأنه اراد ان يريهم ان هذه الامور متاع يزهد هو به .

درع جديد

ولكن مطامع هذا النفر لا تنتهي عند هذا الحد ، فلا يقتنعون من

---

(١٤) الاقداح جمع قدح بكسر القاف وهو السهم ، وكانوا يقترعون على هــذه الطريقة .

فشلهم بالغزالين والاسياف ان الماء له خالصا دونهم ، بل تسول لهم انفسهم ان يستأنفوا دعواهم من جديد لا على الادراع والاسياف بل على الماء . ماء زمزم لعلهم يصيبون حظا من الشركة بهذا النمير الغزير الذي لا عهد لمكة بمثله منذ عرفوها .

ها هم مقبلون من جديد فقائلون (يا عبد المطلب انها بئر ابينا اسماعيل وان لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها) .

وكان عليهم ان يتعظوا لا بنجاحه في قرعة الاسياف والادراع فقط بل كان عليهم ان يتعظوا بكل الظروف التي رأوها توطد هذا الرجل المظفر المنصور .

كان عليهم ان يذعنوا له منذ رأوه انسانا فوق انسانيتهم ورجلا فوق رجولتهم ومدرها يمتاز عن سادة العرب بألوان من السيادة والنبل لعل العرب لم يعرفوها الا في ابيه .

ولكنهم حين يثور في صدورهم نبضان الانانية ينسون امتيازاته فاذا جادلوه جاراهم ما وجد الى مجاراتهم سبيلا ثم كر عليهم بالاقناع من طرقهم ووجداناتهم حتى يتبينوا انهم مخدوعون .

يجيبهم على دعواهم في زمزم :

« ما انا بفاعل . ان هذا الامر قد خصصت به دونكم واعطيته من بينكم » .

قالوا « انصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها » .

انه مطمئن الى انها له خالصة فليجارهم وليوسع صدره لجدالهم وليقاضهم من يشاؤون .

المعجزة تحكم

اختار القوم كاهنة بني سعد بن هذيم في مشارف الشام فأقر

اختيارهم ليكـون الحكم أدل على حقـه واجـدر بأن يخضعـوا له في غير انتقاض او اعتراض . وينادي مناد في قريش ان يتجهز من كل حي نفر فان الغداة موعد السفر لمقاضاة عبد المطلب في مشارف الشام ويوعز ابو الحارث لنفر من رجاله ان يحزموا امورهم كذلك لهذا السفر البعيد، الى كاهنة بني سعد .

هذه الرواحل تضرب بأخفافها الارض نشيطة مرقلة تجتـاز بحر الصحراء مسرعة منسابة وها هم السفر صفان متوازيان في السير متفقان في العدد كأنهم القلوع فوق السفن الجارية واولئك هم السفر في صفيهم يقبلون على ألوان الحديث يقطعون به الوقـت ، او يقبلـون اذا ملـوا الحديث ـ على الانصات لنغمة الحادي تتعالى متجاوبة في عرض الصحراء تستأنف النشاط في الجمال ، والصبر في نفوس القوم على هذا السـير العنيف المتعب والشمس تلقي اشوظة من نارها فاذا للرمل لهب وله ألسنة من بخار تضطرم به الصحراء العارية ولكن القوم ابناء هـذه الصحراء يثبتون لها ويقوون عليها ويتمادون فيها سيرا بنشاط وارقال وسرعـة وهرولة يتحدثون في زمزم وآمالهم فيها فاذا ملوا هذا الحديث وغـيره استمعوا الى ارنان الحداء المرسل ارسالا او المرجع ترجيعا ، الباعث على كل حال في وحشة البيداء أنسة ، وفي تعبها راحة يصيب منها القوم بعض الجمام ، وتصيب منها الابل بعض القوة .

على هذا قطعوا مرحلة واخرى ومراحل بعدها فاذا بلغوا (الفقير)(١٥) نضبت اسقية عبد المطلب امواهها فصبر وصبر اصحابه اول الامر ولكن العطش في مثل هذه الصحراء وفي مثل هذا القيظ اللاهب امر لا سبيل الى الصبر عليه فيضطر عبد المطلب ـ من اجل ذلك ـ ان يستسقي قومـه

---

(١٥) منطقة في طريق الشام من الحجاز .

من قريش المخاصمة ولكنهم يمنعون عنه الماء .

وحين لا يجد الوسيلة الى الري يلتفت الى صحبه فيأمرهم ان يترجلوا ويحتفروا لانفسهم قبورا ينتظرون فيها آجالهم التي تدلف اليهم وهم ينظرون ، فمن تعجل اليه الموت منهم دفعه اصحابه وسووا عليه قبره الصدي حتى يأتي الموت على آخرهم في هذه الحفائر التي قدر لهم ان يلقوا بها حتوفهم صابرين ظامئين .

ولكن نفس عبد المطلب الرفيعة المصعد ابت ان يتسلل بنو ابيه الى هذا الموت الهين وان تخطف المنية بني ابيه واحدا واحدا وهو يراهم ولا يدفع عنهم هذا البلاء ، او لا يحاول دفع هذه النازلة فاذا هو يهيب بهم ان ينهضوا للبحث عن الماء واذا لم يكن من الموت بد فليموتوا وهم في سبيل البحث والتفتيش ، اما هذا الموت في هذه الحفائر فانه موت هين لحيوانات رخيصة لا تليق بأبناء هاشم .

ثم يخطو امامهم الى ناقته المباركة ــ وقريش تنظر اليه من امم ــ فيعلوها ثم يدفعها فتنبعث نشيطة قوية وتضرب بخفها وجه الارض فتنبجس تحت ضربتها عين تندفق بالامواه السلسة الباردة . الله اكبر !! يعلو بها صوت عبد المطلب يدعو بها بني ابيه الى هذا الفيض الدافق النقي الرقراق ثم يدعو قريشا ــ وقد منعته الماء ــ ان تقبل على هذا الماء الجديد فتبترد وتشرب وتبدل ماءها الآسن الحار المخزون .

تبارك الله ! ان الذي انبع هذا الماء النابض لعبدالمطلب فيغير انتظار ولا احتساب قضى له بزمزم ففيم تتجشم قريش طول السير ومشقته الى كاهنة في مشارف الشام ؟

فليرجعوا من حيث اتوا مؤمنين ان عبد المطلب رجل لا يغلب وان الاولى ان يلقوا اليه مقاليد الزعامة في غير منافسة ولا كيد .

ان زمزم لك ــ ابا الحارث ــ فاشرب منها واسق بها راشدا مهديا .

بهذا الاعتراف انتهت هذه الخصومة وختمت هذه السفرة الميمونة .

ولكن لم ينته نقوم من قريش عن حسدهم ولم ينهكوا من سعيهم وحسيكتهم ولم يكفهم من الحسد والسعي والحسيكة ما اجترحوه من المعارضة حين بدأ عبد المطلب الحفر وحين مضى فيه الى ان عثر على الذهب والادراع والاسياف وحين نبض الماء تحت معوله ثم تدفق — لم يكفهم كل ذلك ولم يردهم اطراد انتصاره الى الصواب من التسليم له والعدول عن مناوأته فعادوا الى بئره هذه زمزم وقد حفر قرارها ووسعها ليفيض ماؤها على نحو يسد الحاجة ثم بنى عليها حوضا واسعا ينقل اليه الماء منها تسهيلا للورد على الشاربين . نعم عادوا الى هذا الحوض يدبون اليه تحت سدول الظلام فيعبثون به ويهدمون اطرافه ، فاذا اصبح عبد المطلب غدا عليه بالاصلاح والترميم .

ولكن كل نهار منته وما بد — الى ليل والليل موغل في غلس ينام فيه الجاهدون ويستريح به الساهرون ، وفي مثل هذه الساعة يسترق بعض القوم خطاهم الى هذا الحوض منسلين انسلال اللصوص يعملون فيه ما شاؤوا من تهديم وتكسير واعابة .

عيل صبر عبد المطلب وضاق بهذا الامر ذرعا فدعا ربه فاذا بهاتفه او اذا بهاتف كهاتفه في زمزم يقف منه ذلك الموقف الكريم اذا جنه الليل واحتضنه الكرى ، فيقول له :

قل اذا اصبحت معلنا في المسجد « اللهم اني لا احلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل » ثم كفيتهم .

وتختلف — كالعادة — قريش من الغد الى مجالسها من المسجد وتأهل حلقاتها بالجلاس فهنا بنو زهرة وهناك بنو امية وهنالك بنو مخزوم وهنا وهناك بنو فلان وبنو فلان . يلتفون حول زعمائهم

ويضطربون فيما يعنيهم من لهو الحديث وجده .

هم كذلك اليوم كعادتهم ولكنهم يفاجأون بأذان عبد المطلب فتنقطع احاديث المحدثين ويتحول اصغاء المصغين الى استطلاع ما عند عبد المطلب من جديد .

انه يتأذن فيهم بما يجوز من زمزم وما لا يجوز فيها .

« اللهم اني لا احلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل » .

يضرب عليها هذا السد المنيع كما أوحي اليه ثم ينصرف عنها في أمن ودعة وراحة بال .

ولكن بعض السامعين ممن يدب الى الحوض حين يقبل الليل شك بقوة هذا السد وحاول اقتحامه حين غلس الظلام .

هوذا مقبل كالعفريت يجوس خلال المسجد على اطراف الاصابع وها هو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يفتش عن موقع هذا السد وعن اثر هذه الكلمات التي احاط بها عبد المطلب حوضه ، وعن سلاح حراستها ، يبحث عن ذلك فلا يرى شيئا ولكنه يحس ــ وهو يبحث ــ بقشعريرة ثم يحس برعدة ثم يحس ببرد كأنما هو قطع الجليد تساقط عليه من حيث لا يرى ومن حيث لا يعرف مصدرا غير انه لا يزال منسلا حتى اذا دنا من الحوض فعبث به يسيرا ارتد عنه ــ عندئذ ــ مذعورا فاذا انتهى الى منطقة الامن وهدأ عنه الروع اصيب بداء في جسمه .

اذن فقد كانت هذه الكلمات القصيرة سدا منيعا حقا منع القوم عن ايذاء عبد المطلب في حوضه .

نـــذر

مرت تلك الحوادث طبيعية في مناوأتها لعبد المطلب ، فقد كان

منتظرا ان يقف نوفل وامية ومن اليهما في طريق هذا الشاب وكان منتظرا ان يجهدوا في ايقافه دون زعامة ابيه التي تنتظره ذلك لانهم لا يزالون يجدون من آلام الغيظ المكتوم ما يجدون من قصورهم عن اللحاق بخطى هاشم ثم بخطى عبد المطلب هذه التي تقفز قفزا في معارج المجد وتتوقل توقلا في مدارج الحمد .

وهم انفسهم مؤمنون في قرارة ضمائرهم واعماق سرائرهم ببعد الشقة بينهم وبين عبد المطلب فما ينبغي ان يطولوه ولا ان يجادلوه ولا ان يخرجوا عليه ، ولكن خنزوانة موتورة يضرمها الحسد الاكول فتثور هوجاء تدفعهم الى اعتراض سبيله دفعا وتقفهم حيث يكره من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون .

هذا معنى ما قلناه من طبيعة هذه المناوأة الفاشلة في الحوادث المارة، ولئن كانت هذه المناوأة طبيعية فقد كان النصر لعبد المطلب غير طبيعي في اكثر مظاهره وان كان طبيعيا لصفاء نفسه وطهارة سريرته وصدق اخلاصه وقوة عقله ونزاهة ضميره من دخائل اللؤم والحقد والرجس .

ومهما يكن من شيء فان هذه الاحداث المتلاحقة الملحة على نزاعه في ساحاته ثم حفره بئر زمزم ثم في الخبيئة التي اكتشفها بجهده ثم في بئره التي كشفها بكده ثم في حوضه الذي بناه ليسهل الورد على الواردين — ان هذه الاحداث كلها وما اليها من تنقصه بقلة الولد وتعييره بنقصان العدد كل هذا ترك في نفسه شعورا بالوحدة ورغبة في الكثرة وشوقا الى ان ينشر حوله قبضة من الاولاد يجاري بهم عقلية يومئذ في المكاثرة والمفاخرة بكثرة الاولاد ، او يرد عن نفسه معرة هذه النقيصة التي لم يجد اعداؤه فيه غيرها .

وتحت تأثير هذه العوامل نذر ان يذبح احد اولاده الذكور متى بلغوا العشرة عددا واقبل من نذره على النساء يتخير كرائمهن واوسطهن

أنسابا .

فتزوج بعد صفية ام الحارث . فاطمة بنت عمرو المخزومية ام ابي طالب والزبير وعبد الله وعبد الكعبة من الذكور .

وتزوج هالة بنت وهيب الزهرية ام حمزة والمقوم والمغيرة من الذكور .

وتزوج نتيلة بنت خباب ام العباس وضرار وقثم ، وتزوج لبنى بنت هاجر الخزاعية فولدت له ابا لهب ، وتزوج ممنعة بنت عمرو الخزاعية فأولدها الغيداق الاغر .

تزوج هاته النسوة واولدهن حتى بلغ الذكور من اولاده عشرة بهاليل صيدا ليس في الدنيا مثلهم كرما ولا جمالا ولا كمالا شم العرانين تشرب انوفهم قبل شفاههم ــ كما يقول الكلبي (١٦) وكانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر ويملكون النفس ويبعثون العزة والكرامة . يقول عامر بن مالك ــ وقد رآهم يطوفون كأنهم جمال جون ــ « بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة » .

فاذا بلغ اولاده العشرة عددا جمعهم اليه وقص عليهم خبر نذره ان يذبح احدهم ان توافوا عشرة وطالبهم بوفاء هذا النذر برا بعهده لله فأجابوه مذعنين بصوت واحد « اوف نذرك وافعل ما شئت » .

فتوجه لله وقال : اللهم اني نذرت لك نحر احدهم واني اقرع بينهم فأصب بذلك من شئت .

ثم قرع بينهم فاذا القرعة تقع على عبد الله احبهم اليه على انهم جميعا احباؤه وافلاذه وانه لسخي بواحد منهم لقربانه وان كان عبد الله يقدمه الى مذبحه بيده راضيا مطمئنا مشرق الوجه لا يأخذه روع ولا يمسه رعب

---

(١٦) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٧ .

ان يذبح ولده كما تذبح الشاة .

أليس في ذبحه رضا لله ووفاء بالنذر وبرا في الدين ؟

بلى وحسبه ذلك عزاء عن فقد ابنه وسلوانا يصيبه من هم لمصرعه وحزن لفقدانه .



ذبح وفداء

يا لهول ما سمع المكيون من نكر ما يحمل هذا الطالع الجديد !!

أيصدقون أم يكذبون ؟

هذا الفتى الكريم العظيم ، الجميل الجليل ، الظريف العفيف ، أهذا عبد الله يختطف من جو مكة اختطافا وقد كان به غردا آهلا ويخلو منه ربعها وقد كان به عامرا حافلا ؟ ويلقى في معبدها حتفه ذبحا كما تجزر الاضاحي وتنحر الشياه ؟

يهرع الناس من كل مكان ويتوافون من كل منفذ ويسيلون من الاسواق والبيوت ومن المجالس والندوات . فيختلط رجالهم ونساؤهم وشبابهم وفتياتهم يتزاحمون بالمناكب ويتدافعون بالاكف الى المسجد منثالين .

فاذا عبد المطلب بابتسامته اللامعة امام هذا الغشاء الحزين الذي لم يكن منه بد ، وبيده هذه الشفرة القاطعة ثابتة في قبضته الثابتة تستقبل نحر عبدالله العاجي المورد واذا عبدالله ثابت وديع باسم يستبقل الشفرة كما تستقبله هي بايمان ورضا وتسليم . وحوله من قريب اخياته الناكلات يهملن من شؤونهن ما تسكبه اللوعة . ويسبلن من دموعهن ما يصبه الوجد . ويصعدن من حسراتهن ما يسعره الالم ، وهن الى ابيهن ضارعات

ببكائهن الجاهش وبوجدهن الجائش ان يعذر فيه وان يجد الحيلة لحياته بفداء او تعريض فان عبد الله اغلى من ان يصير الى الموت في غير حيلة ولا ابتغاء وسيلة ترضي الله وتبقي عبد الله حيا تجبر بحياته القلوب وترد الرعب الى موطن الامن والدعة .

ان عبد المطلب لكذلك وان عبد الله كما رأيناه وان اخواته بين دموعهن وتوسلهن ، واذا بالمجال يضيق وبالهدوء يضطرب فيخرج الصمت من سكينته الخاشعة الى لغط واختلاف اصوات من كثرة الناس .

ويتضاغط الاحتشاد والتزاحم حول عبد المطلب وعبد الله ويحاول هذا الجمهور المتظاهر ان يتداخل ليستقر كله في هذه النقطة الضيقة التي يستقر فيها الزعيم البر والولد المضحى به ، وكان هذا الجمهور الهائج يستهل وجه عبد الله وهو رابط الجأش هادىء الاعصاب تلتمع على ثغره الهش ابتسامة بريئة مغرية عذبة تصف ما فيه من بسالة وما فيه من بر وما فيه من طاعة وصفا يضيق عن ادائه الادب وتعجز عن بيانه اللغة .

ويرجع الجمهور عن هذه البسمة اشد ما يكون الحاحا على فدائه عبد الله ، فيقف الزعيم اشد ما يكون وفاء لله ، ويلقي ولده الحبيب على الارض بين أساف ونائلة (١٧) ويهم به ، ولكن بني مخزوم ــ اخوال عبد الله ــ ومن ورائهم احياء قريش وبطونها جميعا يتلطفون بعبد المطلب ويحزمون في دعوتهم اياه ان يؤجل ذبحه حتى يروا رأي العرافة (١٨) ويعرضون اموالهم كلها فداء لزين شباب قريش يلحون في هذا الحاحا بلسان واحد (لا بد من العذر في ذبحه) .

---

(١٧) جرى في ذلك على العادة والتقليد ولم يصدر في تعيين مكان التضحية عن عقيدة وايمان .

(١٨) كان من منطق قريش في منعهم اياه عن ذبحه خشيتهم ان يذهب فعله سنة تتبع وتقليدا يذبح به الاباء ابناءهم .

وامام هذا الالحاح الذي كان ارضى لقلبه ــ لو رضي الله ــ اجل تنفيذ الحكم .

ثم قرع بعدئذ بين عبد الله وبين عشرة من الابل ــ وهي مقدار الدية يومئذ ثم شرع لها عبدالمطلب مائة فكانت سنة متبعة ــ فخرجت قرعة عبد الله وما زال يقترع مضاعفا عدد الابل عشرة عشرة حتى بلغ عددها مائة فخرجت القرعة عندئذ على الابل والناس خلال الاقتراع في وجوم ووجيب يكاد يقتلهم الاشفاق ان تتصلب القرعة وتقسو على غضاضة هذا الفتى الممتع الحياة . فاذا جالت الاقداح وظهرت شارة عبد الله أفلتت همسات مختلفة مدوية من الصدور المكلومة وتصعدت انفاس حبيسة من هنا وهناك فشوشت السكون الشامل ، ولكنها لا تلبث ان تعود الى مقرها من النفوس ولا يلبث الناس ان يعودوا في صمت الى المعركة العنيفة بين اليأس والامل وبين القنوط والرجاء .

وظلوا يعانون هذه المرارة تسع دورات من جولات الاقداح عابسين ممتدة اعناقهم الى الاقداح لا ينبسون حتى اذا جالت الجولة العاشرة وكانت الابل موضع القبول ونجا عبد الله انفجر ــ آنئذ ــ الجميع كأنما نشر في تلك اللحظة ، وتدفق الهتاف مختلفا ومؤتلفا مجتمعا ومتفرقا ، وكانت فرحة عيد نسخت أسى مأتم .

وكان أفرح الناس ــ ان جاز التفضيل ــ هاته الاخيات الدامعات اللواتي انتبذن مكانا ينتظرن فيه العاقبة ويفكرن بحظوظهن منها ناشجات لا تبتل لهن جوانح ولا تجف لهن مآق ، ولعل دمعتهن لم تكف عن وكف وهن يحتملنه مزغردات لا يزعجنه ان يمشي بأقدامه على الارض او كأنهن يشفقن عليه من هذه الارض التي كادت قبل قليل ان تشرب من دمه الزكي فيرفعنه عنها حذرا منها وكراهة لها ، ولكنه ، وهو الفتى المنصور المرموق بالبسالة ــ أبى ان يظل على اذرعهن محمولا فالاولى ان يتبختر وهو عائد

من هذه المعركة ، والاولى بعد ان يخترق هذه الصفوف الممجدة لموقفه الكريم ماشيا على قدميه بزهوه وجماله وقده واعتداله يميس بخفره المعهود ، ويدل بعمره المردود بنصر من الله وايعاز منه تعالى بالسر الذي ينطوي عليه ويتهيأ لاخراجه .

اجل لقد عاد عبد الله من معركة اجله ظافرا يستشرف فيه الحشد المتراص الفرح المغبوط معنى جديدا من معاني الحب والاعجاب ، ويرى فيه صورة تنضاف الى الصورة التي كانوا يعجبون منه بها ، فقد كانوا يحبونه ويؤثرونه ويحمدون فيه الوداعة والحسن وكرم الشمائل ويمدحون فيه كل ميزة ترفع ابناء هذا الزعيم من ميزات النبل ومظاهر المحتد وكفايات السيادة ، وهم الان يعجبون به مضافا الى ذلك من اجل هذه التضحية البرة وهذه الطاعة المؤمنة وهذه البسالة الفذة في ذلك الموقف الفذ ، وفيه من كل ذلك بعد موقفه فوق معانيه معنى التضحية وما يلازمها من المعاني المتضمنة لاسرار العظمة التي توجب تعظيمه وتدعو الى حبه واكباره .

وهم بعد ذلك يرون به معنى الامل بعد اليأس والنعمة بعد البؤس والحياة بعد الموت فيتضاعف حبهم اياه وايثارهم له لانه يثير فيهم بعد عودته عوامل شتى لم يكن يثيرها من قبل .

وكان حقا ان يزدادوا له حبا واستعظاما وان يزداد في قلوبهم تمكنا واستحكاما لان موقفه بطبيعته يدعو الى ذلك .

انه وقف في معركة كان الخصمان فيها عنيدين شديدين عنيفين يسددان اوجع الضربات ويتبادلان اشد الهجمات ويكيل كل منهما لصاحبه آلم لكم وآذاه ، ولم يكن هذان الخصمان غير حياة عبد الله وموته ، وعبد الله يقف منهما موقف الحياد يبسم لهما جميعا ويفرح لهما جميعا ولا يعنيه منهما الا ما يتصل بالحق ، فان كان حقا ان تغلب الحياة فلها الغلب

وعليه الرضى ، وان كان حقا ان يغلب الموت فليمت راضيا مجبورا كذلك.

هذا الموقف ــ عندي ــ سر عظمة عبد الله ولعله كان اكبر دافع لجمع مكة على الحاحهم على فدائه ، واصح تعليل لاعجابهم به هذا الاعجاب الشديد الذي لم يظفر به منهم بطل من ابطال العرب ، ذلك لان الابطال في يوم الكريهة تضرى نفوسهم بالحماسة ، فيخرجون بتأثير مشاهد الدم وصيال الرجال عن اختيارهم وينقادون الى زحمة المعركة مأخوذين بتيار الحرب ، اما هذا الفتى فقد وقف للموت مختارا لم ينبعث من حماسة، ولم يصدر عن حمية ولم يقدم عن مضاهاة وانما انقاد بزمام الايمان والعقيدة والبر ونظر الى الموت من هذه الكوى فلم يجده كما يجده الناس جهما عبوسا دميما صعبا ، ولكنه وجده ابيض متهللا جميلا سهلا ، ومن هنا استطاع ان يقف محايدا بين حياته وموته يبسم لهما جميعا ويفرح لهما جميعا .

بهذا الموقف ازداد عبد الله عظمة في النفوس ، وحبا في القلوب وجمالا في العيون ، فتعلق به الناس فلو كان الرجال كلهم ثاكلين والنساء كلهن ثاكلات ، والاخوة والاخوات جميعا مرزوئين بفقد ما يلد الاباء والامهات ــ اقول تعلقوا به كما لو كانوا كذلك ثم بشروا بولد فجأة له مثل هذا الكمال والوضاءة . اكتسب هذا الوقع الجديد بموقفه العظيم مضافا الى ما كان له من منزلة سابقة ومكان قديم .

وكان فرضا ان يخرج عبد الله من معركة الاجل ظافرا منصورا تفديه هذه الابل المزجرة المباحة لا يمنع عنها انسان ولا حيوان ، لانه كان يحمل من الله امانة الرسالة ووديعة الحق .

ولو علم الناس الذين احبوه هذا الحب واعجبوا به هذا الاعجاب ودافعوا عنه هذا الدفاع ، انهم لو علموا بموضع هذه الامانة منه لخلوا بينه وبين الشفرة ولاشتروا موته بما بذلوا لحياته ــ ان استطاعوا ــ فان

محمدا (ص) كان في صلبه حين دنا من مذبحه . ولا سبيل الى موتــه مــا دام محمد في هذا الصلب الطاهر ، ومحمد الذي دافعوا عنه ــ واقعــا ــ حين دافعوا عن عبد الله واحبوه واعجبوا به حين وضع (ص) وحين درج الى شبابه العف الكريم ، كرهوه بعدئذ وناصبوه اشد العداء ولم يفيئوا الى دينه الهادي الا بعد ان ارجعهم هو بالقوة وفرض عليهم الحيــاة وهم لها كارهون .

يا حكمة الله . ان الموت الذي صارع حياة عبد الله فانصرع بــين يديها مكرها اعاد الكرة بعد قليل فغزاها ثم صرعها لا يقبل فيها فــداء ، ولا تنفع فيها لديه شفاعة ولا استمهال ، ولا يجدي على عبد الله حب او اجتماع لحياته وانما يمضي في سبيله الى لقــاء الله غريبا بعيدا عن هــذه الدموع والاكباد ، بعيدا عن هذه العيون والافئدة ، كل ذلك ليظهر امر هذا السر العظيم .

يضع عبد الله الامانة ويمضي في سبيله ليظل ابنه يتيما ، ويموت دون الثروة ليظل ابنه فقيرا يجري ذلك مقدرا مفروضا لا عمل فيه للصدفة ولا للاتفاق وانما يجري ليظهر امر هذا السر العظيم وليعلم العرب ان البطولة لا تنتسب الى ابوة ولا تعتمد على مال ولا كثرة ويعلموا ان الكثرة التي كادت ترغم عبد الله على الموت حين بلغ اخوانه العشرة ستخضــع للقلة ــ التي عابوها على ابيه في يتيمه ، وتنقاد للوحدة في جنينه ، وقــد رأوا برهان القلة الغالبة في عبد المطلب يوم الأدراع والاسياف وزمزم وسيرون وحدة محمد (ص) يوم الفتح اشــد قوة واعلى برهانا في الدين والحياة والنظام .

هذا تفسير حكمة الله في حياة عبد الله ، وهو هو تفسير الحكمة في الهامه عبد المطلب ان ينذر فذه اذا بلغ بنوه عشرة .

شواهد

ومن يقف الى حياة عبد المطلب يجدها حلقات متصلة تترابط بعرى من هذه الروحية التي رأيتموها ، ولا يمكن ان يتضافر الاتفاق على كل هذه الحوادث المتسلسلة المرتبة على هذا النحو فان سياقها المنسجم المنسوق شاهد مادي على ان عملا من الالهام ، ومعنى من الامتياز الروحي كانا يسوقانه الى ما ساقاه اليه .

ولنا بالاضافة الى ذلك شواهد مادية تثبت له هذه النفس المتبلورة المتازة بروحية ملهمة .

الا يدل على ذلك انصرافه بطبعه عن الخنا والفجور ، وعن الفسق والخمور وعن كل موبقة توثق الروح او مادة تذهب ببهاء النفس وليس في مكة ولا في الدنيا كلها يومئذ دين يحظر شيئا من هذا ولا بيئة لا يتسع صدرها لالوان الاثم ؟ فأي مانع ــ ولا مانع ــ له من اتباع الشهوات والميل الى الملذات لولا هذه الروحية التي تسيطر عليه ؟

الا يدل على ذلك ضربه الامثال للناس في الخلق والبر والهدى وفي كل وجه من وجوه الصلاح والاصلاح ؟

الا يدل على ذلك فزع الناس اليه اذا مسهم الضر من جدب او معسرة وايمانهم بأنه قمين ان يدفع عنهم ما لا يدفع بمادة من مال او تضافر او عزم ؟

استسقاء

بلى لقد منيت مكة بسنين شديدة ممحلة ذهبن بالاموال ، وأكلن ما في مكة من اخضر ويابس ، واشفين على النفوس نضبت اوشالها فقضين عليها حكم المجاعة التي لا تعرف رحمة ، وبات الناس من هذه المحنة

السوداء في ضنك وبلاء لا يجدون لهما مفرجا غير هذا الزعيم الميمون الذي واساهم وآساهم واحيى ضعافهم من جوع ومسبغة بتلك القصاع السمينة التي عرفوا فضلها يوم ابيه من قبل .

فاذا ضيقت المجاعة عليهم الخناق لجأوا الى عبد المطلب ان يشفع جاهه الروحي المجرب ان تنفتق السماء رحمتها وتتشقق غمائمها عن ودق يعيد لهم الخصب بعد الجدب والامن بعد الخوف ، والحياة التي كانوا بها رتعا هانئين .

ويمضي عبد المطلب يجر وراءه اولاده وعلى رأسهم محمد (ص) وكان يومئذ وليدا ـ وخلف اولاده جماعة يؤلفها من كل بطن رجل يسفر بالدعاء عن قومه ، ويتجه هذا الموكب وراء زعيمه صعدا الى جبل « ابي قبيس » فاذا استقر في اعلاه استقبل عبد المطلب السماء بوجهه الابيض الكريم يستسقي به الغمام ويقدم هذا الضارع لله ويقول ندي الصوت شجي النبرات :

« لاهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، واماؤك وبنات امائك وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف ، وأشفت على الانس فأذهب عند الجدب وأتنا بالحيا والخصب » .

ما اكرم هذا الرجل على ربه وما اولاه بهذه الكرامة عند الله .

انه لم يتم دعاءه حتى هبت الرياح مختلفة تسوق السحب من اطراف السماء وتركمها بعضها فوق بعض في جو مكة ، فاذا احتشدت هناك افلتت اوكيتها واندفعت منهمرة هتونا مودقة كأفواه القرب وللجو زجل وجرجرة كجرجرة الاذي الملتطم .

فتسيل الاودية وتغرق الارض العطشى ويرجع عبد المطلب بموكبه الجليل يخشون الانزلاق ، ويضايقهم الطير في هذه الطريق التي صعدوا فيها يؤذيهم الغبار ويثور تحت أنعلتهم التراب .

فاذا انتهى الموكب الى مكة سمع في بيت من بيوت هاشم صوت عذب رقيق يندفع في فضاء البيت فيبعث فيه مزاجا من المرح والاعتزاز والفخر ، وكانت التي تبعث هذا الصوت الهزع المتغني الفخور « رقيقة » بنت ابي صفي بن هاشم قائلة :

بشيبة الحمد اسقى الله بلدتنا	وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر [19]
فجاد بالماء جوني لهسبل [20]	دان فعاشت به الانعام والشجر
منا من الله بالميمون طائره	وخير من بشرت يوما به مضر
مبارك الامر يستسقى الغمام به	ما في الانام له عدل ولا خطر[21]

بخ بخ .

حديث الفيل

بلى وله قبل الاستسقاء وراء كل ما قصصنا من حديث هذه الروحية ما هو اعظم من كل ذلك وادل على عبقريته وقوة عقيدته .

ان حديث الفيل انبض بعظمته من كل هذه النوابض التي مررنا بها ، وانما نراها انبض بالعظمة لانا نراه يثبت في هذا الامتحان الهائل هادئا

---

(١٩) الحيا : المطر ، واجلوذ المطر : طال تأخره .

(٢٠) الجون ضد يطلق على الاسود والابيض ويقال على الوان اخرى صرفة ومشوبة والغرض من النسبة اليه هنا الكناية عن الغمام الممطر ، وربما كانت بكلمة (جوني) بضم الجيم لا فتحها وهو ضرب من القطا سود البطون والاجنحة وعندئذ يكون الغرض تشبيه الغمام بهذا النوع من الطير اذا كان على شكله . ولها سبل بفتحتين متواليتين ، لها انهمار وهطل وانصباب .

(٢١) ما له مثل .

مطمئنا والناس من حوله في قلق وخوف واضطراب يفرون من مكـة على وجوههم لا يلوون .

كان مؤمنا في غير شك بأن « أبرهة » مردود عن مكة اذا هم بالبيت مع ان الظواهر كلها تؤيد قوته وفوزه وتثبت انه خليق بقوته العظيمة الا يقف في وجهه شيء، حري ان يقتلع مكة من اساسها من غير عناء ولا مشقة. ولكن عبد المطلب يخالف هذه الظواهر كلها ويرى ان أبرهة اضعف مـن ذلك وأخسأ ولو اجتمع له اضعاف قوته لذلك يلقاه ليطلب منه ابله المنهوبة لا ليطالبه بالرجوع عن مكة او الرفق ببيتها او اهلها وانما هو لقاء فيه امر ان ترد الابل وفيه تفويض لأبرهة ان يمضي في عزمـه ان شاء ، فان عبد المطلب ليس شاكا في دينه ولا مرتابا في ان الله اقوى من أبرهة وجيشه مهما عظما ، ولا مشتبها بحكم الله ، فلا بد ان يشرد الله هذا الجيش تشريدا وينكل به تنكيلا ، فان لم يفعل ومضى الجيش في عمله آمنا غير مروع فان لله حكمة وله ارادة يقصر عن فهمها ادراكه .

بهذا الرضا من العقيدة وبهذه الاناة من الايمان استقبل حادثة الفيل، والعقيدة اذا ابتنت على هذا العقل البصير كانت سر العظمة ليس لهـا في العظمات نظير .

هذا ما اعنيه حين اقـول ان حادثة الفيـل انبض الحوادث بعظمـة عبد المطلب .

ما حادثة الفيل على وجه التفصيل ؟

فصل التاريخ ما اجمل القرآن الكريم في سورة الفيـل ، فقص ان النجاشي جهز لفتح اليمن جيشا لهاما بقيادة (اريـاط) الحبشي . وكان أبرهة الاشرم جنديا في هذا الجيش ، وفي ساعة من ساعات طموح هـذا الجندي ثار على قائده ودعا الجند من اخوانه الى طاعته فأجابوه مسرعين، وحين استتب له الامر قتل (ارياط) القائد ، ومضى في عمله يفتح اليمن

للنجاشي حتى فتحها وتأمر فيها .

وحال عليه الحول واقبل موسم الحج فتجهز الناس من اطراف اليمن استعدادا لحج بيت مكة .

عجب ابرهة من هذه القوافل تترى تترك بلادها الى الحجاز واعاد النظر في مظاهرها لعلها قوافل تجارة . او لعلها كتائب حرب ولكن النظر عاد اليه ينبئه ان مظهرها لا يدل على شيء من هذا او ذاك .

اذن فلماذا تصحر في مثل هذا الزمن بعينه ؟ ولماذا يقبل الناس هذا الاقبال العظيم على بلد مجدب لا ماء فيه ولا كلأ ؟

اجابه القوم الذين معه : انه موسم ديني تحج فيه العرب الى بيت الله في مكة فلا يحل في هذا الموسم حرب ولا قتال وانما هو موسم للامن والسلام ينسى فيه الحاقد حقده والموتور اوتاره وتكاد تكون فيه اخوة عامة اجلالا لهذا البيت واعترافا بفضله .

فيسألهم . مم هو ؟

فيقولون : هو من حجارة .

فيقول : وما كسوته ؟

فيقولون : وصائل تأتي من هنا وهنا .

وعندئذ ينتخي الحبشي يظن ان الشرف يستمد كرامته من الاردية واللفائف والزراكيش ، ويغيب عنه ان الشرف انما هو جوهر بذاته لا تزينه قشوره ولا تضر به مهما كان نوعها وشكلها ، واعتزم ـ يومئذ ـ ان يبني في اليمن بيتا يحليه بكل نفيسة من البناء ويحيطه بأعلاق الذهب والفضة والجوهر .

وكان البيت الذي بناه شامخا مشمخرا مسموكا بضروب الرخام واشكاله ، احمر الى جنب اسود الى جنب ابيض الى جنب اصفر على طراز عجيب رائع الهندسة والبناء وصفح ابوابه بالذهب ينثر فيها مسامير ذهبية

بيضوية الرأس شرجها تحت ياقوتة حمراء عظيمة ، ثم لطخ جدر البيت بالمسك واوقد فيه بالمندلي ووظف له حجابا وسدنة ثم امر الناس بالحج اليه .

لم يكن هذا البيت اكثر من قصر أنفق عليه الثراء ، واترفه المال ، ولكن لم يزين معناه بشرف ذاتي كما أترف ظاهره ، فكان كمجسمة رائعة ولكن لا حياة لها ولا حركة ، والعرب انما يحبون الحياة ويحجون الى المعنى الذاتي اما الاحجار واليواقيت فلا تبدل من عقائدهم شيئا .

ومهما يكن من شيء فان الذين حجوا اليه من العرب انما حجوا اليه رياء وطمعا لا ايمانا واعتقادا ولكن نفيلا الخثعمي خشي ان يخدع الناس بحكم الاستمرار وطول العهد بهذا البيت فيعود الرياء صدقا وايمانا بل لعل ناسا من العرب تألهوا فيه ونسكوا بعد مضي ست سنين على بنائه فقام من اجل ذلك نفيل — وكان مقربا من أبرهة — في سدفة من الليل يدب الى هذا البيت — وقد هدأت الحركة ونوم الناس — فيلطخ محرابه بعذره وينثر في أوساطه جيفا ثم يعود ادراجه كأن لم يصنع شيئا .

ويصبح أبرهة فيأتيه النبأ فيتميز من الغيظ ويحرق الارم ، ولكنه على من يلقي التبعة ولا سبيل الى معرفة الجاني ؟

فلتلق المسؤولية — اذن — على العرب جميعا وليكن القصاص هدم بيت مكة الذي دفعهم احترامه الى ان يهينوا بيت اليمن .

وبناء على هذا التصميم ارسل الى النجاشي يخبره قصة عزمه ويطلب منه فيله (محمود) ملك الفيلة في الارض واعظمها هامة وجسما وقوة .

وجهز بعدئذ جيشا عرمرما حمل فيه بهم الرجال ثم سار ومعه ملك حمير ونفيل بن حبيب الخثعمي و (محمود) الفيل يؤم الفيلة امام الجيش.

فلما تناهوا الى ضواحي مكة خيموا هناك كقطع الليل الاسود ، وأمر أبرهة ان يغير الجيش على نعم قريش فأغاروا عليها واغتصبوها

واصابوا بينها ابلا لعبد المطلب .

وهال الناس في مكة عزم أبرهة على هدم الكعبة وروعهم جيشه اللجب العظيم الذي وجدوا انفسهم حياله ضعفاء لا طمع لهم بمقاومته او النهوض له ، لذلك سادت فكرة الفرار وتخلية المجال لابرهة يفعل ما يشاء فخلت مكة من اهلها واصبحت بلقعا لا تجد فيها غير عبد المطلب . وعبد المطلب وحده ظل ثابتا لم يفكر بخروج وانما هو مقبل على ابرهة — حين اتصل به خبر الابل — يطالبه بابله التي عدا عليها الجيش المغير .

ورآه نفيل وهو مقبل فأسرع الى أبرهة يخبره بمقدم سيد الوادي .

قال له : ايها الملك اتاك سيد العرب وافضلهم واعظمهم شرفا يحمل على الجياد ويعطي الاموال ويطعم ما هبت الريح (٢٢) . يعده بذلك للقاء سيد العرب .

ويسأل ابرهة عبد المطلب عن حاجته فيقول عبد المطلب (اردد علي ابلي) .

فيقول ابرهة ما ارى ما بلغني عنك الا الغرور وقد ظننت انك تكلمني في بيتكم هذا الذي هو شرفكم .

قال عبد المطلب : اردد علي ابلي ودونك والبيت فان له ربا سيمنعه .

فأمر أبرهة برد الابل . فلما قبضها عبد المطلب قلدها النعال واشعرها وجعلها هديا وبثها في الحرم من غير رقيب في معرض ان يؤذيها احد من هذا الجيش الغريب ، فاذا مست بشيء من الاذى غضب لها الله كما غضب لناقة صالح من قبل (٢٣) ثم اخذ طريقه الى منسكه « غار حراء » ومعه

---

(٢٢) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٦ .

(٢٣) اظن ان عبد المطلب الى هذا قصد وان لم اجد في السير والتواريخ مع هذا التعليل هذه المقارنة يقول ابن سعد في طبقاته لكي يصاب منها شيء فيغضب رب الحرم وما اظن صالحا اولى بالجاه عند الله من عبد المطلب ولا ناقته اجدر بالعطف من نوق عبد المطلب .

عمرو بن عائذ المخزومي ومطعم بن عدي وابو مسعود الثقفي .

وفي هذا المنسك الشريف الذي انبعثت منه القبسة الالهية ونبعت من جوفه مياه الحياة جلس عبد المطلب الى روحيته العالية في هدوء ايمانــه وثبات جنانه ينظر الى هذا الجيش المغرور مبددا شتيتا يطارده الرعب من جهاته الست ، وينظر الى البيت الكريم عــامر البنيان ، مشيــد الاركان ، تطوف به العرب على رغم الحدثان وينظر الى السماء من اعماق ايمانه فاذا لسانه ينطق بما في قرارة نفسه من هذه العقيدة التي كانت سر عظمته .

لاهم ان المرء يمنــع رحلــه فامنــع حلالك (٢٤)
لا يغلبــن صليبهم ومحــالهم ابــدا محـــالك
ان كنــت تاركهم وقبلتنـــا فأمر مــا بــدا لك

ها هو السرب ــ يا لقوة الله وجلال المشهد ــ من الطير القاذفــات لا بالقنابل بل بالاحجار والحصى . كل طير يحمل ثلاثة احجار حجران في رجليه وحجر في منقاره .

وها هي الاجنحة تخفق سريعة من البحر ، تتلاحــق سريعة الى مقر الجيش ، وتحوم سريعة في هذا الجو .

وها هي تصف ثم تنقض على العدو قذفا بالحصى ورميا بالاحجــار فلا تصيب شيئا الا هشمته ولا ترمي حجرا الا نشر في موضعه وباء لكأنــه قنبلة الجراثيم والمكروبات تسري وتعدي ، فكانت الاصابة بهذا السلاح العجيب اصابتين ، اصابة قاتلة ، واصابة بالداء اذا أخطأت الهدف .

تعالى الله ! ومن اقوى من الله حربا اذا خاصم ؟

---

(٢٤) هكذا يرويها كذلك ابن سعد في طبقاته ص ٥٦ جـ ١ ويروي شرح النهج بدل حلالك « رحالك » في ص ٤٦٠ جـ ٣ .

حجر صغير يحمله منقار طير ينطلق انطلاقة الرصاص فيصيب ويميت ثم لا يكتفي بالاصابة المميتة بل يفشي حول اصابته اصابات دائه فيقتل من لم يصبهم مباشرة بمفعول ما يحمله من داء .

هشمتهم الطيور بحجارة من سجيل فتركتهم كعصف مأكول ونشرت فيهم أوباء الجدري والحصبة فاذا انتهت المعركة وأثخن جيش أبرهة ضعفا وتفرقا وضيعة جاء سيل أتي غسل الارض وذهب بالاصابات والجراثيم الى البحر (٢٥) .

أما أبرهة فأول من ولى الدبر وتبعه حثالة جيشه واين المفر والله من ورائهم يسبقهم لحاقا . ولقد انشبت العلة اظفارها بأبرهة فأسقطت اعضاءه عضوا عضوا .

واما الفيلة فقد حصبت فماتت الا « محمود » فانه سلم لانه لم يجرؤ على اقتحام البيت بل ربض لا ينهض ولا ينفع في انهاضه الزجر والاستنهاض .

واما عبد المطلب فقد نزل بعد انجلاء الغبرة من حراء تضيء ثغره ابتسامته وتتهلل نفسه على وجهه الوضاح .

* * *

الزعيم

ذلك عبد المطلب الروحي الذي واتاه من روحيته الممتازة ما جعله ممتازا حقا مسلم الامتياز . وأتاه منها ايضا ان يسلك في الناس جددا

---

(٢٥) طبقات ابن سعد ج ۱ ص ٥٦ .

لا عثار فيه ، ويعلن في هذا المهيع الافيح من ألوان هذه الروحية ما يدخل في الاذهان ان في الوجود قوى فـوق قوى الانسان ، وان هذه القـوى العلوية تدبر ما تشاء فلا ناقض لتدبيرها ، وتقـدر ما تريـد فلا مـاحي لتقديرها ، وان لهذه القوى العلوية ارادة في الحياة غير ارادة هذا الانسان الوضيع بطماحه وامانيه . فلانما تريده هي لغير ما يريد هو لنفسه . وتبعثه هي لغير ما ينبعث اليه . وتدفعه هي لهذه المثل العليا التي كان يدفع اليها عبد المطلب حين كان قليلا وحين صار كثيرا وفي كل حـين من احيـانه ، تدفعه الى ذلك هذه الروحية المستمدة من تلك القوى العلوية التي رآها في يقظته ، ورآها في منامه ، ورآها في كل شيء يقع عليه البصر او يدركه العقل . ومن ذلك اطل على افق العرب بهذه الومضات التي تعـد العرب لذوق الروح وترهفهم لليوم المنتظر لدك الايوان وقلب الاوثـان وامتلاك السلطان .

ذلك عبد المطلب كان تمهيدا لنبوة محمد (ص) وتقريبا للناس مـن آفاق الحياة الروحية التي ستؤسس بروحيتها حياة مادية سامية المادة تلائم النظام والحق والعدل والفضيلة والحرية .

اما عبد المطلب الرجل العربي الزعيم الكريم فله صورة لا تقل حيوية وشخصية وسموا عن صورة عبد المطلب الروحي . فان نفسه تلك لم تفارقه حين كان يسير في الناس زعيما عربيا بل كانت تمد صورته الثانيـة بالرواء والجمال وتضفي عليها الحياة والجدوى ، ومن اجل هذا تميزت شخصيته العربية السمحة بين اجواد العرب ، وتفضلت زعامته بين الزعامات العربية بعناصرها الجامعة المانعة على وجه لا يعرف لزعيم عربي .

ولئن وجد الناقدون لزعامة العرب مطعنا في ناحية من نواحيها فان زعامة عبد المطلب خالية من كل ما يشين لان عبد المطلب بعيد عن كل سوء « لا يجد مبغضه له سبا » كما يقول معاوية وهو ينهى ابنه يزيد عن منازعة

الهاشميين (٢٦) .

بهذا ساد قريشا فلم يطمح الى نزاعه على هذه السيادة طامح الا عاد خزيان اسفا ولئن نوزع في زمزم والادراع والذهب فان منازعيه بخعوا له بعدئذ تسليما وايمانا الا أمية فانه لم ينتفع بما ألقى عليه هاشم من عظة فعاد من منافرته ينافر عبد المطلب ايضا ليعود من منافرته عبدا حقيرا كما عـاد من منافرة ابيه خاسئا حسيرا (٢٧) .

ثم تقحم الغرور بحرب بعد امية الى منافرة عبد المطلب ففاء بما فاء به امية من خسر وانكماش ـ كما حدثناك ـ .

وانه ليؤخذ من المصادر الموثوقة ان هـذه المنافرة لم تقـع غريبـة مستهجنة عند المعاصرين فقط ـ كما رأيت في حكم نفيل ـ وانما هي غرابة تمتلك الاخلاف في الاجيال فان المنافرة بين عبد المطلب وبين حرب منافرة بين طرفين لا يتقاربان ، وبين رجلين لا يلتقيان .

يقول ابو عثمان الجاحظ (والعجب من منافرة حرب بن اميـة عبد المطلب بن هاشم وقد لطم حرب جارا لخلف بن اسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك اليه فمشى خلـف الى حرب ـ وهـو جالس عند الحجر ـ فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراض فما انتطح فيه عنزان ، ثم قام ابو سفيان بن حرب مقام ابيه بعد موته فحالفه ابو الازيهر الدوسي ـ وكان عظيم الشأن في الازد وكانت بينه وبـين بني الوليد بن المغـيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه فجاءه هاشم بن الوليد ـ وابو الازيهر قاعد مقعد ابي سفيان بذي المجاز ـ فضرب عنقه فلم يدرك به ابو سفيان عقلا ولا قودا في بني المغيرة وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك .

---

(٢٦) راجع شرح النهج اخر ص ٤٦٥ جـ ٣ .

(٢٧) ارجع الى ترجمة امية في اول الكتاب .

غدا اهل حصني ذي المجاز بسحرة وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدو
كساك هشام بـن الوليد ثيابـه فأبل واخلـق مثلها جددا بعد [٢٨]

يوثق هذا وما اليه الدلالة على غرابة هذه المنافرة عند المتقدمين من المعاصرين وعند المتأخرين من اللاحقين في العصور المختلفـة . وليس ذلك الا لان امية وآله ليسوا من الصفاة ولا الغرائز ولا المكانة الاجتماعية في شيء تصح زنته بما لعبد المطلب من ذلك .

استجارتـان

ولعل حربا نفسه يعلم وكل آل امية معه انهم ليسوا في مكة من المنعة الاسرية ولا المنزلة الاجتماعية هناك فقد اضطر حرب ان يلوذ بعبد المطلب لاجئا اليه حين ضاقت الدنيا عليه من طلب الزبير له ولم يجـد في مكة من يمنعه من (ابي الطاهر) الزبير بن عبد المطلب او يجيره غير ابيه .

وحديث ذلك ان العرب كانت تدين لقريش بالتقـديم وتعترف لهم بالامتياز ، وكانت قوافلها اذا مرت بمضيق العقبة ــ وكان فيها قرشي ــ تأخرت حتى يكون القرشي اول عابر في هذا المضيق .

وكان حرب في سفر يجتازون العقبة . وكان فيهم ايضا تميمي من بني حاجب بن زرارة ، وكان التميمي ادنى الى العقبة من حرب فمضى يجتاز المضيق غير عابىء بوجود حرب كأنه استشعر صغـارا في نفسـه ان تأخر وحرب عنه بعيد [٢٩] .

---

(٢٨) انتهى كلام الجاحظ راجع شرح النهج ج ٣ ص ٤٥٧ .
(٢٩) قد يكون التميمي بهذا غير معترف بقرشية حرب .

وعز على حرب هذا التجاوز على شرف العرب في تقديم قريش ورأى فيه تحديا لكرامته خاصة فتنحنح لعل الرجل كان ساهيا او لعله كان جاهلا مكان حرب في المسافرين واعقب التنحنح ان عرف نفسه بصوت جهير « انا حرب بن امية » ولكنه يتلقى جواب فعله بمثله فيتنحنح التميمي ويعلن بصوت جهير ايضا انه (ابن حاجب بن زرارة) فخورا بكرامة هذا النسب الكريم ثم يمضي قدما ليسبق الى اجتياز المضيق .

فيقول حرب منكرا : لا والله لا تدخل بعدها مكة وانا حي .

وتنتهي هذه الحادثة عند هذا الحد ولا تتجاوز هذا الختام ، ولكن هذا الوعيد من مكي من شأنه ان يخيف غريبا عن مكة وان يصده عنها ومن هنا امتنع التميمي زمنا لا يزور مكة ولا يلم بها ولكن مكة يومئذ بلد لا يستغنى عنه فهي بلد للدين وللتجارة معا ولا بد للناس منها لينتفعوا من متاجرها ان استغنوا عن معابدها .

يحار التميمي بهذه المصيبة ويضيق بهذا البلاء ، من له بمكة ؟ فهو غير مستطيع ان يهجرها ، وكيف يدخلها وقد اساء . اساء لا لحرب فقط وانما اساء الى قريش بتقدمه الى مضيق العقبة ، وحرب سيثير عليه حربا قرشية لا حربا شخصية يؤلب عليه فيها حمية القرشيين الذين اساء اليهم بخروجه على عادة تميزهم وترفع قدرهم على اقدار العرب ، فماذا هو صانع وما الحيلة في الوصول الى مكة ؟

ويستشير اصحابه فيشيرون عليه ان يستجير بسيد قريش او بابنه الزبير .

نعم هذا هو الحل المفرج .

يركب ناقته مغذا في السرى حتى يصل الى مكة في هزيع من الليل فيقف على باب الزبير ينيخ راحلته ويحط رحله لدى اعز الناس جارا واحماهم انفا ، فاذا ورغت الناقة وملأت الجو ببثها خرج الزبير بنجدته وفتوته وكرمه يقول : « امستجير فتجار ام طالب قرى فتقرى » ؟

فاذا الضيف يندفع بقواف حسان مشرقة تقص على الزبير حادثة العقبة وتلتمس العذر في اجتيازه مضيقها ان تحداه حرب وانه الكريم في أسفاره كلها وقد ابى له كرمه الا ان يرد التحدي بمثله ، فاذا مضى في ابائه فان حربا مهدده ومانعه ان تقر به دار في مكة ، ولكن التميمي داخل الى مكة غير آبه بتهديد حرب ومستقر بأقر دار ، هذه الدار المنسوبة الى « الهزبر المجير الرحب المباءة » فان صاحبها مانعه بمهند صافي الحديدة صارم بتار .

اسمعوها من فم التميمي فانها اعذب قصصا واعلى جرسا وأرق ألحانا .

لاقيت حربا بالثنية مقبلا — والليل ابلج نوره للساري
فعلا بصوت ، واكتنى ليروعني — ودعا بدعوة معلن وشعار
فتركته خلفي وجزت امامه — وكذاك كنت اكون في الاسفار
فمضى يهددني ويمنع مكة — ان لا احل بها بدار قرار
فتركته كالكلب ينبح وحده — واتيت قرم مكارم وفخار
ليثا هزبرا يستجار بقربه — رحب المباءة مكرما للجار
وحلفت بالبيت العتيق وحجه — وبزمزم والحجر والاستار
ان الزبير لمانعي بمهند — صافي الحديدة صارم بتار

فيقول له الزبير : اذهب الى المنزل فقد أجرتك . فيذهب الى قرى ورغادة وكرامة وينام ألذ نوم وامتعه بالهدوء والامن والراحة حتى اذا أصبح الصباح خرج الزبير ومعه اخوه الغيداق بسيفين طويل نجادهما ماضية شفرتما ، وامر الزبير ضيفه ان يمشي امامهما فانهم اذا أجاروا احدا لم يتقدموه احتياطا له وحرصا عليه ألا يؤخذ من خلفهما على غرة .

ولما رأى حرب خصمه يدخل المسجد صرخ منكرا وانك لهاهنا ؟؟

وعدا نحوه مسرعا لا يتريث فلم يمهله ان لطمه ، فصاح به الزبير :

اتلطمه ـ ثكلتك امك ـ وقد اجرته ؟

وكان حرب ـ والزبير يتكلم ـ يهوي على التميمي بلطمة ثانية ، فترك الزبير عندئذ الكلام للسيف وامتشقه لامعا كالبرق ، يضحك للموت وخطا الى حرب يعمه بضربة لم تتعود ان تعود بغير حصيد ، فيلوي حرب مذعورا وينكص على عقبيه فارا يسابق الريح وخلفه الزبير يحاول ان يلحق به ولكن حربا كان يطير على اجنحة من الرعب والخوف فاذا التوت به الطريق ووارته التعاريج والمنعطفات عرف ان الملجأ في هذا البلد واحد لا غيره وان عليه ـ ان احب السلامة ـ ان يعوذ بمن اعاذ خصمه التميمي فيلجأ من الزبير الى ابيه .

دخل حرب دار عبد المطلب لاهثا يبين الرعب والتعب في صوته المتقطع وانفاسه العالية المتوالية ويظهر عليه الانكسار واللجوء فيقول له عبد المطلب ما شأنك ؟ فيجيب باختصار « الزبير » فيأمره بالجلوس ويكفأ عليه جفنة الثريد التي كان هاشم يطعم بها فيجلس تحتها في أمن يستعيد راحته ويرسل انفاسه بفتور يجد فيه أنسا ولذة .

اما الزبير فقد انضم اليه بنو ابيه واصطفوا على باب الدار ينتظرون خروج حرب واجتمع اليهم الناس من هنا وهناك يتساءلون ما خطب أسياد مكة ؟

وبينما بنو عبد المطلب على اهبة ينتظرون والناس مجتمعون ليشهدوا مصرع حرب واذا بحرب يخرج مطمئنا هادىء السرب واذا بأشبال شيبة الحمد صادفون لا يهمون به واكثر ما يصيب حربا منهم نظر شزر ثم تغافل يتيح له النجاة .

كيف خرج من بينهم آمنا وانهم لينتظرونه ليقطعوه ؟

نعم ، قد خرج مجارا يلتف بازار يعرفونه لأبيهم ويتردى برداء

لعبد المطلب له طرفان ينعطفان عليه ويمنعانه بما يرمزان اليه من اعـلان الاجـارة .

* * *

مثالان اخـيران

واحب ان اختم كلامي بمثالين صغيرين يلمحان الى مكانته في العزة والعطف . كان عبد المطلب على امتداد جسمه المنسجم المتناسق معتـدلا رشيق الاعتدال لم تحنه السنين الطويلة وان شاخ وكف بصره .

وكان مرة يطوف ، وبينما هو في طوافه زحمه رجل ، فقال من هذا ؟ فقيل له : رجل من بني بكر ، فقال : فما منعه ان ينكب عني وقـد رآني لا استطيع لان انكب عليه ؟

ثم مضى واحس من هذه الحادثة بالحاجة الى العصا وكان لا يستعين بها قبل ذلك ، ولكنه ـ مع ذلك ـ تردد في حملهـا لانها تشـق عليه اذا طالت وينحدب لها ظهره اذا قصرت، وثاني المحذورين اشـد مشقة واكبر اعناتا له لان الحدبة ذل ـ كما يقول ـ فماذا يصنع ؟

يخرجه بنوه البررة من هذه الحيرة وينتدبـون له كل واحـد منهم يختص بخدمته يوما فيكون بين يديه بمثابة العصا يتكىء عليه ويستعين به.

احب ان تعنوا من هذه القصة عناية خاصة بحرصه على الا ينحدب ظهره وبهذا التعليل « والحدبة ذل » .

* * *

وكان عبد المطلب مقبلا ذات يوم من الطائف ومعـه ابنه ابو لهـب يقود به فلقي في طريقه ركبا من جذام صادرين عن الحج في مكة ، وكانوا

قد فقدوا رجلا منهم أعلى مكة ، ووجـدوا في طريقهم حذافة العـدوي فأتسروه عوضا عن فقيدهم ، وكان من حسن حظ حذافة ان لقيه عبدالمطلب فانه حين بصر به حذافة مقبلا استغاث به فقال لابنه : ويلك من هذا ؟

قال هذا حذافة بن غانم مربوطا مـع ركب ، فأمره ان يلحـق بهم ويسألهم عن خبر حذافة ، ثم امره ــ حين عاد اليه بالخبر وعلم ان لا مال عنده يفدي به حذافة ــ ان يلحق بالقوم ويربط نفسه مكان حذافة ويطلق حذافة من اسره ، فيمضي ابو لهب لما امره به ابوه ولكنه يتلطف بالركب ويعرفهم بنفسه وبتجارته فلا ينكرون عليه شيئا ، ويعدهم بعشرين أوقية ذهبا وعشر من الابل وفرس ثم يرهن عندهم رداءه ويعود بحذافة الى ابيه.

سمع عبد المطلب صوت ابنه عائدا ولم يسمع نبأة لحذافة فهتـف بـه مؤنبا :

وابي انك لعاص ارجع لا أم لك .

قال : يا ابتاه هذا الرجل معي .

فناداه عبد المطلب : يا حذافة اسمعني صوتك .

قال حذافة : ها انذا ــ بأبي انت وامي ــ يا ساقي الحجيج اردفني .

فأردفه حتى دخل مكة .

وانشد حذافة الابيات التي قرأناها في ترجمة هاشم .

* * *

وحسبنا مما بسطناه دليلا على ان عبد المطلـب كان وحده امـة لا تعدلها من الرجال ، وبرهانا على انه وحده كان جيـلا ممتازا في الاجيال ، وحسبنا من كل ذلك دليلا على هـذا الذي نحن بسبيله من اثبات هـذه الذحول المزمنة والحسد القديم في بني اميـة للهاشميين ، هذا الحسـد الحاقد الذي اثاره في الاسلام حين وجـد الطريق الى بل غلته واشبـاع نهمتـه .

موازنة عامة

من اعاد النظر الى صـــور هاشم واميـة متقابلة ، وجدها متناقضـة متضادة تتـدابر الفاظها ومعانيها وتتعاكس أغراضها ومراميها.

وجد ازاء كل جمال في هاشم دمامة في امية وازاء كل حسن قبحا وازاء كل تمام نقصــا يقابله ويوازنه فيما هو فيه من مضادته ايـاه ومعاكسته له .

ما أحب الي ان اطوف بأعلام هذا البيت الكريم فأقف الى كل جهبذ منهم وقفة خاصة كهذه الوقفة التي وقفتها بين يدي عمرو العلاء وكهـذه الاخرى التي وقفتها بين يدي شيبة الحمد فتكون لي وقفة بين يدي شيخ الاباطح وأمثالها بين ايدي الزبير وحمزة والعباس وجعفر ومن اليهم مـن أزيان الدنيا ومصابيح الهدى .

ما احب ذلك الى نفسي وما اولاه عندي ، وسألم به الماما لا يخرجني عما انا بسبيل منه في هذه الموازنة العامة ، وسأطوف حـول بيوت هؤلاء السادة طوافا يجمع بين واجبي البر والبحث .

واذا كانت انما تتميز بضدها الاشياء فان الموازنة صحيحة بين هذين النفرين لا نأباها كما لم يأبها من تقدمنا ممن عني بأمر هذين البيتين .

ولعلكم اجد عهدا من ان تنسوا هاشما وصوره وعبد المطلب وصوره وامية وصوره وما جاء لحرب في اثناء ذلك من صور وما جـاء لعبد الله كذلك من صورة تشير الى ما بقي من صوره الزواهر وملامحه المشرقات .

ومن اعاد النظر الى هذه الصور متقابلة وجدهـا متناقضة متضادة تتدابر الفاظها ومعانيها وتتعاكس اغراضها ومراميها .

يجد ازاء كل جمال في هاشم دمامة في امية وازاء كل حسن قبحا وازاء كل تمام نقصا يقابله ويوازنه فيما هو فيه من مضادته اياه ومعاكسته له .

واذا تجاوزنا هذا كله فلننظر في مقاييس الشرف في الجاهلية واسبابه ووسائله التي بها يعلو وتتفاضل درجاته ، ثم لننظر في اي الحيين تتوفر هذه الاسباب والوسائل وتنطبق تلك المقاييس العادلة .

* * *

عـــرض

كانت ظواهر العربي في الجاهلية تميزه وتطبعه على اخلاق وتشتقها له من حياته فتمتشقه منها اريحيا كريما مرهفا قوي الاحساس .

والحياة العربية وان كانت اشباها متماثلة الصور في نواحيها واوطانها فانها ــ مع ذلك ــ تختلف ببعض الخصائص الاقليمية وتتباين ببعض الاوضاع المحلية ، ولعل من السهل ان نفسر هذا بارجاعه الى سنة الحياة نفسها التي شاءت ان تتأثر بالامكنة والازمنة ، والاهوية والامواه وبكل هذه العوامل التي تسهم في انشاء الاحياء وتكوينهم .

ففي الحياة العربية ــ اذن ــ جهة اتفاق وجهة افتراق .

اما جهة الاتفاق فهي انهم خاضعون لنواميس وتقاليد عامة موروثة في الاجتماع والعيش والاخلاق .

واما جهة الافتراق فهي هذه الظواهر الخاصة التي ندعوها اختلاف الموطن وربما كان الاختلاف شكليا تبدو غيريته في المظهر والزي والاسلوب ثم يرد الى وفاق في الجوهر والواقع ، فالبدوي مثلا يختلف عن المدني بمظاهر من الحياة لا تمنعه ان يوافقه في جوهرها وكذلك نقول في التخالف

بين الحجازي واليماني والتهامي وبين غـيرهم ، فهم مختلفون على هـذا النحو وبنفس العوامل التي اقتضت اختلافهم في اللغة .

وقد قلنا ان في الحياة العربية مثلا عليا لا تخضع لعوامل الاختلاف فيها جهات انسانية عامة لا تعترف بالاقـاليم والمساكن والاوطان ، فالكرم او الشجاعة او النجدة او الاحسان او الحفاظ والاباء او ما الى هـذا من الاخلاق الطيبة كان كله حميدا عند العرب كلهم وهكذا لهم في نقيض ذلك اخلاق يذمونها ويمجونها ويأنفون منها ، ولكن ليس معنى وجود اخلاق يحمدونها، واخرى يعيبونها انالعرب كلهم يحتذون ما يحمدون ويجانبون ما يعيبون، لا : ووجود الحمد والذم دليل على ان بعضهم كان يأتي ماكانوا يذمون وان بعضهم كان يتحلى بما حبب اليهم من الصفات . وليس الناس في الهدى وحب الخير سواء ، ولكنهم في معرفته سواء الا من اشتبه عليه المصداق والتوى به التفسير .

وفي الحياة العربية ــ فوق ذلك ــ ألوان لم تكن عامة العرب تعرفها ولا تذوقها لانهم منقطعون عنها ولان الدنيا كلها يومئذ كانت في فترة لا تتصل بهذه الالوان ولكن العرب كانوا يستطيعون ان يعجبوا بمن يعرض عليهم من هذه الالوان الغريبة وان يحبوه، وان يضعوه في نفوسهم موضعا ممتازا ما داموا في عافية منه على ما هم مطمئنون اليه من تقليد وحياة .

ولنوضح غرضنا بالمثال :

انظروا الى هاشم ثم الى عبد المطلب ثم الى محمد قبل البعثة هؤلاء جاءوا بألوان غريبة عن الحياة العربية المألوفة فأكبرهم العرب واحبـوهم ووضعوهم منهم موضعا ممتازا حقا ، ولما اراد محمـد (ص) ان يفرض عليهم هذه الالوان وان يمس ما استراحوا اليه من حياة ابوا عليه ذلك اول الامر اباء عظيما منكرا .

وفي كل حال فقد كان حظ الخير في الجاهلية من الناس حظـه في كل

جيل من ناسه ، يعرفه الناس ولا يأتونه ـ الا نفر منهم ، ثم تصير عامة الناس الى نزعاتها ووثباتها لا تبالي ما توقن انه الخير بل تدين بما تعلم ان الخير في الكفر به .

في المعرض

وبعد فنحن حين نوازن بين هاشم وبين امية فانا نرى لهذه الاخلاق نصيبا من الموازنة ففي اي صف من صفوف هذه الاخلاق كان الهاشميون وفي ايها كان الامويون ؟

ان هاشما وآله كانوا مجمعا تتلاقى عنده الصفات العربية الممتازة التي كان يحبها العربي ويمدحها ويؤثر من تحلى بها ، وكان ينضاف اليهم عدا هذه الاخلاق المشهودة المشكورة اخلاق اخرى لم يعرفها الناس الا بهم ولم يجدوها الا فيهم فكانت الى الناس احب من اخلاقهم واجدى على الناس مما عرفوا من تراث آبائهم .

اما الامويون فقد كانوا من هذه العامة الجهلاء ينساقون بعصا من شهوات انفسهم ودافع من طغيان المادة التي توثقهم حبالها وتستهويهم حبائلها .

لم يعرف الناس للامويين في الجاهلية شجاعة ولا رأيا ، ولم يعرفوا لهم كرامة ولا عزة ولم يعرفوا لهم حفاظاً ولا جوارا ثم لم يعرفوا لهم نبلا ولا عفة ، وانما كانوا المثل الصحيح للجاهلية في أوضارها وأوزارها وموبقاتها .

يقول ابو عثمان الجاحظ (١) : ليس لهم قدم مذكور ولا يوم

---

(١) شرح النهج ص ٤٦٨ .

مشهور فلا سابقة ولا جهاد فاذا كان شيء من هذا فانما يكون فيما يضر النـاس .

ويقول عبد الله بن الزبير : انا والله ما نموت حبجا كما يموت آل ابي العاص ، والله ما قتل منهم قتيل في جاهلية ولا اسلام (٢) .

ولم نر فيما يتحدث به عنهم الموثوقون من النسابين والمحدثين مـا يثبت لهم كفاية لهذه الصفات النفسيـة الرفيعـة التي كانت تبهر العرب وتهزهم بأريحياتها ، وجل ما عرف عنهم انهم مغمورون بضلالات جاهليتهم وعماياتها فلا يشيرون لمعوز بنائل ولا يظن بهم العفاة انشراحا لرفد وانما هم موزعون بين مقل مهمل وبين مستغن ضنين ، فالعطاء والشمم والحفاظ والعفة والمنعة وكل هذه الصفات المحببة مفاهيم غريبة في حياتهم الجاهلية نادرة في أذواقهم .

واذا كان الحكم على الكل انما يبتني على ملابسـة الافراد وتقصي الاجزاء والآحاد ، فانا انتهينا الى حكمنا هـذا على الامويـين من بحث افرادهم وتعرف دخائـل اكثرهم ألم تروا الى عهار اميـة وضعفه والى دياثته ولؤم طباعه ؟

ألم تروا الى حرب فتى الامويين ــ كما كانوا يريـدون ان يكون ــ يستخذي للطمة خلف بن سعد في غير تحاكم او تراض ؟ ألم تروا اليه يفر بين يدي الزبير ويلوذ بعبد المطلب ؟ وكان مضافا الى هذا يمالىء بني سهم على عدوانهم ، فيدفع هو الى العدوان على ضعفاء الملمين بمكـة ويبتزهم بضائعهم واموالهم ، ومن ذلك انه اغرى اناسا بقتل رجل يهودي ليستولي على ماله ، وبعد ان قتله اتصل النبأ بعبد المطلب فغضب لذلك وارغمه على

---

(٢) البلاذري في انسـاب الاشراف وشرح النهـج جـ ٣ ص ٤٧٢ ويلاحظ الجاحظ ــ كما في شرح النهج ــ ان ابن الزبير لم يعتبر قتل معاوية ابن المغيرة وعثمان بن عفان قتلا لانهما لم يحاربا .

دفع الدية فأخذ منه مائة ناقة ــ وهي الدية التي فرضها عبد المطلب فكانت سنة متبعة ــ فأعطاها لاهل القتيل (٣) وكانت هذه الحادثة سببا في المنافرة التي عرفنا نتيجتها فيما تحدثنا به سابقا .

ألم تروا الى ابي سفيان لا يحمي جاره ولا يأنف لحليفه ــ وقد قتل في مكانه ! فيجبن ويذل ولا يدركَ في ابي الازيهر الدوسي من هشام بن الوليد بن المغيرة عقلا ولا قودا ؟

هؤلاء اعلام الامويين وهم كما ترون ، فاذا عدوناهم الى غيرهم من بني امية فانا واجدوهم على هذا القياس لا يخرمونه ، ولعلنا نستطيع ان نستثني واحدا من الامويـين في بعض نقائصهم ، واعني بـه ابا احيحـة سعيد بن العاص بن امية فقد كان ذا حظ من الكرامة والحفاظ والاريحية ، ولكنه كان ــ بعد ذلك ــ جاهليا يندفع مع المندفعين الى رذائـل النفس قوي الشكيمة جامح القياد ، وكان جاهليا محافظـا على جاهليته رجعيـا اشد ما تكون الرجعية ، ادرك الاسلام اول ظهوره فكان من ألد اعدائه ، وانكر خصمائه ، دخل عليه ابو لهب وابو جهل في مرضه الذي هلك فيه فوجداه يبكي فسألاه عن بكائه فقال :

(ما ابكي جزعا من الموت ولكن اخاف ان يعبـد اله ابن ابي كبشة بعدي فأبكي على « العزى » ومفارقتها) (٤) .

واسلم ابنه خالد رحمه الله قبل موت ابيه فعذبه وطرده ثم حرمه من الارث ولقي خالدا ابو سفيان فسبه وأنبه وقال له ! انت غـلام لو بسط عليك العذاب لاقصرت .

وقتل لابي أحيحة على الكفر في بدر ولدان حفظا اباهما في دينـه

---

(٣) دائرة المعارف للبستاني في ترجمة حرب .
(٤) ص ١٢٤ جـ ٤ من انساب الاشراف للبلاذري .

وهما العاص بن سعيد قتله علي امير المؤمنين وعبيدة قتله الزبير [٥] .

تجاوز هؤلاء فانك لا تجد بعدئذ من يدخر الفخر .

اذكر ان شئت عفان فانك ستذكر معه قول القائل :

عفــان اول حائــك لثيـــابكم قدمــا وقد يدعى أخا الاشرار [٦]

واذكر من عقبه ــ استثني عثمان ــ من لا تتناسب اخلاقه والكرامة ولا تلائم سيرته الفضيلة والشهامة .

واذكر ان شئت الحكم فانك ذاكر يومئــذ الوزغ ابا الوزغ ــ على حد تعبير النبي ــ وذاكر معه لعنة رسول الله عليــه وطرده اياه الى بطن « وج » [٧] انك تذكر معه « المخلج » و « الحاكي » هذين اللقبين اللذين لحقاه لانه كان يمر خلف النبي فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه فعــل السفهاء والاوباش من الناس ويراه النبي مرة فيقــول له (كن كما انت) فيبقى على تخلجه وتصبيه خبلة [٨] .

وانك لتذكر مع الحكم قول حسان بن ثابــت يصف فقره وقلتــه وذلتــه :

لقد انصرتكم عــن غــير بعــد ومــا تلقــون في بيــت بساطــــا

---

(٥) لعل ابن الزبير لم يعتبر هذين من الشواذ التي لا تنقض من عموم الحكم او انهما دفعا بثورة العرب على الاسلام فما حاربا لكرامة خاصة ومــا ادري كيف اغفل الجاحظ هذين في تعليقه على كلمة ابن الزبير .

(٦) انساب الاشراف ص ١٧٠ جـ ٤ .

(٧) انساب الاشراف جـ ٤ ص ١٧٠ .

(٨) انساب الاشراف الجزء الخامس ص ٢٧ وص ١٢٥ وشرح النهــج جـ ٣ ص ٤٦٩ .

وكان ابي لكم في الدهر نكـلا وفي الاسـلام كنت لكم علاطا (٩)

وتذكر قول عبد الرحمن بن حسان فيه يخاطب ابنه مروان :

ان اللعـين ابـاك فارم عظامـه ان تـرم ، ترم مخلجـا مجنونـا
يضحي خميص البطن من عمل التقى ويضل من عمـل الخبيث بطينا (١٠)

وتذكر قول النبي (ص) وقد استأذن عليه الحكم فقال ائذنوا له لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه (١١) .

وتذكر قول النبي (ص) فيه ايضا وقد اطلع عليه في حجراته (مـن عذيري من هذه الوزغة) ؟! ثم لعنه وسيره مع بنيه جميعا الى الطائف (١٢) فظلوا منفيين طوال ايام النبي (ص) وايـام ابي بكر وايـام عمر فلما ولي الامر عثمان ردهم فنقم عليه الناس لارجـاعهم وكان احـدى الحجج في قتله وخلعه (١٣) .

وان شئت فاذكر معاوية بن المغـيرة تذكر طريـدا ثانيا طرده النبي واجله ثلاثة ايام فاذا وجد بعدها في المدينة او حولها قتل ، فتريث يسترق الاخبار ليعود بها الى قريش حتى انتهى الاجل فقتله النبي (١٤) .

واذكر ان شئت ـ عقبة بن ابي معيط ـ فانك ذاكر رجل فسق وابا لاغرار من حطب النار .

---

(٩) انساب الاشراف الجزء الرابع ص ١٨٠ .
(١٠) الانساب الجزء الخامس ص ١٢٥ .
(١١) الانساب جـ ٥ ص ١٢٦ .
(١٢) الانساب جـ ٥ ص ١٢٥ .
(١٣) الانساب جـ ٥ ص ٢٧ وشرح النهج جـ ٣ ص ٤٦٩ .
(١٤) شرح النهج جـ ٣ ص ٣٩٨ وص ٤٥٢ .

امر النبي ان يقتل صبرا فقال : من لهؤلاء الصبية ـ يعني اولاده ـ يا محمد قال : النار [١٥] .

هذه صفحة من تاريخ امية تذكرك بتاريخ المثالب الجاهلية وحسبنا منها ان تثبت انهم خفاف في ميزان الانفس الصافية والمزايا الراجحة ، وليس من اغفلنا منهم بخير ممن ذكرنا ان لم يكن المذكورون خيارهم ، وعهدهم بالاسلام ليس بأفضل من عهدهم الجاهلي في الواقع لولا ما اصابوه من حظ .

اما الهاشميون ـ نضر الله وجوههم ـ فلهم من الحياة الفضلى ما يثبت انهم المثل الكاملة في كل قياس من اقيسة الفضل والتقدم .

رأيناهم سباقين حين احصينا هذه المقاييس التي كان العربي بها يقيس الشرف والفضل والسبق ، فلا يعدلهم الامويون في هذه الموازين بمعنى من معاني العروبة الخالصة في كرم او حفاظ او جوار او شجاعة او قوة او احسان او حمية او اباء أو زعامة او ما الى ذلك مما تدين به العرب وتجله.

واذا تجاوزنا ذلك الى موازين الاعمال والآثار واقيسة النفع والجاه ، فان الامويين مخفقون كذلك لا يسجل لهم التاريخ عملا نافعا ولا اثرا صالحا ، ولا ترشحهم الحياة لمركز من المراكز المشرفة في تاريخهم الجاهلي.

وللهاشميين من كل ذلك محل القيادة ومكان القدوة هم اصحاب الايلاف والرحلتين وهم اصحاب الرفادة والسقاية وهم اصحاب زمزم وحلف الفضول وهم اصحاب التشريع والتنفيذ والسنن السمحة الغراء في جاهلية مسلمة تتوافر على كل خير يعود على الناس بنعم الاقتصاد والاجتماع والاخلاق والنظام على نحو كانوا فيه النواة الصالحة ليوم كيوم عظيمهم الكريم (ص) .

---

(١٥) شرح النهج جـ ٣ ص ٤٥٢ .

اولئك هم الهاشميون كيــف واجهتهم بقياس من اقيســة الفضــل وجدتهم الراجحين .

واحب ان افصل ذلك تفصيلا ألمــه من تراجم افرادهم فأقف لكــل مزية فيهم عند صاحبها لتكون أملأ للنظر وأهنأ للنفس كما تكون الثمرة اليانعة على غصنها الغض والزهرة الباسمة على قدها الاهيف .

أبو طالب

... ووالله ان جنة ابو طالب لا يدخلها
ـ وانه من ازيانها ـ لجنة مقفرة جديبة لا
يدخلها صالح ابدا ، وان نارا ابو طالب يأوي
اليها ـ وانه ابعد احد عنها ـ لنار مباركة
خصيبة وانها اذن مأوى للابرار والصديقين .

كان ابو طالب زعيم البطحاء وغيث السماء وثمال الارض فهو في مكة نبعة الخير يجاري اباه وجده في كل ما امتازا به من خصائص وملامح .

تسنم الزعامة الكبرى في غير مال ولم يكن ميسورا لعربي ان يتزعم في غيرة ثروة ، ولكن لابي طالب من قوة النفس ومتانة الاخلاق ما فرضه على مكة زعيما لا يعدل به ولا يعدل عنه .

كان له علم ورأي وتشريع . سن القسامة فأقرها الاسـلام بعد [1] وحرم على نفسه الخمر والموبقات وما في الجاهلية من آثـام وسيئـات ، ودرج طوال حياته لم يؤخذ عليه قول ولم ينتقص بفعل ولم يذمم بعهد .

هذه خلاصة من ضوابط ابي طالب وصفاته وكل واحد منهـا يصلح ان يكون مفتاحا لشخصية عظيمة يعلن السر الذي رفع ابا طالب ـ مـع اقلاله ـ على سروات قريش واهله هاشم من اخـوته وبني ابيه ايضـا ، ولم يكن بالامر الهين ان يسود وفي مكة من الاسياد من يطمح الى السيادة وتتوفر لديه اسبابها ومقوماتها على نحو لو قوبل برجل غير ابي طالب لبذه

---

(١) شرح النهج جـ ٣ ص ٤٦١ .

ورجح عليه ، ولكن ادوات ابي طالب الفذة صاغت له زعامة فذة لم يعهد لها نظير ، فكانت فردة في دنياها ومعناها كما كان فردا في دنياه ومعناه .

ولم تكن ادواته الى الزعامة غير هذه الادوات الهاشمية من صدق في النية واخلاص في العمل . وتضحية في المصالح العامة وعلو في النفس واريحية في الطبع وتعال عن دنيات الجاهلية وارجاسها مضافا الى كرم جعل ماله منهوبا . وهيبة جعلت جانبه مرهوبا ، وخلق جعل شخصه محبوبا .

بهذا ، بأنه من وهاد الجاهلية على ذروة ناشزة يشرف عليها ولا ينحدر اليها ، بهذا علا ورفعه الناس راضين مذعنين لانه كان بالحس والعيان أرفع رجل في مكة واهدى زعيم في العرب .

نعم كان في بني ابيه نفر مياسير يربون عليه في الثروة ويجرون في حلبته مستقلين الطريق الى ذروته ولكنه كان اولهم وادلهم واولاهم بالقيادة لانه كان يربي عليهم بثروته النفسية .

وكانت فيه روحية من ابيه يراها الناس فيه منضمة الى ما يرونه من معانيه الواضحة ، فكانوا ـ من اجل هذه الروحية الملموسة ـ يتيمنون به ويجدونه مددا معنويا يستوحون منه القوة والظفر .

من ذلك انه كان في حرب الفجار مدار النصر . فاذا حضر ظهرت قريش وغلبت . واذا غاب تضعضعت مراكزها ولانت مغامزها (٢) وبعد تجربة ذلك وملاحظته رغبوا اليه الا يغيب عن مواقعهم ما دامت الحرب فشهدها وتكللت قريش منه بنصر عزيز .

دفاعه عن الاسلام

كل ذلك يسره بمشيئة من الله وأعده ليشد عضد النبي ويمهد له

---

(٢) شرح النهج جـ ٣ ص ٤٦٢ .

بنفوذه وجاهه ان يمد ظل الاسلام ويصدع بالرسالة .

فورث من ابيه كفالة محمد (ص) وحدب عليه يربيه ويؤثره حتى كان عنده اعز احد عليه واحب الناس اليه .

ولما بعث النبي وقوبلت دعوته بالرفض والاباء ثم بالجهاد والعدوان، نصره ابو طالب وذاد عنه عادية قريش وغلواءها فكان النبي منه ـــ ما بقي ابو طالب ـــ في مأمن حصين وحصن امين .

وكانت له في الذب عنه مواقف خالدة ، وقف فيها زعامته وعقله وادبه على حماية الرسالة ، ثم طوع ولده وحاشيته وعشيرته لنصر النبي ، وكان يمدحه ـــ على انه هو الزعيم ـــ بما لا يكون الا من التابعين للمتبوعين والا من الرعايا للاسياد والمالكين ، يرتجل في ذلك القصائد ارتجالا وينشئها قصارا وطوالا ، ويمضي النبي منه ـــ باسم الله في دعوته ـــ محميا مرهوب الجانب منيع الساحة يتلو فرقانه ويؤسس بنيانه .

هذا موقف لابي طالب لو وقفه اهل السموات والارض لكان كل واحد منهم بطلا منقطع النظير في البطولة ، وانه لموقف ليس اعظم منه غير موقف النبي نفسه وموقف علي بعده لانه موقف لا يستمد عظمته من الحفاظ او الحمية فقط كما كان يحمى كثير من العرب لذوي قرباهم .

لا . وعندي على ذلك شواهد اكتفي منها بشاهدين اثنين .

نعم لو كان ابو طالب انما حمي لابن اخيه فمنعه وحماه لمجرد الحمية فلماذا لم يحم له ابو لهب وانه لعمه وذو رحمه الواشجة القريبة وانه الى ذلك غني منيع له في قريش مهابة ورياسة ؟

على ان للمبادىء والعقائد احكاما لا تقبل معها شفاعة قرابة ولا وساطة رحم فلو اختلف الآباء والابناء في عقيدة او مبدأ لتناحروا من اجله واستباحوا في سبيله كل محرم من عقوق ودم وجفاء ومصاولة ، والدليل على هذه الحقيقة تمرد ابي لهب واشقاقه مع المتمردين على ابن اخيه ، فلو

ان ابا طالب كان على هذا الرأي لمالأ أخاه ابا لهب على محمد ابن اخيه.

ثم لو كان ابو طالب انما منع محمدا للحمية وحدها من غير ايمان ولا عقيدة فما باله يمدحه كأحد أتباعه ؟ وما باله يزعمه وانه ليتيم اخيه ومكفول عنده ؟ وما باله يفرض على اولاده وعلى الماتين اليه بنسب او سبب ان يتبعوا محمدا ثم يعلل لهم هذا الامر بانه لا يقود الا الى خير ولا يدعو الا الى حق [3] .

موقف ابي طالب بحكم هذين الشاهدين وبحكم الف شاهد وشاهد غير هذين لم يبتن على الحمية والحفاظ وحدهما وانما ابتني في معظمه على الحق الذي رآه وعلى الايمان الذي استفاض به وعلى المصلحة التي لمسها.

هذه هي العظمة التي ترفع موقف ابي طالب فتجعله يشبه موقف محمد وعلي .

فاذا كان صاحب الرسالة التي نقلت الانسانية من اجم الضراوة والوحشية الى واحات الحضارة والمدنية .

واذا كان علي الفارس الاول الذي رفع راية الاسلام وحماها بذباب السيف وذؤابة الرمح .

فان ابا طالب هو الحادي الذي هدهد الرسالة في مهدها ورباها حتى ترعرعت وايفعت وقامت على سوقها عبلة الذراع مفتولة الساعد قوية الأسر .

والحق ان ابا طالب لم ير في حماية النبي غير ما رآه النبي في رسالته من احياء الحق وبعث النظام وانشاء الحدود بين الانسان السخيف والانسان المفكر ، وبين المدنية الفوضوية والمدنية المنظمة وبين الاجتماع

---

(3) قال ابو طالب لابنه علي في بعض حديثهما : « أما انه ـ يعني محمدا ـ لا يدعوك الا الى خير فالزمه » راجع شرح النهج ص ٣٠٥ ج ٣ .

المتفسخ والاجتماع المسبوك .

هذا مصدر عظمة ابي طالب في موقفه . ولقد رأى ابو طالب انـه ان كان عاجزا عن اداء الرسالة العظمى فليكن احد جنودها بين يدي رسولها العظيم ، ولتكن زعامته وادبه وعقله وعشيرته من الاسلحة التي تنصر هذه الرسالة الغراء ليسهم منها بمقدار استطاعته وحسب تكليفه .

وما كان ابلغ سكوته ـ اول الامر ـ واحكمه فان فيه معنى اقرار النبي والاقرار بالنبوة وليس فيه ما يجرىء القوم عليه فيسوقوه مع النبي بعصا واحدة ، ولو انه اعلن ايمانه اعـلان ابنـه من اول الامر لانتقض ـ اذن ـ سر كتمانه بجهره ، وانعكست حكمة موقفه بخروجه عن الحياد فكان حكمه بالقياس الى تمرد قريش وطغيانهـا حكم النبي نفسه ومـن يمنع النبي يومئذ ويمهد للرسالة ان تنشط وتستبين اغراضها فيلتف حولها الجنود والاتباع ؟

وكان وهو في ذلك الموقف الحكيم الدقيق لا يستطيع السكون المطلق بل كان يحض ابنـاءه بالمأثورات الخـوالد على مؤازرة النبي في امره ثم يتوسع الى حاشيته ثم الى عشيرتـه يتـدرج في ذلك حسـب الحكمـة والمصلحة ثم يذيع ويذيع من شعره في هذا البـاب ما يرد المنصفـين الى حظيرة الصواب .

كان يقول لابنه جعفر : صل ـ بالبناء على السكون او على حذف حرف العلة ـ جناح ابن عمك .

ويقول له : (الزم ابن عمك فانك تسلم به من كل بأس عاجل وآجل).

ويقول :

ان الوثيقـة في لزوم محمـد فاشدد بصحبته ـ علي يديكا (٤)

---

(٤) شرح النهج ص ٣١٤ ج ٣ .

يقول له ذلك وامثاله حريصا على نفعه رؤوفا به ناظرا الى صلاحه ومصلحته ، وهل يجوز ان يبعث ابنه هذا البعث وهو شاك بما يرسم له من خير العاجل والآجل ؟ أيجوز ان يغري عليا وجعفرا بما لا يعتقد انه الكمال ويوقن انه الحق ويطمئن الى انه الفضيلة ؟

واي باعث يدعوه ان يزين لابنائه عملا لا مشجع عليه في ظاهر الحال ولا دافع له لولا ذلك الايمان العميق بصحة الدعوة وصدق الرسالة ؟

هذا ما عنيته من تشبيه موقف ابي طالب بموقف النبي وموقف الوصي ووجه الشبه حب المصلحة وايثار الصلاح .

فهو مؤمن بمحمد مقتنع بما جاء به من عند الله حريص على نشر الدعوة بار بمن يخف اليها ويقبل عليه وليس ادل على هذا من منعه ابا سلمى بن عبد الله المخزومي من شر قومه حين وثبوا عليه ليعذبوه ويفتنوه عن الاسلام (٥) ومن غضبه لعثمان بن مظعون حين عذبته قريش ونالت منه وفي هذا يقول (٦) :

أمن تذكر دهر غير مأمون	اصبحت مكتئبا تبكي لمحزون
ام من تذكر اقوام ذوي سفه	يغشون بالظلم من يدعو الى الدين
الا ترون أذل الله جمعكم	انا غضبنا لعثمان بن مظعون
ونمنع الضيم من يبغي مضيمنا	بكل مطرد في الكف مسنون
ومرهفات كأن الملح خالطها	يشفى بها الداء من هام المجانين
حتى تقر رجال لا حلوم لها	بعد الصعوبة بالاسماح واللين
او تؤمنوا بكتاب منزل عجب	على نبي كموسى او كذي النون

---

(٥) شرح النهج ص ٣٠٦ ج ٣ .
(٦) شرح النهج ص ٣١٢ ج ٣ .

ومن رسالته الى النجاشي يوصيه بجعفر والمسلمين من صحابته المهاجرين ان يكرمهم ولا يصغي لوشاية ابن العاص بهم وافتئاته في قصيدة جاء فيها :

الا ليت شعري كيف في الناس جعفر وعمرو واعداء النبي الاقارب
وهل نال احسان النجاشي جعفرا واصحابه ام عاق عن ذاك شاغب(٧)

الى عشرات من هذه الحوادث وسلسلة من هذه النصوص الصريحة بأنه كان مسؤولا يفكر بحال المسلمين ويعنى بأمورهم فهو ليس مسلما فقط بل مسلما مؤمنا يدعو الى التصديق بالاسلام ويعنى بالمسلمين عناية مسؤول عن سعادتهم وشقائهم مساهم في التفكير بمصائرهم وسياستهم .

وما يمنعه من الاسلام الذين يحوطه هو ويذود عنه ؟ والاسلام انما هو تفصيل للمبادىء التي استقر جوهرها في نفسه ، وللاخلاق التي تطبع عليها وحمل من جوامعها فكانت سيرته وكان سمته مثلا صالحا لها ثم كان قوله وعمله يجريان الى غايتها وسرها .

ما يمنعه منه هو من مراتب الاعداد الاسلامي وامداد النصر الانساني ؟

* * *

جاءه في بدء الدعوة نفر من وجوه قريش يكلمونه في تخلية السبيل بينهم وبين محمد فردهم ردا جميلا ولم يخاشنهم حرصا على ان يكون اوثق في حماية ابن اخيه ، ثم جاؤوه ــ وقد اشتد النبي في دعوته ــ فقدموا اليه

---

(٧) راجع سيرة ابن هشام ص ٢٠٤ ج ١ وشرح النهج ص ٣١٤ ج ٣ .

عمارة بن الوليد ــ وهو من كرام الفتيان في قريش ــ وعرضوه ان يتبناه ويعطيهم محمدا فانما هو فتى يسقطونــه من حسابهم بفتى يسقطه مــن حسابه ! ولكنه ردهم ايضا منكــرا ان يربي لهم ابنهم بــدل ان يقتلــوا هم ابنــه .

ثم اشتد الامر بينه وبينهم وتفاقم الخطب فكلم ابن اخيه في رفــق ولين ان يخفف الوطأة في الدعوة فظن انه بدا له فاستعبر وقال : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر مــا تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه .

فقال له ابو طالب : اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت فوالله لا اسلمت لشيء ابدا .

واجمعت قريش على حرب سلمية يقاطعون بهــا الهاشميين فكتبــوا صحيفة تعاقدوا فيها على منابذة ابي طالب والهاشميين جميعا في حديــث مشهــور .

وظل ابو طالب يمنع النبي وينصره ويؤمن به ويدافع عنه فلا يجرؤ احد عليه فكان للنبي وجه ابي طالب مدة حياته ، ولمــا توفاه الله في عام سماه النبي « عام الحزن » تعرض عندئذ للمكاره التي وصفها (ص) بقوله ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت .

* * *

واني لاخشى ان يطــول بي الحديــث عن شيخ الاباطــح ان انــا استرسلت لشرح خلائقه وميزاته ، وانه ليطــول من كل بــد ان اردنا ان نمشي وراء ما فيه من الخصائص النفسية وما له من المآثر ، ولكنا نجتزىء بهذه الناحية لانها ابر نواحي عظمته واجمــع لملامح عبقريته ونحــب ان نستعرض بعض نصوصه الشعرية التي تصور هذا الجانب العظيم منه .

قال : ــ وقد اجمعت قريش على حرب النبي :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى اوسد في التراب دفينا
فانفذ لامرك ما عليك مخافة وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتني وزعمت انك ناصحي ولقد صدقت وكنت قبل امينا (٨)
وعرضت دينا قد علمت بأنه من خير اديان البرية دينا

واحب ان لا اترك هذه الصورة قبل ان اقف عندها وقفة قصيرة ، احب ان تروا هذا الايمان العميق المتغلغل الواشج في نفسه على نحو يبشر النبي ويحضه على المضي في امره ، وان تروا قبل ذلك علمه هذا الذي يتضح بوصفه لدين ابن اخيه (بأنه من خير اديان البرية) ولولا احاطته بالاديان علما ووقوفه على مبادئها واحكامها ما استطاع ان يحكم على الاسلام بانه خير الاديان ــ واعتقد ان الوزن جاء بلفظ « من » ــ .

هذا وما اليه مما يلوح في شعره من علم وايمان وتفكير بالنواميس الكونية ــ عندي ــ ادل على ايمانه وادعى اليه على انه لم يعتمد على هذه اللمحات في تسجيل ايمانه بل تجاوزها الى ما علمتم من اعلان الاذعان قولا وعملا ، تألفا واستنفارا ، شدة ولينا .

قال يستنهض ابا لهب ــ تبت يداه ــ لنصرة النبي :

وان امرأ ، ابو عتبة عمه لفي معزل من ان يسام المظالما
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة تسب بها اما هبطت المواسما
اقول له ــ واين منه نصيحتي؟ــ ابا عتبة ثبت سوادك قائما
وول سبيل العجز غيرك منهم فانك لم تخلق على العجز لازما

---

(٨) يشير الى ما لقبه به الناس قبل النبوة (الصادق الامين) .

وحارب فان الحرب نصف ولن ترى اخا الحرب يعطى الخسف حتى يسالما
كذبتم وبيت الله نبزي محمـــدا ولما تروا يومـــا من الشعب غانما

ويقول له من قصيدة اخرى :

عجبت لحلمـ‍ـيا ابن شيبةـ‍ـعازب واحلام اقـــوام لديـــك سخاف
يقولون شايـــع من اراد محمدا بظلـــم وقـــم في امـــره بخـــلاف
اضاميم ، اما حاسد ذو خيانـــة واما قريب عنـــك غـــير مصاف
فلا تركين الدهر منـــه ذمامـــة وانت امرؤ من خـــير عبد مناف

الى ان يقول :

وزاحم جميع الناس عنه وكن له وزيرا على الاعداء غـــير مجاف
وان غضبت منه قريش فقل لهـــا بني عمنـــا ما قومكم بضعـــاف
وما بالكم تغشون منـــه ظلامـــة ومـــا بـــال احقـــاد هناك خواف
فما قومنا بالقـــوم يخشون ظلمنا وما نحن فيـــما ساءهم بخفـــاف
ولكننا اهـــل الحفـــائظ والنهى وعـــز ببطحـــاء اشـــاعر واف

في هذا الاستنهاض بلاغة في القـــول وافتنان في الاسلوب وقـــوة في التأثير لا نحتاج معها الى التنبيه على مواضعها الواضحـــة في مجاراتـــه ، واثارته لمكان الحفيظة من ابي لهب واغرائه اياه من حيث يظـــن انه يفهم ويقبل فيثور ويقبل حميا بروح العصبية كما اراد ان يستدرجـــه ــ وفي تلطفه بعدئذ بذكر قريش على نحو لا يثقـــل على ابي لهب ولا يغيظـــه في شركائه واحلافه .

لا يعنيني ان اوضح شيئا من هذا لانه واضح ولكن ملاحظة واحدة اخشى ــ ان اهملتها ــ ان تندمج فتخفى او يغفل عنها ولا تنبغي الغفلـــة عنها لانها اهم ما في هذا الاستنهاض .

ألاحظ ان ابا طالب يستنهض للنبي ويدعو لنصرته باعتباره رئيسا تكون له الزعامة ولا يغفل ابو طالب ــ في كل اقواله ــ هذه الناحية المهمة التي ابتنى عليها النزاع العربي في مكة فلا يريـد من ابي لهب ــ حـين يستنصره ــ نصرة لغير زعامة محمد ، على ان المألوف في لغة الاستنهاض ان يتنازل المستنهض والمستنهض له ولو ادعاء ليبلغ ما يريد ويصل الى ما يومي اليه ، ولكن ابا طالب لم يشأ ان يتنازل عن الزعامة التي اعترف هو بها لابن اخيه حتى في مثل هذا الموقف ، وانما جعلها من العناوين التي تبعث على نصرته ، وتدعو الى الذب عنه والتطوع له .

يصر ابو طالب على ذلك حرصا على توطيد هذه الزعامة ومنعا للشك فيها وايعازا بالفتها وتعودها .

أعد النظر الى قوله :

وزاحم جميع الناس عنه وكن له　　　وزيرا على الاعداء غـير مجاف

وله فيما يدل على هذا اقوال كثيرة منها قوله :

وابيض يستسقى الغمـام بوجهه　　　ثمال اليتامى عصمـة للارامـل
تطوف به الهـلاك من آل هاشم　　　فهم عنـده في نعمة وفواضـل

وهل هذا غير الاعتراف بالزعامة اعترافا روحيا بادية معانيه .

أكان الهاشميون هلاكا وهم ما هم قوة وعلوا وجـدة ؟ لا ولكنـه الانحناء والتواضع لزعامة محمد (ص) على نحو ينزلهم هذه المنزلة بمعنى التبعية والاذعان فهم في ملكهم ونعمتهم وقواهم كمن يستوهب ذلك من رئيسه ويستمده من زعيمه يعطونـه من انفسهم ومن اموالهم الطاعـة ويخولونه اوسع الصلاحيات ثقة بصلاحه واعترافا منهم له بهذه الزعامة .

ومما يتصل بهذا المعنى قوله من قصيدة :

يقولون لو انا قتلنا محمدا — اقرت نواصي هاشم بالتذلل
كذبتم ورب الهدي تدمى نحوره — بمكة والبيت العتيق المقبل
تنالونه او تصطلوا دون نيله — صوارم تفري كل عضو ومفصل
فمهلا ولما تنتج الحرب بكرها — بخيل تمام او بآخر معجل
وتلقوا ربيع الابطحين محمدا — على ربوة في راس عنقاء عيطل (٩)
وتأوي اليه هاشم ان هاشما — عرانين كعب (١٠) آخر بعد اول
فان كنتم ترجون قتل محمد — فروموا بما جمعتم نقل « يذبل »
فانا سنحميه بكل طمرة (١١) — وذي ميعة نهد المراكل عيكل (١٢)

* * *

ويقول :

يرجون منا خطة دون نيلها — ضراب وطعن بالوشيج المقوم (١٣)
يرجون ان نسخى بقتل محمد — ولم تختضب سمر العوالي من الدم
كذبتم وبيت الله حتى تفلقوا — جماجم تلقى بالحطيم وزمزم

---

(٩) العنقاء : اعلى الاكمة ، والعيطل طول حسن في العنق .
(١٠) العرانين الانوف . كعب : شرف ، مجد .

(١١) صفات متتابعة لجياد الخيل : ذي ميعة ، للسرعة ، يقال ماع وانماع الفرس اذا جرى سريعا ، ونهد المراكل : مرتفع موضع الركلة وهو تعبير عن سعة جوفه وجسامته وجماله . والمراكل جمع مركل وهو حيث تصيب رجلك من الفرس وانت تستحثه على السير يقول امرؤ القيس :
نهد المراكل يطويه ويركبه — حتى يكفت عن مصرانه العفج
وهيكل ، مجموع .
(١٣) الوشيج : شجر الرماح .

وتقطع ارحـام وتنسى حليلـة حليلا ويغشى محرم بعـد محرم
على ما مضى من مقتكم وعقوقكم وغشيانكم في امركم كل مـأثم
وظلم نبي جاء يدعو الى الهدى وامر اتى من عند ذي العرش قيم
فلا تحسبونا مسلميه فمثلـه اذا كان في قـوم فليس بمسلم

ويقول في امر الصحيفة المكتوبة في قطيعة بني هاشم :

ألا أبلغا عني ــ على ذات بينها ــ لويا وخصا من لوي بني كعـب
ألم تعلموا انـا وجدنـا محمدا رسولا كموسى خط في اول الكتب
وان علـيه في العبـاد محبـة ولا حيف فيمن خصه الله بالحب
وان الذي رقشتـم في كتابـكم يكون لكم يوما كراغية السقب[١٤]
أفيقوا، أفيقوا قبل ان تحفر الزبى[١٥] ويصبح من لم يجن ذنبا كذي ذنب
ولا تتبعوا امر الغـواة وتقطعوا اواصرنا بعـد المـودة والقرب
وتستجلبوا حربـا عوانـا وربما امر على من ذاقـه حلب الحرب
فلسنا ــ وبيت الله ــ نسلم احمدا لضراء من عض الزمان ولا كرب
ولمـا تبن منـا ومنكم سواعد وايـد اترت بالمهنـدة الشهـب
بمعترك ضنك ترى قصد القنا به ، والضبـاع العرج تعكـف كالشرب
كأن مجال الخيـل في حجراتـه وغمغمة الابطـال معركة الحرب
أليس ابونـا هاشم شـد ازره واوصى بنيـه بالطعان وبالضرب
ولسنـا نمل الحرب حتى تملنـا ولا نشتكي مما ينوب من النكب

---

(١٤) السقب ولد الناقة ساعة يولد وفي المثل (اذل من السقبان بـين الحلائب) . يقول ان الصحيفة التي كتبتموها في قطيعتنا ستعود عليكم بالذل عند اشتداد الحرب .

(١٥) الزبى ، جمع زبية وهي حفرة تصنع لصيد السباع ، ويقال (بلغ السيل الزبى) اذا اشتد الامر واستحر .

ولكننا اهـل الحفـائظ والنهى | اذا طار ارواح الكماة من الرعب

ويقول :

فلا تسفهوا احلامكم في محمـد | ولا تتبعوا امر الغـواة الاشائم
تمنيتمـوا ان تقتلـوه وانمـا | امانيكم هـذي كأحـلام نـائم
وانكمـوا والله لا تقتلونــه | ولمـا تروا قطف اللحى والجماجم
زعتم بأنـا مسلمـون محمـدا | ولمـا نقـاذف دونـه ونزاحـم
من القوم مفضال ابي على العدى | تمكن في الفرعين من آل هـاشم
يرى الناس برهانـا عليه وهيبة | وما جاهل في قومه مثـل عـالم
نبي أتـاه الوحي من عند ربـه | ومن قال لا يقرع بهـا سن نـادم

ويقول :

انــت النبي محمــد | قــرم اغــر مســود
لمســودين اكــارم | طابــوا وطـاب المولــد
نعـم الارومـة اصلهـا | عمـرو الخضـم الاوحد
هشم الربيكة (١٦) في الجفـ | ـان وعيش مكـة أنكــد
ولنــا السقايــة للحجيـ | ـج بهـا يمـاث العنجـد
والمأزمــان ومـا حوت | عرفاتهـا والمسجـد
انى تضـام ولم امـت | وانـا الشجاع العربد (١٧)
وبطـاح مكـة لا يـرى | فيهـا نجيـع اسـود
وبنــو ابيــك كأنهم | اســد العريـن توقـد

---

(١٦) الربيكة الزبدة .

(١٧) الشديد من كل شيء .

ولقـد عهدتـك صادقـا　　في القـول لا تتزيـد
ما زلـت تنطـق بالصوا　　ب وانـت طفـل امـرد

واشهر اقواله في هذا الباب لاميته المعروفة التي منها قوله :

كذبتم ـ وبيت الله ـ نبزي محمدا　　ولما نطـاعن دونـه ونناضـل
وننصره حتى نصرع دونـه　　ونذهـل عن ابنائنـا والحلائل

ومنها :

وانا ـ وبيت الله ـ ان جد جدنا　　لتلتبسن اسيافنـا بالاماثـل
بكل فتى مثل الشهاب سميـدع　　اخي ثقة عند الحفيظة باسـل

ومنها :

وابيض يستسقى الغمـام بوجهه　　ثمـال اليتامى عصمة للارامـل
يلوذ بـه الهـلاك من آل هاشم　　فهم عنـده في نعمة وفواضـل

ومنها :

ألم تعلمـوا ان ابننا لا مكـذب　　لدينـا ولا نعبـا بقول الاباطل
لعمري لقد كلفت وجـدا بأحمد　　واحببته حب الحبيب الواصـل
وجـدت بنفسي دونـه فحميته　　ودافعت عنه بالذرى والكواهـل

ما اظن ان في شيء من هذا الكلام اشتراكا والتباسا او غموضـا ليحتاج الى شرح او تحليل ، فكل ما جاء ـ كما ترون ـ من النصاعـة والاشراق ومن البيان وجزالة الاداء بمحل لا يقبل التأول ولا التأويل ولا يسمح بقال ولا قيل .

هذا كلام يفسر لنا هذه الناحية من ابي طالـــب ويصـــوره كما اراد لنفسه ان يكون ، وكل جدل بعد هذه الوثائـــق والاعترافات لغو باطـــل وحديث حائل .

ان في هذه الاعترافات حماسة واندفاعـــا لا يصدران عادة الا عـــن الايمان والتصديق ومن عاد الى اقوال ابي طالب في هـــذا الصدد يحس بوهج انفاسه وثبات قلبه تنطلق بنفسه وروحه !انطلاقا لا للاعتراف فقط بل للذياد والدفاع والتطوع والحماية لهذه الدعوة المحمدية العظمى ولهذا الدين الالهي العظيم .

والشك في منطوق هذه الوثائق تعطيل للغة وشل للالفاظ في مداليلها البدهية فاذا شك شاك بمعنى هذا وما اليه من الواضحات فلا أمن عليه ان يفهم الناس وان يفهم عنهم حتى في حياته اليومية ولغته الدارجة .

واذ لم يدل على الاسلام مثل قـــوله « انت النبي محمد » وقـــوله « ولقد علمت بان دين محمد من خير اديـــان البرية دينا » وقـــوله « ألم تعلموا ان ابننا لا مكذب لدينا ولا نعبا بقول الاباطل » واقواله المستفيضة بهذا وبما هو اصرح منه .

اذا لم يدل هذا على اسلامه فكيف اسلم المسلمون من لا يشك في اسلامهم ممن لم يؤثر عنهم بعض هذا القـــول ولا بعض هـــذا التطـــوع والاندفاع ؟

ان تعجب فاعجب اطول العجب واعجبه ممن يشك باسلام ابي طالب، ويغرب فيقدر له في اليوم الآخر ما للكافرين من مقام ــ حاشا لله ــ .

أبعد هذا الجهاد وبعد هذا الايمان يتظنن المتظننون ويأبون له منزلة اهل الايمان والسبق ؟!

والله ان جنة ابوطالب لا يدخلها ــ وانه من ازيانها ــ لجنة مقفرة جديبة لا يدخلها صالح ابدا .

وان نارا ابو طالب يأوي اليها ــ وانه ابعد احد عنها ــ لنار مباركة

خصيبة ، وانها اذن مأوى للابرار والصديقين .

ولن يكون ذلك الا حين تتبادل الجنة والنار مفهوميهما .

واقسم ان احدا لا يفهم ابا طالب المؤمن من بيناته لخليق ــ اذن ــ الا يفهم الاسلام ، بل خليق ألا يكون انسانا جديرا بفهم الواضحات .

وبعد فلعل لسان الدعاوة الاموية في صدر دولتهم شاء ان يشك في اسلامه ويحوم حوله بالظنون المختلفة ليقسم الناس في امره قسمين ــ على الاقل ــ قائل بالكفر وقائل بالايمان ايذاء لابنه ومغايظة لآله وتمكينا للاموية ــ اذا سلبت الثقة من العلويين ــ كما يظنون ــ وهيهات لما أرادوا .

وسنصل الى نشاط الدعاوة الاموية ايام معاوية ــ في موضعه من هذه السلسلة ــ وتتبين فعلها في وضع الاحاديث وبعث الشعر واشغال الناس بالعصبيات والخلاعات لتبني ملكها الاثيم على هذه السياسة الآثمة .

ومهما يكن من شيء فانا لا نعبأ بهذا الجدل الهزيل الذي لا يبتني على نقل صحيح ولا يستند الى منطق سليم ، فانا لا نرى ــ حين نبحث بانصاف ــ في آثار ابي طالب اكبر من عقيدته هذه العقيدة التي كانت اضخم اسرار عظمته ، وجعلته سيد مكة المرهوب المؤمل .

حمزة

.. حمزة في الفتوة العربية قمة ينحدر عنها السيل ولا يرقى اليها الطير .

وفي الجهاد الاسلامي آية من آيات الفتح ومعجزة من معجزات الميادين تنخذل بين يديه اكباش من الكتائب وتخور لديه همم الابطال .

وهو هنا وهناك قطب الرحى ومعقد الامال، شاهده على ذلك تاريخ اغر محجل تنماز غرره وحجوله الحمزية في مؤثلاتنا العربية الاسلامية .

ابو عمارة .

الجمال مسفرا عن اغر الملامح .

والمهابة واشجة في الخلق الراجح .

والانسجام الجامع المحبوب لا مكان فيه لنبو ولا مدخل لمغمز .

صفات جسدية نادرة المثال تقابلها من نفسه صفات تكافئها وتليق بها.

جسم محبوك مجدول القوى ، كل ظاهرة منه تـدل على معناهـا ولوازمها .

فهو باذخ الجسم مديد القامة رحب ما بين منكبيه واسع الصـدر مفتول الساعد يخطر كما تخطر الآساد ويلوح كما تلوح القلاع .

تناسب هذا التركيب المتناسق ودلالاتـه المنتظرة من عظمـة جلادة وشجاعة قلب وشهامة طبع وطلاقة وجه وانبساط انامل واعتداد نفس لولا التواضع ولين الجانب لفسر بالكبرياء والجبروت .

فكان لين الجانب فيه نزهة عـن الكبر ويصرف مظاهر ذلـك الى معاليها الصحيحة من نفسه فليس كبرا ما يبدو فيه انه الكبر وانما هـو زهو الفتوة ولمعان القوة اللازمان للفتى القـوي لزوم النـور للشمس

والحرارة للنار .

وتناسب هذه المعنويات في هذا الجسم الرحب المتين روحيات مشرقة في صفاء نفسه وسلامة معالجته للامور واستقامة فهمه للحياة وسعة عطفه على البؤساء وقوة شكيمته في الحق وتعاليه عن الدنايا وتجنبه للخنا من كل ما يفسد الكرامة ويخل بالمروءة .

من كل هذا صيغت رجولة ابي عمارة فكان الرجل تخضع لديه الرجال.

ومن هذا كله ركبت بطولته فكان البطل تتحاماه الابطال في كل مجال.

ولا تجتمع هذه الخلال لاحد على هذا النحو الا كان الرجل البطل .

فاذا اجتمعت لبطل تعهد اليه موارث البطولة كان الاجل والامل .

كذلك كان حمزة ، فكان يرى الى الدنيا من خلال نفسه كما يراها في نفسه قوة وجمالا وحقا وخيرا فاذا مر من دنياه على غير ذلك حقره واستخف به وزواه .

ولو ان رجلا يخير ان يخلق كما يريد لكان هذا الرجل حمزة ، ولكن الله ربه الخلاق الحكيم اختار له هذه الخلقة المحكمة الحصيفة ليشحذ من عزيمته الحذاء سيفا مذخورا للحق وينزل من سببه غيثا ينمي ارواح الربيع في نفوس المنكوبين والعفاة المضطهدين .

وبهذا كان رجاء يحل النعمة والقوة في صفوف المسلمين يوم اعلن اسلامه ويحوطهم بالمنعة والايد فينشطون معه بحماسة جديدة وينخذل المشركون منه بجيش عتيد .

* * *

ابو عمارة .

كان فتى العرب في الجاهلية اشد قريش شكيمة وامنعها جانبا .

ثم كان في الاسلام اسد الله واسد رسوله يستدفع به الكرب

وتكشف الملمة ويستدنى الرجاء ويستدرج الامل .

يخاف ويرجى لا بالفتوة وشدة البطش فقط بل بمجموع صفاته المؤملة المرهوبة ، يشهد فيه النبي (ص) انه « كان وصولا للرحم فعولا للخير برا نجيدا منيعا » (١) .

فكان من اجل ذلك اذا اقبل في سلم احتفى الناس باقباله والتفوا حوله مكرمين متوددين يؤانسونه فيؤنسهم بالحديث والطرفة والبشاشة .

واذا اقبل في حرب احتفي به ايضا ولكن بالتفرق عنه والفرار من بين يديه ، خوفا من نكير سيفه وشدة وقيعته ولكنه من خلفهم كالموت لاينجي منه مهرب .

رجع يوما — ولم يكن قد اعلن الاسلام بعد — من صيده مختالا بقوامه المطرد ، متهاديا بمشيته الرائعة .

وكانت عادته حين يرجع من الصيد ان يلم بالكعبة يطوف بها ثم بأندية قريش يتحدث اليهم ويسمع منهم (٢) وذلك نحو من انحاء سياسة الزعماء وضرب من ضروب التفقد لامور الناس ممن يرى في نفسه وبيته الاشراف على الناس ويرى الناس ذلك له ولبيته .

وفيما كان راجعا هذه المرة — وقد جهر النبي بالدعوة ومات ناصره ابو طالب — لقيته مولاة لعبد الله بن جدعان فقالت له :

أيطيب لك صيد ويلذ لك قنص ، وتتسع عندك الفلوات لهذا الصيد وهذا القنص وابن اخيك منخفض الجانب يتسور عليه السفهاء بالشتم واللعن والتسفيه ، ويلقونه بالسوء والاذى والشر ؟

لقد رأيت ابا جهل يشتمه شتما قبيحا !

---

(١) راجع ترجمته في الاستيعاب ودائرة المعارف للبستاني .
(٢) سيرة ابن هشام ص ١٧٨ الجزء الاول .

عز على ابي عمارة ان تستباح حرمة ابن اخيه ، فمضى مصمما ان يقتل ابا جهل ويقطع بقتله دابر المنافقين .

ولقي ابا جهل في مجلسه من بني مخزوم يحدقون به في حلقتهم من المسجد ، فأسرع اليه فضربه بالقوس ــ ولم يكن سيفه معه ــ فشج رأسه شجا عنيفا ثم تحداه تحدي العزيز القادر فقال له :

« اتشتمه ــ يعني النبي ــ وانا على دينه اقول ما يقول اردد علي ان استطعت ! » .

فيقوم رجال من مخزوم ينصرون ابا جهل شيخهم وزعيمهم ولكن ابا جهل لا يجهل بطولة حمزة وشوكة بني هاشم ، ولا يجهل مقامهم من الناس الذي لم تصغره غرابة دعوتهم في بدئها ، لذلك منع رجاله من مبارزة حمزة مشفقا من سوء المنقلب فقال : « دعوا ابا عمارة فاني سببت ابن اخيه سبا قبيحا » .

واحب ان نرى حمزة في هذه القصة الصغيرة فهي ان لم تتضافر على صحتها السير والتراجم فانها اشبه ما تكون بخلائق حمزة ووجاهته وصدق ايمانه وهي بصدقها وشبهها بحمزة تغنينا عن اوسع التراجم واحفلها بالطرائف والاحاديث .

ونحن نفهم منها اشياء ننصفها حين نسجلها ونكشف عنها الغطاء الذي مر عليه الناس من يوم حمزة الى هذا اليوم وهو ملقى عليها لا ينكشف منها الا عن الجانب الهين جانب الحمية والعصبية .

كان حمزة مسلما قبل اعلانه الاسلام بهذه القصة ولكنه كان يكتم اسلامه ويلزم الحياد ايثارا للنفع الذي يرجوه في سياسة السلب ، وللفائدة من كرامته التي يتجنب الناس ايذاءه فيها بايذاء ابن اخيه وهي سياسة ابي طالب زعيم الهاشميين من قبل التي اوحاها للمرهوبين المرعيين من اخوانه ما دامت لهم رهبة وما دام الحياد سياسة في سلامة النبي ومجالا لبث

دعوتــه .

اما اذا انتقض الغرض من الحياد وزين للخصومة الملجومة ــ اول الامر ــ ان تجترىء بحجة من حياد حمزة وتظاهره بمماشاتهم في عقيدتهم، اما اذا كان ذلك فما في الحياد أرب وما في التكتم بالاســلام حاجة فقــد تحول السر من الكتمان الى الاعلان ومن الحياد الى الجهاد وكان الواجب في هذه الحال والمصلحة معا في ان يفعل ما فعل وان يقول ما قال .

هذا مأتى هذه القصة لا استثارته بحمية ولا استنهاضه بعصبية .

وهذا معنى ضربه لابي جهل وتحديه له بقوله « اتشتمه وانــا على دينه اقول ما يقول » .

واسلوب هذا التحدي اخباري ــ كما ترون ــ لا انشائي ، والاخبار ضروري لاستقامة معنى الاستنكار وانسجامه وبدونه يبطــل الاحتجــاج ويلغو فلو انه كان ينشىء اسلامه آنئذ انشاء ويرتجله ارتجالا لكان عليه ان يغير صورة كلامه ويحور صيغة استنكاره كأن يقول له اتشتمه وانــا عمه الذي يسنده في اي امر ، او ما الى ذلك مما يناسب الارتجاز المنشىء.

ونستفيد من هذا ايضا ان اخبار اسلامه المكتوم كانت تروى وتنفذ بالتدريج الى الاسماع فتخشى ويحسب لها حسابها . ولعل هذه القصــة كانت امتحانا لما عنده مما يشاع عن اسلامه .

وان حمزة وابا جهل يتكاشفان بهذه القصة ذاك بما يروي عنه وهذا بما يسمع عن صاحبه .

وان كلا منهما يعلم بنفس خصمه مما لا يليق له ويجدر به .

ومن هنا صح لابي عمارة ان يسوق احتجاجه على هــذا النحــو المفروض فيه ان ابا جهل يعلم اسلامه او يبلغه ما يظن من اسلامه عــلى الاقل « اتشتمه وانا على دينه اقول ما يقول » .

ولا يجوز ــ بيانا ــ ان يسوق احتجاجه هذا السوق وابو جهــل

يجهل تمام الجهل اسلامه او ما يبلغه عن اسلامه .

* * *

وتدل هذه القصة على شخصية حمزة كما يجب ان تكون شخصية رجل مثله تتوافد اليه القوة والمنعة من حيث اراد واوضح ما تدل عليه من هذه الروافد الذاتية السامية والقوة النفسية .

فليس سهلا ضرب رجل له من المنزلة في بني مخزوم ما لابي جهل وله من نفس الوليد [٣] (قارون) العرب وجبارهم موضع ابي جهل هـــذا

---

(٣) الوليد ن المغيرة سيد بني مخزوم ، وهو المعني بقوله تعالى في سورة المدثر « ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع ان أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر » .

وحسب الوليد نباهة شأن ان يعنى به القرآن الكريم هذه العناية ويخصه بهذا الوعيد وكان الوليد يلقب بالوحيد وريحانة قريش وكان من وجهاء قريش وابطالهم وذوي المكانة الرفيعة منهم وكان غنيا موفورا له الزرع والضرع والتجارة وله بين مكة والطائف صنوف الاموال ، وقيل ان من املاكه بستانا في الطائف لا ينقطع ثمره صيفا ولا شتاء ، واختلف في نقده فقيل الف مثقال وقيل اربعة آلاف وقيل تسعة آلاف وقيل الف الف .

وكان له اولاد كثيرون اشهرهم خالد وهشام وعمارة وقد اسلم هؤلاء ومنهم سميه الوليد والعاص وقيس وعبد شمس .

فكان بهذه زعيما منظورا في قريش معتدا بنفسه وبماله وبولده وبمكانته قيل انه لما بلغته الدعوة المحمدية قال : ان كان محمد صادقا فما خلقت الجنة الا لي .

وكان الى ذلك واسع الحيلة سديد الرأي صائب التقدير ، يؤخذ هذا من شهادة الله فيه باسلوبه التعجبي في هذه الايات العظيمة « انه فكر وقدر، فقتل كيف قدر الخ » وهذا اكبار لحسن تقديره ولبلوغه المحز في تفكيره كما

الموضع الذي زين للوليد ان يتنحى عن الزعامة ويعقد لواءها على مفرقه

تقول قاتل الله فلانا ما اشعره وما ابلغه لتعبر عن مدى اعجابك بشعره او بلاغته .

واذا استجمعت هذه الصور للوليد بكل الوانها وخطوطها علمت السر في خوف قريش من اسلامه واستيقانهم بانه ان اسلم اسلمت قريش في قصته التي تشير اليها هذه الايات وتفصلها كتب السير ومجملها ان النبي دعا الوليد للاسلام فتلا عليه من القرآن آيات وعد وآيات وعيد فبهره ما سمع وعلم انه الحق ، ثم رجع الى قومه فسألوه عما سمع فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى » فقالت قريش صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم .

انتدب ابو جهل لكشف هذه الملمة فقال ـ وهـو يعلم مكانته من نفس عمه ـ انا اكفيكموه ، ثم ذهب فقعد في طريقه حزينا بادي الحزن كئيبا بادي الكآبة ، ولما عاد الوليد ورأى ابا جهل على هذا النحو من الحزن والكآبة رق له وتهافت عليه يسأله عما يحزنه فأجابه متهالكا على تقاليده وشرفه وعنعناته الجاهلية واحماه لها ورغب اليه ان يعلن ما يدل على بقائه على دينه .

وبعد هذه المقابلة رأت قريش الوليد يعود اليهم فيقول :

تزعمون ان محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟

وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن ؟

وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟

وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟

ففكر فقال ما هو الا ساحر أفما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله وولده ومواليه وما الذي يقوله الا سحر يأثره عن مسيلمة وعن اهل بابل . فارتج النادي فرحا وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه .

هذه هي قصته التي استحق بها وعيد الله المنكر وهي تدل على ما كان له من منزلة وقدر في قريش ومنزلته هذه وقدره موقوفان على ابي جهـل وذلك ما عظم في نظرنا استهانة حمزة بضربه ابا جهل مع علمه بكل هذا وبعد ان عقد الوليد على مفرقه زعامة بني مخزوم ولو ان شيئا من هذا كان يقف لحمزة او لبني هاشم اوقف ابو جهل ونهض .

راضيا مطمئنا سعيدا بأن يعدل بها عن نفسه وعن اولاده الى ابن اخيه ابي جهل .

ليس من السهل ان يضرب رجل كأبي جهل وهو على رأس قومه قبل ان تطيح اكف وتسيل دماء ولكن ذاتية حمزة المسلحة بفتوته وبقوة بيته وبحمزيتها ـ قبل ذلك ـ اقتحمت ذلك مستهينة به غير عابئة ولا مختلفة بشيء من حسابه .

ولا يصح في كل تقدير ان يأتي هذه الضربة غير رجل كبير بكل معاني الكبر .

كبير الذات وكبير الحيوية وكبير الجاه وكبير البيت .

فلو كان من الزعامة ومن عظمة النفس ومن تدفق الحيوية ومن شموخ البيت غير مكانه لم يأت ما اتى ولم يخرج مما اتى كما خرج .

ولكنه كان من ذلك حيث كان فأقدم غير مكبر ما يفعل وتطامن له ابو جهل غير مستكبر ما فعل .

وهل ادل على استهانته بما فعل من قوله « اردد علي ان استطعت »؟

وهل ادل على تطامن ابي جهل من قعوده واعترافه بالعجز ؟

لا .

وان شخصية حمزة تتوارد على هذا النحو في ادعائه وفي اعتراف خصمه .

قد يقال ان كف ابي جهل عنه لم يكن عجزا واعترافا بل عدلا ونصفة واقادة من نفسه ! يستشعر هذا قوله « دعوا ابا عمارة فاني سببت ابن اخيه سبا قبيحا » فهو انما استكان ليعطي من نفسه القصاص في سبه لهاشمي كريم على قومه فكانت واحدة بواحدة وهو البادىء وكان سكوته ينظر الى هذا لا الى غيره لينتهي اللدد عند هذا الحد .

ولكن هذا مردود كيفما نظرت اليه .

مردود ببطلان القياس والموازنة بين سب ابي جهل للنبي وبين ضرب حمزة لابي جهل فان ابا جهل لم يسبه لينال من بني هاشم او يحط من قدرهم ولا لسابق عداوة شخصية بينه وبين محمد (ص) وانما سبه لينال من دعوته التي تنال من تقاليدهم وتسفه احلامهم وتحتقر اصنامهم ، وذلك في عرف الجاهلية معقول محمول بل هو الواجب الذي لا يتبع غيره والمنتظر الذي لا يحتمل سواه وبناء على هذا فلم يأت المخزومي فريا وانما دافع عن تراث الاجداد وذاد عن حرمة التقاليد .

اما ضربة حمزة فقد جاءت خلافا للتقاليد ومنعا للمضي في الدفاع عنها واشتراكا مباشرا في الدعوة الى مجانبتها والتسفيه للمستمسكين بعراها . فهي حرية — من اجل ذلك — ان ترد وان تصد وان تحدث شرا مستطيرا لا من ابي جهل فقط بل من كل جبار في قريش يؤذي في جاهليته ولهم في ذلك الحجة الواضحة من هوان ابي جهل ومن اعلان حمزة اقراره لقول النبي وتأييده لفعله وتحديه الذي يتجاوز ابا جهل لكل متجاوز على النبي وعلى دعوته بشر .

اذن يجتمع في حمزة سببان يدعوان الى حدوث ما لم يحدث مما لا تبرر عدم حدوثه مقابلة الضرب بالسب .

اول السببين استخفاف حمزة بسري بني مخزوم وثانيهما نصرته الدعوة التي تحاربها قريش وتشتد في عداوتها .

ولكنه الخوف من حمزة والعجز عن مقاومته الجما ابا جهل عن مناهضته .

ويضاف الى ان طبيعة القدرة لا تستكين للاستعلاء عليها وهي تجد السبيل للعلو او المناهضة ولا سيما قدرة في عنفوان جاهلي او حماسة في دفع مبدأ أدعوة الى آخر .

فلو ان ابا جهل — وهو الجاهلي الموتور بكرامته وتقاليده — كان

يجد من نفسه القدرة على رد هذه الصفعة ودفع هذا الهوان لما صبر عليهما، وفي الطبائع والحوادث الجاهلية آلاف الشواهد على جمحات النفس في مثل هذه الحالات .

وليس ابو جهل من الحلم وسعة الصدر حيث يغضي عن ذلك كرما وقدرة . ولا حمزة من وسطه وذاته حيث يظن الاحجام عنه عفوا او رجوعا الى الانصاف والرضا بالقصاص ـ ضربا بسب ـ .

ولو لم يكن العجز عن حمزة والاعتراف بعلوه عاملين اساسيين في رضاه بالقعود لاثارته هذه البادرة ولاخذته العزة والحفيظة لا لكرامته فقط بل لكرامة دينه الى جانب كرامته الشخصية ألم يتعرض لمحمد بالسوء لانه يذم (اللات والعزى) وينتقد التقاليد والعادات ؟ وهذا حمزة يقره على ذلك ويقول معه ما يقول به ولتكن الضربة قصاصا للسب فما الفرق بعدئذ بين النبي وبين حمزة ؟ ولماذا اجترأ فتحرش بالنبي مع ان النبي لم يتعرض له بالخصوص وانما دعا دعوة عامة بلهجة هي الرفق والهوادة واللين ، وحمزة يعلن انه على دين هذه الدعوة بمثل هذه الخشونة الموجهة الى ابي جهل خاصة .

الفرق ان ابا جهل يعلم ان للنبي من اخلاقه ومن سيرته ما يربأ به عن مطالبته بالمثل فهو منه في امان وسلامة ، وليس كذلك هو مع حمزة ، فان الموت ادنى اليه من ان يواجه ابا عمارة بسوء وليس ادل على ذلك من رضاه بهذا الهوان ليخفف بهذا الرضا وطأة الاساءة الى حمزة بما اساء به الى النبي .

هذا ما يفهم من قول حمزة نفسه «أتشتمه وانا على دينه اقول مايقول؟! اردد علي ان استطعت» .

هذا استعلاء لا تجري به الا طبيعة عال يرى لنفسه ذلك ويحزر في خصمه الجبن عنه .

وهو علو صريح بأمرين .

اولهما تعالي حمزة وقوة شخصيته .

وثانيهما انطباع ابي جهل على خليقة الجبن وصفاته ، فان طبيعة الجبن تدفع الجبناء الى الجراءة والاقتحام في مواطن الامن ومظان السلامة اقوياء الشكيمة جبارين فاذا منوا بشيء من الخوف انفتحت لهم ابواب الاناة والصبر وسعة الصدر ، فارتدوا محجمين متقهقرين .

ومفهوم الشرط في قوله « اردد علي ان استطعت » ينطق بعجز ابي جهل وجبنه فلو كانت به جرأة ذوي الجرأة لاستفزه هذا التحدي واجراه على سجية الشجاع فان الجريء من اجترأ حيث يخاف وليس الجريء من اجترأ حيث يأمن ويعلم من صلاح خصمه وطول اناته ما يطمئنه من العاقبة .

ومهما يكن عن شيء فان المؤرخين يقولون بعد ذكر هذه القصة ان الاسلام امتنع باعلان حمزة الاسلام ، وكف المشركون عن بعض فعلهم احتراما له وخشية من سطوته .

* * *

ولهذه الشخصية الحمزية في التاريخ معالم وشهود وان كانت هي في ذاتها اغنى عن الاستشهاد ولكن سنة البحث قائمة على استيفاء الدعاوي من الشواهد والادلة .

فلنضف ـ اذن ـ الى قصته مع ابي جهل والى شاهد امتناع الاسلام باعلان اعتناقه الاسلام شاهدا آخر .

يقول المؤرخون : ان عمر بن الخطاب كان ـ قبل اسلامه ـ من الاشداء على الرسول الألداء في عداوتهم لدعوته .

وبلغ من حماسته في شدة الخصام ان طمع بقتل محمد وتطوع للفتك

به فاستلأم للحرب ولبس لها الاهبة ثم مضى لهذا الشأن .

وفيما هو في الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فقال له ــ وقــد عرف قصده ــ : « غرتك نفسك يا عمر ، اترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا ؟ » .

ثم ينهي اليه ان اخته وختنه قد اسلما فان تكن به قوة فليمنع بطانته عن الاسلام .

فاحفظه هذا الخبر واعاده من طريقه الى بيت صهره واخته فاقتحم عليها الدار فسمع ــ وهو داخل ــ عندهما هينمة وكانا يقرآن في صحيفة فلما رأياه يفاجئهما بادرت اخته الى اخفاء الصحيفة .

ولكنه سألهما عما سمعه من صوت ، فاذا هما منكران وإذا هو منهال عليهما بضرب ادمى اخته واذا هي معترفة بعدما ضربت بالاسلام .

فكان من كل هذا ان دخل في روع عمر ان يسلم فيسأل عن مكان النبي ليتوجه اليه على نية الاسلام .

ويمضي عمر معتقلا سيفه الى مكان رســول الله ، وكان النبي في دار عند الصفا ومعه علي وحمزة ونفر من المسلمين المستضعفين .

فطرق عمر الباب فخرج اليه احد المسلمين ونظر من خلــل الباب ثم عاد الى النبي يخبره ان الطارق عمر وان عمر معتقل سيفه .

وظن المسلمون ان عمر انما جاء للفتك بالنبي ولعله ربيئة يأتي مــن ورائه المدد فداخلهم شيء من الخوف والرعب ، ولكن اسد الله واســد رسوله يقطع عليهم خيط هذه الفكرة فيقول :

« نأذن له ، فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه » .

هذه هي شخصية حمزة ، بينة المعالم مشرقة القسمات .

« نأذن له ، فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان كان يريــد شرا قتلناه بسيفه » .

كلمة مطمئنة صدرت عن طبع مطمئن لا اثر للصنعة في تكوينه ولا ظل للرياء في خلقه .

وتشرح لنا هذه الكلمة من شخصية حمزة ركنين يتباين مظهرهما ويأتلف جوهرهما ، ولا يلتقيان الا في نفس عظيمة .

شرحت لنا هذه الكلمة في الركن الاول خلائق الاريحية والرفد والرفق والرحمة « فان كان يريد خيرا بذلناه له » .

فهو ــ اذن ــ في مواطن الخير مهتز للبذل هشاش للعطاء ، كريم باسداء الخير ما كان منه مادة يطلبها البؤساء والمعوزون ، وما كان منه طمأنينة يطلبها الحائرون المكروبون ، فعند القلة والفقر تنبسط انامله بالندى والوفر ، وعند الحيرة والضلال يتدفق لسانه بالهدى والحكمة .

ثم شرحت لنا هذه الكلمة في الركن الثاني ، البأس والقوة ، والبطش والفتك ، والثقة بالتوفر على كل ذلك .

« وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه » .

فهو ــ اذن ــ في موضع الشر يرد الكيد ويدفع المكروه بنفس الاداة التي يتسلح بها ذو الشر ، لا يتحمل في ذلك عبئا ثقيلا ولا يكلف نفسه امرا عسيرا .

والتقاء هذين الركنين في نفس حمزة على هذا النحو من الانسجام والاتقان كان مبعث الاستبشار باسلامه لانه كان بهما مؤملا لجر مغنم ودفع مغرم في وقت معا والناس اما طامع واما خائف وفي حمزة امكنة للطمع وامكنة للخوف بها جميعا رجا المسلمون الظهور والغلبة حين اعلن الانضمام الى صفوفهم .

واي مسلم يجبن بعد هذه القولة يسمعها من فم حمزة فتسن للمسلمين دستورا للجهاد الاسلامي المظفر .

ولم يكن عمر وحده مقصودا من هذه الكلمة وان كان هو سببا لورودها فان خصوص المورد لا يخصص الوارد ، وانما هي كلمة صدرت

عن طبع حمزة في طمأنينته وعلو نفسه فهي الكلمة التي تشبهه وتومض فيها ملامحه وكبرياؤه في الحق سواء طرق الباب عمر او غـيره ممن يخشـاه الناس وممن لا يخشونه من غير فرق .

ولم يرد حمزة بكلمته هذه الا ان يقوي معنوية المسلمين ويضع بين اضلاع كل مسلم نفسا جديدة يشتقها من نفسه هو ليسيرهم على منهاجها حتى يبلغوا الفتح .

واذا تجاوزنا ما استفدناه من شرح هذه الكلمة لهذين الركنين مـن شخصية حمزة ــ وهما ركنان لا يجتمعـان الا في النفوس المشتقة مـن معدن العظمة والامتياز ــ نحن اذا تجاوزنا ذلك فانا نرى شخصية حمزة تسيطر على هذه الكلمة وتنطقها بكل لوازم ذينك الركنين من عدل ومروءة ونجدة وفتوة وتلخص المبدأ الاسلامي القويم الذي مشى بالمسلمين الى ميادين الشرق والغرب واكتسح الدنيا بالعقل والحرب .

يبذل الخير لمبتغيه ويرد الشر على باغيه .

* * *

وبعد فحمزة في الفتوة العربية قمة ينحـدر عنه السيـل ولا يرقى اليه الطير .

وفي الجهاد الاسلامي آيـة من آيات الفتـح ومعجزة من معجزات الميادين تتخذل بين يديه اكباش الكتائب ، وتخور لديه همم الابطال .

وهو هنا وهناك قطب الرحى ومعقد الآمال ، شاهده على ذلك تاريخ أغر محجل تنماز غرره وحجوله الحمزية في مؤثلاتنا العربية .

العباس

شكل :

كان خلاصة الهاشميين ..

يمثله بسنائه الباهر وبجماله الآسر وبقامته المديدة المعتدلة المتناسقة تحت ضفرتين رائعتين تتدليان من رأسه الشامخ لتلتقيا على صـــدر عريض المنكبين ينبسط للحلم وللعلم تحـــت ذروة هي للعقل والذكاء والحكمـــة والسداد ، ويطل من بينهما وجه منير ناصع تتكشف على اساريره المشرقة نفس نقية غنية ويطفو عـــلى نظراته قلب رقيق الشمائل دقيق الاحساس ثم ينبعث في لفتاته ذهن متقد ولب موهوب.

خلق :

... رجلٌ عنده من السعة نعمة محسودة ومن الجـــاه سلطان نافذ محمـــود ، ويـــد من النعمة والجاه طائلة تمتد الى حيـــث تشـــاء شهوات الانفس وخائنة الاعـــين ومنطويات الصدور في زمن يتســـع للتمادي ولاعـــلان الدخائل ، وفي بيئة اوسع من زمنها تماديا في الشهوات وفي الخيانات وفي اعلان الطويات .

ومع ذلك يلجم نفسه عنها ثم يلجم الناس عن غشيانها فيدعو الى الفضيلة ويضرب على الرذيلة بالاسداد ما استطاع .

انى التفت من هاشم تجد نبعة تطفح وتتدفق بالري والخصب والنماء .

فاذا افتخرت الاسر والقبائل بآحاد واعتدت البطون والافخاذ بافراد، ومضى هؤلاء واولئك يتباهون على حساب واحد منهم اوتي من الفضل ما رفعه ورفعهم به ـ اذا كان ذلك فان لبني هاشم مفاخر عداد افرادهم ، وان لكل هاشمي من المآتي الغر ما يرجح في الميزان على مفاخر اسر مجموعة ذوات مفاخر مذكورة .

وهذا سر امتياز مجموعهم المعجز فان شيوع الامتياز في كثرة افرادهم الف امتيازا للمجموع لا يعهد له نظير في تاريخ الاسر والبيوت ووضع لهم اقيسة خاصة في الاخلاق والمواهب لا يقاس بها غيرهم من الناس .

وليحص العادون من النسابين وعلماء الرجال اسرة او قبيلة او شعبا وليأتوا بعدئذ بما يحكي هذا العدد الهاشمي الضخم في عصر واحد ومن رجل واحد .

وهو عدد لو وزع على امة في اجيال متباعدة لكان حظها من العبقرية

حظا موفورا وتاريخها في الاصلاح تاريخا اهلا بالمصلحين .

أرأيت من هذا العدد الى عبد الله وابي طالب وحمزة بعد شيبة الحمد وعمرو العلاء ؟

انظر ـ اذن ـ الى ابي الفضل العباس .

ترى كل اولئك يتزاحمون في نفسه ويتداخلون في صفاته وخصائصه اكأنه خلاصة لهم ولكأنهم صور له ، وكذلك الهاشمي يلخص ما للهاشميين من شكليات ومعنويات تميز كونهم الخاص .

والعباس يمثلهم حقا بسنائه الباهر وبجماله الآسر وبقامته المديدة المعتدلة المتناسقة تحت ضفرتين رائعتين تتدليان من رأسه الشامخ الرفيع لتلتقيا على صدر عريض المنكبين ينبسط للحلم وللعلم تحت ذروة هي للعقل والذكاء والحكمة والسداد ويطل من بينهما وجه منير ناصع (١) تتكشف على اساريره المشرقة نفس نقية غنية ، ويطفو على نظراته قلب دقيق الاحساس رقيق الشمائل ثم ينبعث في لفتاته ذهن متقد ولب موهوب .

هذا هو العباس ذو الخطر والشأن في الجاهلية .

انحنت لمقعده الزعامة وانداح له من دستها اسمى المناصب في قريش فتناول من اخيه شيخ الاباطح سقاية الحاج ورفادته يوسع بهما الحجيج ويمسح اتعابهم على سنة شيوخه عمرو العلى وشيبة الحمد وسيد البطحاء ثم يضيف اليهما عمارة المسجد فينضاف اليه منصب جديد يلائم صبواته الى الاصلاح والتهذيب فيمنع عملا بمنصبه الجديد ـ المسجد من الاثم وينزهه عن التنابز والهجر واللغو بالباطل ويحمل الناس على ان يعمروه بالخير والصلاح .

---

(١) اعتمدنا في وصفه على ترجمته من الاستيعاب .

فكان بطبيعة ميله الذي رشحه لهذا العمل ، وبطبيعة مهمته الجديدة يستقل الطريق الى التوجيه والاعداد الاجتماعيين لتطور اجتماعي يمكن ان يستخلص منه وعي صحيح .

وكان من مهمته الجديدة قدوة حسنة ومثلا صالحا في حسن الاحدوثة وصدق اللهجة وعفة النفس والازار فما كان بالواعظ لا يتعظ ولا بالناهي لا ينتهي ولا بالآمر أمرا لا يكون اول العاملين به ، لذلك كانت مهمته تسهل عليه لانها المهمة الطبيعية بالقياس اليه .

وليس هذا بدعا في الحياة الهاشمية وان كان بدعا في جاهلية الحياة.

رجل عنده من السعة نعمة محسودة ومن الجاه سلطان نافذ محمود .

ويد من النعمة والجاه طائلة تمتد الى حيث تشاء شهوات النفس وخائنة الاعين ومنطويات الصدور .

في زمن يتسع للتمادي ولاعلان الدخائل .

وفي بيئة اوسع من زمنها تماديا في الشهوات وفي الخيانات وفي اعلان الطويات .

رجل تأتت له كل تلك الدواعي لمثل تلك الحياة فانصرف عنها وألجم نفسه ثم ألجم الناس عن غشيانها ودعاهم الى الفضيلة التي أبان حدودها في نطاق المسجد وداخل اسواره ، فليس حلا لرجل ان يتخلع في المسجد او يتماجن في قول او فعل ، وليس حلا لرجل ان يدخل الى المسجد ظلا من ظلال الحياة وراءه ولا لازما من لوازمها .

والدعوة الى هذا في داخل الحرم وفنائه دعوة لعلها ترشح الى خارج المسجد ثم تفيض بالتدريج كما يريد لها العباس .

ان هذا رجل خليق ان يكون زعيما عظيما يقود الى خير ويدعو الى صلاح .

ومن هنا التقى العباس مع سلفه الكريم فكان بدعا في الحياة

الجاهلية ، ولم يكن بدعا في الهاشميين بل كان جوادا جرى على اعراقـه ، وبدرا استهل منازله وآفاقه .

* * *

وكان الى هذه الخصيصة ـ تتفتق فيه اريحية ابيه وجده فينبجس الحيا من انامله المبسوطة طلق المحيا منشرح الصدر ، ويغدقها كفا هاشمية تخضر بها نفوس العفاة والبائسين ، وتتضرم منها نـار القرى للحاضرين والمسافرين ، يشهد له بذلك « الصادق الامين » فينعته حين يتحدث عنـه بأنه « اجود قريش كفا واوصلها رحما » .

وليس غريبا في المطعام السمح الكريم ان يكون وصولا للرحم بـرا بذوي القربى ، فان من تطيب نفسه بالنوال ، ويتهلل وجهه للعطاء وتطـول انامله بالرفد يضعه عند من يعرف وعند من لا يعرف من كل طالب ، حري ان يكون اطيب نفسا وأبش وجها واطول أنملة بصفايا المال واعلاق العطاء في وشائج القرابة واواصر الرحم .

كفل جعفرا ابن اخيه سنة عسر ابي طالب وفدى عقيلا يوم بدر .

وكان لا بد لابي الفضل من خلقي الكرم وصلـة الرحم لانها مـن مقومات الزعامة ومتممات الانسانية وقلما تجد نفسا تتسـع للزعامة ولا يكون لهذين الخلقين فيها موضع والعباس زعيم حق تجتمـع له صفـات الزعيم كلها او كثرتها .

فكان الى جانب اريحيته وبره أصيل الرأي قـوي النفس ولرأيـه السديد في حياته الخاصة وفي الحياة العامة آثار محمودة عادت عليه بالخير فجعلته من اكفاء الزعامة النافعة ، وعادت على الحياة العامة بأنفع ما تعود حياة زعيم مخلص حاضر الذهن حي الضمـير فقد كان ينبثـق رأيه من صميم المحنة واحشاء المشاكل فجرا وضاء يعرف الناس على وضحه الطريق

السوي الى دار الامان والطمأنينة وكان في اليوم الصحو ذخرا يلجأ اليه الناس فيما يعتاص عليهم من عقد الحياة (٢) .

وفي كل حال فقد كان العباس يصـــدر عن الفطنة والعقـــل والخبرة ويتسلح بمنطق قوي الحجة واضح البرهان .

كذلك كان في الجاهلية .

ونحن انما نذكره في القسم من هـــذا الكتاب كما ذكرنا ابا طالـــب وحمزة وكما سنذكر جعفرا لانا نريد ان نثبت ان هذه الصفوة من الناس هم ــ بأنفسهم ومزاياهم ومراكزهم من جاهليتهم في اسلام وســـلام فلا يكادون يحسون الخير حتى يسعوا اليه ولا يدعون الى صلاح الا لبـــوه مذعنين مجندين ، وتلك ميزة النفوس الخيرة المطبوعة على حب الخير .

* * *

رأينا العباس في الجاهلية زعيما عاقلا موفقا كريما برا مفكرا يديـــر اكبر مناصب قريش فيحسن ادارتها ويوجهها لنحـــو من انحاء التربيـــة الاخلاقية على وجه يدل على نزعته الروحية من جهة وعلى صدق خدمته من جهة اخرى .

ونريد الان ان نرى اثر ذلك كله في حياته الاسلامية ، وان نـــراه كيف يخوض لجة النور على ساحل ابن اخيه المنقذ .

انه ادخر من الجاهلية للاسلام ذلك الرأي وتلك الزعامة فزرعهما في حقل اخصب نباتا واسرع نماء .

صدع النبي (ص) بالرسالة فأسرع العباس للايمان سرا وابطأ عنـــه علانية يحكي بذلك اخاه وزعيمه ابا طالب ويلاقيه من ذلك على حكمتـــه

---

(٢) راجع الاستيعاب ودائرة المعارف للبستاني .

العالية ان يكونا باسرار الاسلام واعلان (الجاهلية) (٣) امنع للنبي ولدينه من اعلانهما الاسلام ومجاهدتهما للاصنام .

فهو اذن في ظاهر الامر غير مسلم ولكنــه لا يمنعه هــذا الظاهر ان يسعى بين يدي ابن اخيه نبي الاسلام الى المسجــد ليقف منه موقــف الحارس الامين حين يصف قدميه للصلاة وخلفه علي في صف وخلف علي خديجة في صف على دين ليس على وجه الارض غيرهم عليه يومئذ .

كيف تسنى للعباس ان يحرس هذا الدين ونبيه يعلن هــذه الصلاة التي تنذر الاصنام بالموت وتؤذن الشرك بأن يومه سينحسر بحرب تدمى فيها اعناق المشركين ، وللاصنام الدولة يومئذ وللشرك الصولة ؟

انما تسنى له ذلك برأيه الذي املى عليه ان يسرع الى الاسلام سرا فيندفع للنصرة بطبيعة ايمانه وان يبطىء عنه علانيــة فيستطيــع ان يجهر بالحراسة .

ثم اذا حم النزاع بين النبي وبين قريش وتفاقم الخطــب فأصبحت مكة في بحران من الاضطراب والغليان ، وجلا النبي — من اجل ذلك — عن مكة الى دار هجرته المباركة ، فماذا يصنع العباس ؟

أيلتحق بالنبي أم يتخلف عنه في مكة ؟ واذا تخلف في مكة اهــو على دينه وعلى رأي اهلها في محمــد وفي رسالته ؟ أفي تخلفه معنى مــن معاني الخذلان والخروج على النبي ؟

كلا ، فقد كان العباس « انصر الناس للنبي بعد ابي طالب » (٤) .

واذا قيل انه انصر الناس للنبي فقد تعين وقــت النصرة المناســب

---

(٣) لم اعبر بالشرك لاني انزه عنه ابا طالب والعباس ولو كان ظاهــرا تراد منه النصرة .

(٤) ترجمة العباس من الاستيعاب .

وزمنها الذي تعد فيه نصرة وهو هذا الزمن الممتد من بدء الدعوة الى يوم الفتح ومن هذا الزمن ايام تأخر العباس في مكة وتخلفه عن النبي .

والنصرة التي تعتبر نصرة انما تكون في ازمة تشتد بالمنصور وتستدعي ان يؤخذ بيده ويشد ازره واحوج ما كان النبي الى النصرة في بدء الدعوة وابان النزاع بينه وبين قريش في مكة فاذا كان في تخلف العباس عنه خذلان فمتى نصره ؟

انصره حين تطوعت له العرب وتم له الفتح والتف حوله جنود الله يجتاحون جيش الشرك ويخضدون شوكة الطغيان ؟

لا وانه انصر الناس للنبي بعد ابي طالب حقا واسمى معاني نصرته كان في تخلفه عن النبي في مكة ، وفي اظهار الممالأة والمماشاة لثورة قريش على ابن اخيه ، فقد لبس من هذا الظاهر ثياب الصديق لثورة قريش ــ وانه لعدوها الالد ــ وتدجج من تلك الممالأة بسلاح فاتك لا يقل فتكا عن سيوف المجاهدين واسنة الدارعين في سوح القتال وميادين الحرب .

وبهذا ضمن الى نفسه نصرة كان بها انصر الناس للنبي بعد ابي طالب، وليست نصرته للنبي سوى نصرة المخلصين للقضية الانسانية المضطهدة وتحيز البررة للنظام الحق .

خرج مع المشركين في بدر !

فهو اذن لم يقنع من المماشاة بالتخلف فقط وانما اراد ان يؤكدها للمشركين بانه دالف معهم الى حرب ابن اخيه ، وها هو يتخطى موقفه السلبي الى موقف ايجابي ليس وراءه شك انه معهم يستلئم للحرب وينهد في الرعيل الاول ليناهض محمدا ، ولكنه في الواقع كان ألبا عليهم مع محمد يزوده بأخبارهم وخططهم وخفايا اسرارهم (٥) على انه لم يقنع من لبثه في

---

(٥) الاستيعاب .

المشركين بهذه المهمة بل اضاف اليها انه كان يعصم المسلمين من الظلم والاضطهاد ما وجد الى ذلك سبيلا .

ثم ظن انه استوفى نصيبه من هذا الجهاد الصامت العتيد واشتاق الى ظهور المطهمات يطل من قبب سروجها على الميادين ويبعث منها الموت بسيفه الى آجال المشركين كتب الى النبي يستأذنه بالالتحاق به غير ان النبي اقره في مكة على هذه الثغرة يسدها سدا لا يستطيعه غيره وكتب اليه (بقاؤك في مكة خير) (٦) .

وكان موقف العباس هذا سرا بينه وبين النبي لا يعرفه حتى المسلمون ويتراءى لنا ذلك من وصية النبي للمسلمين يوم بدر الا يقتلوا العباس اذا قابلوه .

على انه حين اتم هذا الواجب على خير انحائه وصوره انقلب الى الصفوف المسلمة وقضى لباناته المشتاقة الى الصيال وابلى في « حنين » احسن البلاء حين انكشف المسلمون وتفرقوا عن النبي طرائق قددا ، كل في واد ، ومكث هو مع علي في نفر سبعة يمزقون الجمع المشرك بضرب دراك سديد يعرف مواقع المفاصل والرقاب فاذا انكشفت الغمامة المطبقة على النبي انطباقا وردت الهجمة الحقود ردا ارسل العباس من فوق نشز صوته العريض (٧) يدوي في تلك الافاق ويجلجل في بطون الاودية قويا يبعث الايمان والرباطة في روح المنهزمين من المسلمين .

---

(٦) الاستيعاب .

(٧) كان العباس جهير الصوت فاذا صرخ جلجل كالرعد قيل انه كان اذا صرخ بملء صوته اسقط الحوامل ، وقيل انه رأى اسدا يهجم على غنمة فصاح به فقرى مرارته .

ثم ينشد ــ وقد رضي عن موقفه وارضى نحيزة الفروسية في نفسه الظمأى الى مجالدة اهل الكفر ..

ألاهل اتى عرسي مكري ومقدمي ... بوادي « حنين » والاسنة تشرع
وكيف ارد الخيل وهي مغيره ... بزوراء تعطي في اليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة ... وقد فر من قد فر عنه واقشع

* * *

ثم كان بعدئذ ينهد الى خصوم الاسلام بسياسة سلمية يتألف بها أعلام المشركين كما تألف ابا سفيان بين يدي (فتح مكة) ويقودهم ليسلموا على نحو من الاسلام كيفما كان ، يسعى لذلك حريصا عليه حسن التصرف فيه ، ولعله كان يرى في هذا السعي خير الخصمين جميعا فهو في حين انه ينصر النبي (ص) ويوقع الوهن في صفوف عدوه باستلال من يستطيع استلاله من اعلامهم يقصر اجل الحرب ويحوز صفوفا جديدة الى جانب الحق وينقذ من ينقاد اليه من موت محقق ومن ضلال في الظاهر على الاقل ، ولعل هذا الظاهر ينجر الى الواقع بالتدريج .

وهكذا تتلخص حياة العباس في ايام النبي بعد الاسلام .

بالنصح والجهاد وبالنفع للناس والانتفاع من حصافته وزعامته معا .

وذلك ما عظمه في الاسلام كما عظمه في الجاهلية ، ومضى معظما بعدئذ معظما مرعي الجانب فاذا مر بعمر وابي بكر راكبين ترجلا حتى يعبر احتراما له واجلالا لمقامه (٨) .

وكان في الدولة الاسلامية مستشارا يعرف الصحابة برأيه اليمن

---

(٨) الاستيعاب .

والبركة ويعرفون فيه النضوج والاختمار فيرجعون اليه كلما تعقدت الامور او استحكمت الشبه وليس أدل على رويته وعظمته معا من موقفه انحكيم في تبلبل الرأي بعد النبي حول الخلافة وهي عقدة من اشكل عقد التاريخ حلا واخطرها اثرا .

توفي النبي وتولى الخلافة ابو بكر فاستكبر ابو سفيان ــ كبير الامويين ــ يومئذ ــ ان يصير الحكم الى « اقل حي في قريش » وذهب يتجول في ازقة المدينة ينادي :

بني هاشم لا يطمع الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الامر الا فيكمو واليكمو وليس لها الا ابو حسن علي [9]

ثم يفضي الى احياء بني هاشم فيطوف بهذه الاحياء مستنهضا منشدا:

ولا يقيم على خسف يراد به الا الاذلان عير الحي والوتد
هذا على الخف مربوط برمته وذا يشج فلا يبكي له احد[10]

ثم يهتف باسم علي ويتطوع له فاذا اخفق ورده علي خزيان بغير طائل حيطة على الاسلام وحرصا على سلامة الدين [11] انقلب عندئذ الى العباس

---

(٩) العقد الفريد .

(١٠) الكامل لابن الاثير .

(١١) قال ابو سفيان لعلي ابسط يدك ابايعك فوالله لئن شئت لاملأنها عليك خيلا ورجلا فأجابه امير المؤمنين علي والله ما اردت الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا ، وفي ص ٤٠٩ من شرح النهج جواب من امير المؤمنين على كتاب من معاوية اليه جاء فيه : وقد اتاني ابوك حين ولي الامر ابو بكر فقال انت احق بمقام محمد واولى الناس بهذا الامر وانا زعيم لك بذلك على

يستنهضه ويتطوع له ، ولكن العباس يأبى عليه ويحيله على علي صاحب الحق الاول في الخلافة .

وهنا يظهر من عظمة العباس جانبان عظيمان اعظمهما جانب الاعتراف لصاحب الحق بحقه فهو ــ على انه الاسن عمرا والاقلام في طبقة النسب المعترف له الى جانب ذلك بفضل العقل والعلم والرأي والكفاية للقيادة ــ هو على ما يعرف بنفسه من هذه الخصائص يتأخر الى موقفه من ابن اخيه علي فيكون تابعا وعلي المتبوع ، ويكون مأموما وعلي الامام ويفوض هذا الامر لعلي لانه صاحبه الشرعي الذي لا يجوز لاحد ان يقطع فيه برأي قبل ان يعلم ما عند صاحبه ، فان نهض علي فعلى العباس ان ينهض وان قعد فعلى العباس ان يقعد ، وليس للسن ولا للعمومة كلمة في هذا الموضوع ابدا وانما الكلمة للزعيم فهو احرى ان يثبت وان ينفي وان يتصرف كما يبدو له من حكمة ومصلحة .

واعظم ما يعظم هذا الجانب فضائل الاعتراف والانصاف والايمان وسلامة الرأي والمنطق .

والجانب الثاني عظمة العباس الاجتماعية التي ملأت نفس ابي سفيان وساقته الى منزل الزعيم الكفء الذي لا يجد بزعامته غضاضة ولا يرى بتوليه الامر حيفا او تجاوزا على طبيعة ما ألف ابو سفيان من تقدم النبلاء « الاريستقراطيين » ولم يكن ابو سفيان ممن تذوقوا الاسلام او آمنوا به بل كان حتى مات ممتلىء الصدر بنزوات الجاهلية وجماحها الذي لم يطمئن الى الديمقراطية والحرية والمساواة في الاسلام .

من خالف ابسط يدك ابايعك فلم اقبل وانت تعلم ــ ان اباك قد قال ذلك وأراه حتى كنت انا الذي أبيت لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين اهل الاسلام » الخ .

ولسنا نعني من هذا الحديث بأكثر من دلالته على علو العباس وحسن تصرفه حتى في مثل هذه المشكلة المحرجة التي لم تعرف الحياة الاسلامية العربية اشكل منها ولا ادق في حين انها ليست من المشاكل التي تتكرر او تتشابه ، ويدلنا هذا على ان العباس عبقري نادر متمكن في سليقة تقدر الحياة بمقدار صحيح .

رافق العباس في هذه المشكلة الخطيرة نفسها وترسم خطواته في اطوارها المختلفة تجد موقفه منها واحدا في جوهره وغايته وان اختلفت ذرائعها اليه واختلفت ألحان قوله فيها باختلاف تلك الذرائع التي تعده وتمنيه وتغريه في اقرار بيعة ابي بكر او نقضها .

* * *

اتتم رأيتم ابا سفيان يسعى اليه بتلك الحماسة ويستنهضه لاباء بيعة ابي بكر فيطمعه بالخلافة ورأيتموه يرجع ابا سفيان بخفي حنين وانه ليوافق ابا سفيان على مطلق الاباء وان خالفه بوجهة النظر فأبو سفيان يأباها بدافع العصبية والانانية ثم لا يبالي حياة الاسلام ، والعباس يأباها ايضا ولكن لانه يراها حقا لعلي في اعناق المسلمين ، وعنده مع ذلك من حياة الاسلام غرض يرد هذا الاباء الى الموادعة والعقود .

هذا موقفه من هذه المشكلة مع ابي سفيان .

فلنخط معه ــ اذن ــ خطوة اخرى في هذه المشكلة لنراه وجها لوجه مع ابي بكر وعمر (رض) وهما يراودانه على البيعة ايضا ويمنيانه الخلافة على ان تكون له ثم لعقبه من بعده اذا هو اذعن وفاء اليهما .

اقبل المغيرة بن شعبة على ابي بكر وعمر ــ وقد ضاقا بتخلف علي عن البيعة وبرما ــ فألقى على حيرتهما ضوءا من رأيه حين وجدهما ضيقين برمين يشتوران في الامر ويقدران له فقال :

« اترى يا ابا بكر ان تلقوا العباس فتجعلوا له في هذا الامر نصيبا يكون له ولعقبه ، وتكون لكما الحجة على علي وبني هاشم اذا كان العباس معكم » (١٢) .

هذا منطق زمني مكين في السياسة والدهاء لو القي على رجل ساذج يتعلق بحبال السلطان ويتشخص التاج والصولجان ، ولكن العباس رجل بعيد الغور عميق السبر لا تغريه هذه الوسائل ولا يغره هذا الدوران السياسي الماهر .

ويظهر ان هذا الرأي فرج عن الشيخين (رض) فاطمأنا منه الى ما يخمد الفتنة المنتظرة عادة من تخلف رجل كعلي له هذه المكانة وهذه المواهب وهؤلاء الاتباع .

وينهض العمران ومعهما ابو عبيد يسعون الى أبي الفضل فاذا استأذنوا عليه واستقر بهم المجلس تكلم ابو بكر فحمد الله وذكر النبي بما هو اهله ثم عرض للخلافة فارجعها الى الانتخاب وبنى على ذلك انه انتخب فأقر هذا الانتخاب لانه يجد بنفسه الكفاية للقيام بهذا الامر .

وما لنا ان نلخص نصا هو احوج الى ان يذكر بحرفه لانه مقابل بنص من العباس لا يغني عنه التلخيص ، فلندع ـ اذن ـ الوثيقتين تتكلمان وتتكاشفان بالحقيقة وجها لوجه فان عندهما من دقة الملاحظة وقوة النقد ما يغنيهما عن التلخيص والمناقشة ويغنينا عن الفضول والحشو.

قال ابو بكر : (١٣)

« ان الله بعث محمدا (ص) نبيا وللمؤمنين وليا فمن الله تعالى بمقامه بين اظهرنا حتى اختار له الله ما عنده فخلى على الناس امرهم لانفسهم في

---

(١٢) الامامة والسياسة .

(١٣) الامامة والسياسة .

مصلحتهم متفقين لا مختلفين (١٤) فاختاروني عليهم واليا ولامورهم راعيا وما اخاف ــ بحمد الله ــ وهنا ولا حيرة ولا جبنا وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

وما زال يبلغني عن طاعن يطعن بخلاف (١٥) ما اجتمعت عليه عامة المسلمين ويتخذونكم لحافا فاحذروا ان تكونوا جهد المنيع فاما دخلتم فيما دخل فيه العامة او دفعتموهم عما مالوا اليه .

وقد جئناك ونحن نريد ان نجعل لك في هذا الامر نصيبا (١٦) يكون لك ولعقبك من بعدك اذ كنت عم رسول الله وان كان الناس رأوا مكانك ومكان اصحابك فعدلوا الامر عنكم .

على رسلكم بني عبد المطلب فان رسول الله منا ومنكم ؟!

وكان العباس يصغي لابي بكر ويقف من كلامه الى اهم النقاط ليحاسبه فيها حساب المفكر العليم الموفق الى منطق السياسة وقوة البصيرة .

فاذا اتم ابو بكر كلامه وقفى عمر على كلامه بكلام اخشن التفت ابو الفضل الى ابي بكر يحاسبه على دعواه ويجاريه في هذه الدعوة لتكون الحجة ابلغ .

قال العباس بعد حمد الله :

« ان الله بعث محمدا ــ كما زعمت ــ نبيا وللمؤمنين وليا فمن

---

(١٤) يشترط الاتفاق المعبر عنه اخيرا بالاجماع .

(١٥) فأين الاجماع ؟

(١٦) اذا كان الامر انتخابا فما معنى جعله نصيبا للعباس وعقبه . أما السبب الذي ذكره فهو موجود حال الكلام وقبل الانتخاب كما هو موجود قبل ذلك .

بمقامه بين اظهرنا حتى اختار له ما عنــده فخـلى على الناس امرهم [١٧] ليختاروا لانفسهم مصيبين للحق لا مائلين عنه بزيغ الهوى [١٨] .

وان كان هذا الامر انما يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين.

واما ما بذلت لنا فان يكن حقا لك فلا حاجة لنا فيه .

وان يكن حقا للمؤمنين فليس لك ان تحكم عليهم .

وان كان حقنا لم نرض عنك فيه ببعض دون بعض .

واما قولك : ان رسول الله منا ومنكم . فانه قد كان من شجرة نحن اغصانها وانتم جيرانها » .

بخ بخ ابا الفضل !!

لا يستعظم الناس ما استعظموه من عقل « حبر الامــة » وســداد منطقه فانك ابوه ومن كنت اباه ان عليــه ان يرث هذا المنطــق الذي لا يجرسه هول الفتنة ولا يفككه فرق المحنة وان عليه ان يرقي حيث ارتقى عبد الله .. الى ذلك الاوج المشرف على دنيا الناس كما يشرف السحاب من افقه على الوهاد والمنخفضات .

نعم فماذا اجاب ابو بكر ؟

انصرف دهشا من شدة مراس هذا الرجل مؤمنا بأنه صاحب عقيدة ومبدأ لا تغره فيهما الاماني .

هذا ما نحتاج اليه من هذا الحديث .

---

(١٧) اعاد عبارة ابي بكر بالنص ليجاريه ثم يكر عليه بالحجة ، وكـلام العباس كله مبني على المجاراة والنقد في حدود دعوى ابي بكر وكلامه امـــا العقيدة التي ينطوي عليها العباس فهي ان الخلافة لعلي بالنص ولم يعرض لها لان الاقتصار دفع كلام مناظره ابلغ في المناظرة وأليق بالمجلس ولان العرض الى اثبات الخلافة لا يترتب عليه اثر عملي بعد حدوث ما حدث .

(١٨) هذا شرط الاجماع الصحيح اضافه وهو يقصد الى مفهومه .

أرأيتم الى العباس كيف يتخطى في هذه المشكلة الخطيرة معتدلا سويا مع اختلاف الدواعي وتباين المنازع ؟

ابو سفيان يستنهضه الى مناوأة ابي بكر ولابن اخيه او له الخلافة .

وابو بكر ووزيراه يريدانه على اقرار بيعة « العتيق » وله لقاء ذلك نصيب يرثه عقبه من بعده .

موقف متناقض الدعاة متضاد الدعوة ولكنه خرج منه مؤتلفا متفقا بعقيدة راسخة ونظر بعيد ومنطق سديد فما وادع نزعة من هذه النزعات الوافدة عليه وهو في داره لا يريم ينظر الى ابن اخيه ما يفعل .

لماذا قصد اليه ابو سفيان اولا وابو بكر ووزيره ثانيا ؟

انما قصداه اعترافا منهما له بالزعامة وبعد الاثر في عامة المسلمين وخاصتهم ، فأي الفريقين أثاره لناحيته قوي به واعتز جانبه .

هذا يصور لنا عظمته الاجتماعية ووطادة مركزه في النفوس .

ولكنه ابى ان يميل لاي الفريقين واعتز بشخصيته وبرأيه وبعقيدته وبنى هذا الاعتزاز على ذلك المنطق الدامغ .

فصور بهذا عبقريته وحسن تصرفه بمكانته الاجتماعية ووجاهته في الناس .

وحسب العظيم عظمة ان يدير مركزه الاجتماعي ويستغل ثقة الناس به للمصالح العامة ولخيرات الحياة مبادئها ودينها واخلاقها .

ولا يرد علينا ان العباس اذا كان معتقدا بأن الخلافة حق لعلي وكانت له هذه المنزلة الاجتماعية وهذا التصرف الحسن بمركزه الاجتماعي فلماذا لم يستغل ذلك لرد الخلافة الى ابن اخيه .

لان هذا غير وارد ، فان قعوده لمن حسن التصرف ومن استغلال الثقة والوطادة لخدمة المصلحة العامة والسياسة العليا .

فاذا اجلب وهاج كان عندئذ سيء التصرف والاستغلال من جهة ،

وكان من جهة اخرى خارجا على امر علي ورأيه في هذه المشكلة .

ولم يكن العباس يريد اكثر مما فعل ليدل بما فعل على رأيه في الخلافة فقط والامر بعدئذ لعلي ، فاذا رأى علي القعود فذلك هو الواجب الذي لا يتعداه العباس ولا يجوز له ان يتخطاه ، فهو ـ تبعا لعلي ـ لا يرى المناهضة والثورة لانهما يسببان الفرقة ويضران بالسياسة الاسلامية العليا .

* * *

قد يظن ظان ان ابا بكر وعمر حقدا على العباس موقفه منهما ورده عليهما ، وقد ينتظر هذا الظان ان يسيء « العمران » صحبة العباس فهما ايام خلافتهما اولى منه بالقوة واجدر بالاعوان والجند والاتباع .

ولكن الشيخين كانا مطمئنين الى سلامة نيته وصدق اخلاصه للدين واهله حين منع ما ارادا منه ، لذلك بقيت منزلته من نفسهما حيث هي بل لعل موقفه منهما اكد منزلته وعظمها في نظرهما لانها وقفة الرجل القوي في الحق ، الصارم في المبدأ ، العزوف عما يراه مخالفا لرأيه ولمنطقه .

وليس ادل على اطراد منزلته في نفسهما مما حدثناك به من ترجلهما حين يمر بهما العباس وهما راكبان .

وقد يلوح من كلامنا انهما انما كانا يعظمانه تبعا لتعظيم الناس اياه ، والواقع انه كان عظيما عند الناس ولكن تعظيم ابي بكر وعمر له يرجع الى عوامل عديدة لا الى عامل واحد، ويشترك في تركيزه في مكانه من نفسيهما ما اشترك بتركيز العظمة الواقعية في نفسه .

فاذا اعظماه فانما يعظمانه لانه عظيم حقا بنفسه وبمواهبه وبيته ــ اولا ــ

ولانه عظيم عند الناس موجه فيهم ــ بعدئذ ــ .

ولانه عظيم بمنزلته الروحية ووجاهته عند الله ــ قبل ذلك ــ .

ويدل على ذلك انه كان معروفا بالدعوة المستجابة المرجوة ، فكان يستسقى بوجهه الغمام ويستدفع الكرب (١٩) .

اصاب المدينة ـ ايام عمر ـ قحط شديد اجدب فيه العيش وجفت موارد الرزق ولاذ الناس ـ وفي طليعتهم الخليفة ـ الى ملجأ امرهم ومفزع غمهم يتوسلون بالعباس الى الله ان يدفع عنهم هذه النازلة .

ويقوم العباس مقام ابيه يسفر عن الناس عند الله فيتوجه اليه بنيته الخالصة ولسانه البليغ فيقول :

اللهم ان عندك سحابا وعندك ماء فانشر السحاب ثم انزل الماء منه علينا فاشدد به الاصل وادر به الضرع .

اللهم انك لم تنزل بلاء الا بذنب ولم تكشفه الا بتوبة ، وقد توجه القوم بي اليك فاسقنا الغيث .

اللهم انا شفعنا بمن لا ينطق من بهائمنا وانعامنا .

اللهم اسقنا سقيا وادعا نافعا طبقا سحا عاما .

الله انا لا نرجو الا اياك ولا ندعو غيرك ولا نرغب الا اليك .

اللهم اليك نشكو جوع كل جائع وعري كل عار وخوف وضعف كل ضعيف » ـ في دعاء طويل بروايات مختلفة (٢٠) .

ولما اتم هذا الدعاء استنزل به رحمة الله فأرخت السماء عزاليها وجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالاكام فأخصبت الارض

---

(١٩) الاستيعاب .

(٢٠) الاستيعاب ، وانه لغني البيان ما في هذا الدعاء من بلاغة تشير الى علو العباس في نواحي البيان وكل ما اريد قوله الان ان ألفت النظر الى هذا الاسلوب العالي بخطواته المنطقية وندائه العاطفي ، هذا الاسلوب العالي الذي استدر بمنطقه وعاطفته رحمة قوي غني كريم وهذا الدعاء البليغ دليل اخر على بصره بمواضع الكلام ومواجهة الامور .

واعيدت الحياة الى الناس .

وفي ذلك يقول حسان بن ثابت :

سأل الامام(٣١) وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس (٣٢)
أحيا الاله به البلاد فأصبحت مخضرة الاجناب بعد الياس

ويقول الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب :

بعمي سقى الله الحجاز واهله عشية يستسقي بشيبته عمر
توجه بالعباس في الجدب راغبا فما كر حتى جاد بالديمة المطر

وطاف به الناس يمسحون اركانه ويقولون :

« هنيئا لك ساقي الحرمين » .

هنيئا لك ـ ساقي الحرمين ـ هذا المقام وكل مقام كريم ضممت به طريفك الضخم الى تليدك العظيم .

* * *

هذه نواح من عظمة العباس في حياته الجاهلية والاسلامية وقد

---

(٣١) يريد عمر .

(٣٢) اي ورثه بالعمومة واخوة الوالد ويلخص هذا البيت بان العباس عم النبي فعبر حسان عن هذا المعنى بثلاثة تعابير هي الى الحشو والزيادة اقرب منها الى الانسجام والقوة وهي مضايقات القوافي ، وربما يوجه بأن الاشارة تعود الى البيت الاول اي انه ورث النبي بأنه يستسقي به الغمام وفي كل حال فليس البيت بشيء لولا التاريخ .

عنيت فيهما معا بالعظم الروحي الى جانب العظم الزمني جميعا هذا المزاج الذي يميز بني هاشم ، وهو الذي نريد جلوه في هذا الكتاب ونكثر من الادلة عليه باستنطاق افراد هذه الاسرة ، وهو السبب الذي دفعنا لذكر المخضرمين منهم في هذا القسم ، فانا نريد ان نثبت انهم هم في الجاهلية والاسلام ما اختلفوا وانما اختلف عنوان الحياة .

وسأنهي الكلام برجلين منهم مخضرم ، وهو جعفر ، والزبير وقد مات قبل الاسلام ولم يكن سرد من سردت منهم الا كما اتفق وذلك يدل على انهم كلهم صالحون متساوون ، ولادل على هذا تركت التسلسل حسب الاتفاق فلم اقصد الى تقديم او تأخير لسبب خاص ، نعم قصدت ان يكون المخضرمون متجاورين وان يكون الاخير جاهليا ينتهي به هذا القسم .

جعفر

تتصل جاهلية جعفر واسلامه بود ازلي في نفسه قديم وتلتقيان زمن البعث في واحة من تلك الصحراء المضطربة فلا تتناكران ولا تتنافران وانما هي اللقيا الحبيبة المشوقة المنتظرة تتعانق فيها الحياتان ثم تلتصقان ثم تمتزجان بسحر « جعفري » عجيب فاذا هما بشيء واحد حقيقة اما الاثنينية فقد كانت امرا تجريديا فرضيا لم يلبث حين كانت اللقيا الحبيبة حتى زال .

في نفس جعفر طبيعة الغيث وكرم الديم ، خلقت من الخير وطبعت على تقبله واعطائه وما يوماها من الجاهلية والاسلام الا كمكاني الديمة من سباخ الارض وطيب الصعيد .

.. اقبل عليها الاسلام بكل معانيه المثلى فوجد فيها مكانه ممهدا كأنها منه على موعد منتظر وكأنه منها على يوم معلوم .

جعفر ؟

ومن لا يهتز لذكر هذا الرجل وينغمس ساعة من ذكره في جنة وارفة الافياء مخضلة الظلال ؟.

من يذكر جعفرا ولا يزدهي عطفاه ويشمخ رأسه طامحا يحلم بأطياف البطولة وطماح المجد ؟

اسم جعفر يذكر بالنبل والنجدة والحفاظ والقوة والكرم والرحمة ويسلسل في النفس نشوة روحية تندى بطلال المبدأ الصحيح ثم تمتزج برشح الفتح الجياش بمعاني الاصلاح والانسانية .

تتصل جاهلية جعفر واسلامه بود ازلي في نفسه قديم .

وتلتقيان زمن البعث في واحة من تلك الصحراء المضطربة .

فلا تتناكران ولا تتنافران ولا تتجهم احداهما للاخرى وانما هي اللقيا الحبيبة المشوقة المنتظرة تتعانق فيها الحياتان ثم تلتصقان ثم تمتزجان بسحر « جعفري » عجيب ، فاذا هما شيء واحد حقيقة اما الاثنينية فقد كانت امرا تجريديا فرضيا لم يلبث حين كانت اللقيا الحبيبة حتى زال .

أأكتفي وتكتفون من تصوير جعفر بهذا الايجاز ، ونقنع منه بهذه

الاشارة الوامضة السريعة ؟

لا ، وان صح الاكتفاء بذلك والوقوف عنده فمن هذه الخلاصة الموجزة ينبثق سر جعفر وتنماز شخصيته .

وماذا تريدون من رجل اكثر من ان تحل به روح الاسلام وهو في الجاهلية ؟ ومن طلب المزيد على ذلك في امتياز رجل فانه غير مستقر من الاسلام على فهم صحيح يعرف ما للاسلام من اخلاق وشرائع في الحياة المنظمة العالية .

يصح ــ اذن ــ ان نجتزىء من حديث جعفر بهذه الصورة الطبيعية المتقنة الخطوط البعيدة عن الاذهان والاصابيغ .

ولكن لجعفر شخصية محببة قوية تجذبنا الى شيء من الاطناب فيها ، والى الوقوف عندها واللبث لديها فلن تسمح لنا ابدا ان نعبر بها مسرعين على ما في هذه السرعة من ضابط صحيح جامع لكل سمات جعفر وطوابعه ومميزاتــه .

ولعل هذا الضابط القصير العريض ادعى للاطنــاب او لشيء مــن الاطناب على الاقل ، فان نفسا هذا شأنها لحرية ان تكشف فيها الدلائل التي انتزع منها هذا الضابط القصير العريض ليكون العلم بها على هذا النحو ادنى الى العلم والمنطق والفائــدة واقرب الى الايمان والوثــوق والاستفادة

كانت نفس جعفر طيبة الطينة علوية التكوين صافية الفطرة مطبوعة على الخير مثل خلقها كالمزنة الوطفاء خلقت لتكون خيرا ثم لا تبالي ايــن وقعت في سباخ الارض ام طيب الصعيد ، فهي ديمة كريمة خــيرة تعطي الخير في كل حال ولا يضرها ان تعطي فيرد عطاؤها ويجحد .

كذلك نفس جعفر فيها طبيعة الغيث وكرم الديم ، خلقت من الخــير وطبعت على تقبله واعطائه ، وما يوماها من الجاهلية والاسلام الا كمكاني

الديمة من سباخ الارض وطيب الصعيد .

ومن هنا كانت اللقيا زمن البعث حبيبة أليفة ودية بين جاهلية جعفر واسلامه لا تناكر فيها ولا تنافر ولا تجهم وانما هي اعتناق ثم التصاق ثم امتزاج ذابت فيه الاثنينية وردت الى وحدة حقيقية ازلية .

شبـــه

واي غريب في ان تكون نفس جعفر تلك النفس الصافية الطيبة يقبل عليها الاسلام بكل معانيه المثلى فيجد فيها مكانه مهيأ ممهدا وثيرا كأنها منه على موعد منتظر وكأنه منها على يوم معلوم على انه لم يبرق اليـــها ولم تبرق اليه ولم يتفقا من قبل على لقاء غير الاتفاق النفسي المعد في التكوين.

اي غرابة في هذا وجعفر من هذا البيت الطيب المتوارثة فيه هـــذه النفس ارثا متنقلا الى كل جيل من اعقابهم ؟

واي غرابة في هذا ونفس جعفر هي معجزة هذا البيت الكريم تجيء منهم على اشكال وفنون وتنتقل في ظهور وبطون وهي في الواقع هي هي تكبر وتصغر وتقوى وتضعف حسب نسب اشخاصها من ذلك ولكنهـــا متقاربة او شبه متقاربة في كل حال .

ألم اقل : ان كل هاشمي يلخص ما للهاشميين من شلكيات ومعنويات تميز كونهم الخاص ؟

ومن كان في شك من هـــذا فليسمــع الى قـــول النبي (ص) فاني استوحيته حين ادعيت ذلك .

قال لجعفر « اشبهت خلقي وخلقي [1] » .

---

(١) الاستيعاب وشرح النهج جـ ١ ص ٤٠٧ .

وقال : « خلق الناس من اشجار شتى وخلقت انا وجعفر من شجرة واحدة » او قال « من طينة واحدة (٢) » .

فهل الشبه في الخلق والخلق غير التلخيص الذي ادعيته ؟

وهل اتحاد الشجرة او اتحاد الطينة غير ما احاوله من هذا التلخيص البليغ الذي تفرغه كل نفس زكية من هاشم عن اختها وتعبر به عن صاحبتها ؟

الخلق ؟

معلوم انه الشكل والتقاطيع والصور ، وكثيرا ما يقع الشبه بين الارحام وبين غير الارحام ، ولا يلزم الشبه الشكلي ان تتشابه المعاني والارواح فرب شبه شكلي بين أب وابن مقرون الى تباين بعيد بين روحيهما ولعداوات الاباء والابناء واختلاف مبادىء الاولاد ومبادىء الوالدين تاريخ معروف عند هذا البشر .

فما قيمة هذا الذي يعتني بذكره النبي اذن ؟

قيمته بتمام الانسجام في شبه يقوم على طرفي الخلق والخلق .

ولذلك لم يقتصر النبي (ص) على الخلق ـ بفتح الخاء ـ بل اردفه بالخلق ـ بضم الخاء ـ والقيمة هنا ، فليس الخلق الا الغرائز والصفات والسجايا والشمائل التي يفطر عليها المخلوق وتتمايز بها حقائق الخلق يعلو بها من علت نسبته منها ويسف بها من خفت موازينه فيها .

ويشبه هذا التعبير بالشجرة او الطينة في الدلالة على الشبه والقرب في الاعم من الخلق والخلق وآية ذلك قوله « من اشجار شتى » يثبت لغيرهما التفاوت بالصور والمعاني فاذا أثبت ذلك لغيرهما فقد ثبت لهما الاتحاد فيما اختلف فيه غيرهما بمقتضى هذا السياق ، وكأنه قال : انا

---

(٢) شرح النهج .

وجعفر من معدن واحد او من معمل واحـد والناس من معادن ومعامـل شتى . بكل ما للحجرين من المعدن الواحد وبكل ما للنتاجين من المصنع الواحد من وجوه الشبه المادي والمعنوي ومن سمات التقـارب الهيكلي والروحي . وذلك قوة في تقريب الشبه بينهما .

والشبه على هذا النحو اوسع من التلخيص فهو ان لم يكن تكرارا على نحو من التوكيد فهو بيان وتفصيل لا اجمال وتلخيص .

فاذا كان النبي يعبر عن وجه الشبه بينه وبين جعفر بهذا النحو من السعة والبيان فأنا معذور حين اختصر هذه السعة بكلمة « تلخيص » ثم انا معتمد في هذا التعبير على مصدر وثيق .

ولعل ذكيا من قرائي ينتقدني بعدم الاحتياط في حكم تعبيري العام المفاد الشامل لكل هاشمي في حـين ان دليلي لا ينهض بغير فردين همـا النبي (ص) وجعفر .

ولكن مناسبة الحديث عن جعفر هي التي اقتضت ان تؤثر ما يختص بجعفر من هذا الشبه ، وفي تاريخ الهاشميين ــ بعدئذ ــ ومأثوراتهم مـا يضمن لنا صدق العموم وصحة التلخيص الشامل ، على ان تخصيص هذه الكلمة لجعفر لا يوجب ــ منطقا ــ خصوص حكمها فيه بل يتعداه الحكم الى كل من دلت حياته على صدق التلخيص وصحة الشبه ، فاذا شذ عن ذلك احد فان علماء الاصول يقولون : ما من عام الا وقد خص .

* * *

لم يجيء هذا البحث عفوا من القلم ولا اتفاقا من الخاطر ولكن قدرته تقديرا ، وفكرت فيه تفكيرا ، لاجد موثقا لتعبـيري بالتلخيص اولا ، ثم لاعود بعد ضمان هذا التلخيص الى نفس جعفر هذه النفس التي تشبـه نفس النبي فأقف الى بعض اسرارها .

اخصص النبي – حين شبه جعفرا بنفسه – زمن الشبه في الاسلام ؟
افرق بين الخلق والخلق ؟
انص على فصل بعينه حين وحد بين شجرته وشجرة جعفر ؟
لا .

اذن فقد كان جعفر في الجاهلية اشبه الناس برسول الله في الخلق والخلق وكان في الجاهلية ايضا وكان من شجرة رسول الله وطينته كما كان في الاسلام كذلك .

وكان رسول الله في الجاهلية محمدا الصادق الامين ثم كان نبي الاسلام الصادق الامين لم تختلف نفسه ولم تتباين ولم يطرأ عليها بعد الجاهلية سوى الصدوع بأمر الله والتنفيذ لامر الاصلاح على شرط الامانة المستقرة في نفسه قبل البعث باربعين سنة بل منذ علم الله انه مرسله الى هذه الارض بشيرا .

فأي غرابة بعد هذا الشبه في ان تكون لجعفر نفس علوية ملئت حيوية وروحية ثم يأتيها الاسلام على غرة فيجدها على اهبة الانتظار ، يدعوها فتلبيه ويبعثها فتندفع لامره خاضعة لكأنه عرق فيها وشخب دمه في اوردتها وعروقها قبل اجيال !

لا شيء من الغرابة في ذلك بعد ان يكون المشبه به نبي الاسلام وبعد ان يكون وجه الشبه ، الخلق والخلق معا وبعد ان يخبر عن هذا الشبه المشبه به نفسه .

* * *

كيفية الشبه

كان جعفر يشبه النبي (ص) في الخلق والخلق وحسب جعفر من

العلو ان يشبه محمدا في مبناه وفي معناه ثم حسبنا من هـذا الشبـه ان يكشف لنا عن طهارة جعفر وقدسه وهو في الجاهلية .

هذا ما نراه في تفسير الشبه بين الرسول وبين جعفر .

ولكن كيف اشبهه ! وما حقيقة هذا الشبه ؟

عين النبي (ص) لهذا الشبه مركزين عامين تنشعـب منهما جهـات كثيرة وتتصل بهما فروع شتى كلها متواصلة لا يكاد بعضها ينفك عـن بعض .

خلـق

والشبه المعني بالخلق ـ بفتح الخـاء ـ ليس الشبـه بالملامـح والقسمات وظواهر الصورة فقط فليست هذه الا مظاهر لا ينجر فيهـا كل الشأن .

وللخلق معان وقوى تقابل هذه المظاهر التي تحل من الخلق محـل الالفاظ من المعاني او محل الازياء والملابس من الاجسام وبعض هـذه المعاني التي نعنيها ربما كان ألزم للنفس منه للصورة والتركيب ولكنه مع ذلك لا بد من فهمه من « الخلق » حين تشبه رجـلا بآخر في الخلـق والخلق معا .

هذه القوى او هذه المعاني او هذه الصفات ـ او ما شئته فعبر ـ هي شدة الاسر وقوة البنية وصحة الجسم ومتانة التركيب وصفاء المزاج .

ولا بد من اعتبار هذه الامور ومـا اليها من المقومـات البدنية في الشبه الخلقي قبل لحاظ الملامح والقسمات اذا اردنا ان نقيم لهذا الشبه وزنا خاصا ، بل لا بد من اعتبارها ان اردنا ذلـك او لم نرده فان النبي ـ وهو الذي اوتي جوامع الكلم ـ عناها وعينها حين عطف على «الخلق»

الخلق وانما نقطع بأن النبي عناها لان خلــق النبي (بالضم) لا يستغني عنها ولا يوضع في غير انائها لان الاجسام الضئيلة الضاوية لا تثبت لعبء الاخلاق المتينة القوية ، فالعدل والرحمة والانصاف والاناة وسلامة الفكر وصدق النظر وليان الطبع ثم العزة والصدق والامانة وما الى ذلك مــن الصفات والاخلاق كلها محتاجة الى شــدة الاسر وقوة البنية وصحــة الجسم وصفاء المزاج وسلامة الاعصاب وقلما تتفق هذه او بعضهــا لذي عاهة بدنية او اختلال صحي فلا تصدق من يقول ان الحاد العصب المندفع المزاج او الضعيف المهزول تستقر عنده طبائع العدل والانصاف والرحمة والحلم وسعة الصدر ، ولا تصدق من يدعي ان هذه الطبائــع لا تستلزم عشرات من امثالها وان عدمها لا يستدعي العشرات من اضدادها .

ومن يفرغ العصبي من ثورة اعصابه والنحيــف من ادوائه للنظــر والملاءمة بين هذه الطبائع وبين مواضعها من الحياة ؟

اقول لا تستقر هذه الطبائع عند المصابين بأجسامهم وامزجتهم ملتفتا الى انهم قد يظفرون ببعضها ساعة من العمر ولكنهم لا يلبثون حتى يعودوا الى التنكر لها والنفور منها ، وهــذا هو معنى عــدم الاستقرار وعــدم الاستقرار يساوي حذف الاضافة ـــ على لغة من يتكلف الصنعة ـــ .

اذن فقد كان جعفر يشبه النبي لا بمجرد الملامح والصورة فقط بل كان يشبهه ـــ الى ذلك بصفايا المعاني الجسمية التي تتكامل بها الرجولة وتبتنى عليها صفات الكمال الجسدي ، وكان لاركان جسمه المتين وخلقه المنسوق المنسجم احسن الاثر في محاكاة نفسه لنفس النبي بالخلق وكان لا بد لجعفر حين تستوي له اخلاق محمدية من اناء محمدي يضع فيــه تلك الاخلاق .

واطلاق الشبه بالخلق في عبــارة النبي يســع الشبه بكل هـــذه الخصائص فلو ان جعفرا كان يشبهه بالملامح فقط من دون قواها وحيويتها

نعبر ــ اذن ــ بكلمة اضيق من كلمة « الخلق » افقا ومدلولا كالصورة او الشكل مثلا .

خلـــق

وكذلك قل في الشبه الخلقي فان تشبيهه لخلق جعفر بخلقه تشبيـــه عام مطلق يدني اخلاق جعفر كلها من اخلاق النبي كلها .

كان جعفر يكنى ابا المساكين وهي كنية تأخذ بأيدينـــا وتقودنا الى مدخل شخصيته فاذا وقفنا على باب هذا المدخل تعاظمنا ما يشرق من لألاء هذا الكنز ثم فهمنا اسرار هذا الشبه الخلقي على نحو ما اطلقــه النبي ، شبها مستوعبا لكل نواحي الشبه .

وما يمنع جعفرا من ذلك وشبهه للنبي يرجع الى عوامله ومؤثراتــه الطبيعية فهناك عامل اللحمة والنسب ، وهناك العامــل الشكلي الناهض بنفسه للقيام بشروط هذا الشبه ، وهناك العامــل النفسي المفطــور على الانس بذلك المحكي .

ثم هناك عامل التربية وهو اهم العوامل في طبــع جعفر على تلــك الحسنات طبع صناع ، وحسب جعفر من هذا العامــل المنشىء انــه من مدرسة ابي طالب وقد صيغ منها على ذلك المثال الذي تخــرج عليه علي وان كان علي مدينا للنبي في اعظم تربيته ولكن النبي نفسه مدين لمدرسة ابي طالب وتربيته ــ ان صح اعتماد التاريخ المجرد عن المؤثرات الروحيــة ألم يكفله ابو طالب ؟ ألم يلزمه محاضرا ومسافرا ومسالمــا ومحاربا ؟ ألم يحرص على اطلاعه على ألوان الحياة العربية في اصطحابه اياه وفي تحصيله له وسائل التجارة ؟

ثم لما تبين له الحق منه ألم يلتحق به ليذود عنه ويمنعه وينصر دعوته

نصرا كان اس انتشارها وبذر نمائها ؟.

بيت ابي طالب كان مصدرا انبعثت منه اشعة النبوة وتسلحت منه الرسالة بالنصر والايد والاعوان وكان له في حياة النبي اطيب الاثر وان كان الواقع ـ روحيا ـ ان النبي سبب صلاح هذا البيت وانسره الميمون ـ وهو في الارحام ـ كان يطبع ابا طالب وابناءه على هذه التربية الصحيحة ولكن تسلسل الحوادث التاريخية اثبت ان النبي ربي في حجر ابي طالب وان ابا طالب ساهم في تربية النبي .

وفي هذا البيت الذي نشأ فيه النبي وانشأ فيه الرسالة المحمدية المثلى وتخرج على مثله بطل الاسلام ، في هذا البيت الكريم الخصيب نشأ جعفر تطبعه عوامل التربية اليقظى على تلك النفسية وتلبسه من نسيجها تلك الشخصية فأي مانع بعد هذا العامل وبعد العوامل الاخرى ان يشبه جعفر ابن عمه وان تحكي نفسه نفسه .

ابو المساكين .

فكيف تأخذ بأيدينا وتقودنا الى مدخل شخصيته ؟

فهل كان جعفر ابا المساكين حقا ؟

لا ، ونعم ، جعفر لم يكن ابا نسبيا لمسكين وانما كان ابا لآباء المساكين ولربيع الفقراء والبائسين وحسبه من هؤلاء الابناء عبد الله .

وهو مع ذلك ابو المساكين ، هو ابوهم بالبر والعطاء وهو ابوهم بالرحمة والعطف يوطىء لهم اكنافه ويوسعهم بأخلاقه وماله ويخفض لهم من جناح عطفه ما يردهم من العذاب الى الخفض والنعمة فهم عنده ايسار من الكرامة والعزة ايسار من الفقر والجوع .

فهو بهذا المعنى ابوهم حقا يفوق آباءهم حنوا عليهم ورحمة لهم وبرا بهم .

وهذا المعنى : عينه ادخلنا الى شخصية جعفر المتعة فرأيناه كريما

رحيما والرحمة في النفس من امهات الصفات وجوامع الغرائز المنتجة الولود التي لا تستطيع الانفكاك عما يحاذيها من كرائم الصفات النفسية .

هي لا تنفك بحال عن العدل والانصاف والنبل والشهامة والمؤاساة والشعور بالواجب وايتاء الخير واذا لازمت هذه الصفات فانها تأبى ما يخالفها من نقائص الصفات واوشابها ايضا فالرحمة التي تدفع صاحبها ان يشارك المساكين ويأسو جراح مسكنتهم بعطفه ايمانا بواجبه الانساني لا يصدر في ذلك عن رثاء ولا ابتغاء ثناء .

هذه الرحمة رحمة واسعة الصلات كثيرة الوشائج تستدر حلبها من ضروع شتى وتعتصر خلاصتها من اعناب مختلفة ، فلا نستطيع ان نرد عطف جعفر ورحمته هذه الرحمة على المساكين الى الرحمة وحدها مجردة عما شاركها في هذا العطف وانما نردها الى الرحمة والى ما اخلص جوهرها وارضعها شتى الاثداء الكريمة فلو له تستند الرحمة في نفسه الى انصافه وعدله ونبله ونجدته وشهامته ومواساته وايثاره المخير .

ثم لو لم يسند كل ذلك نظره الصادق ونظرته الى المصلحة الاجتماعية .

لو لم يكن ذلك وكانت الرحمة وحدها لما كان جعفر ابا المساكين وربما كان جوادا كريما كثير الانداد في البيئة العربية .

ولكنه كان ابا المساكين ــ فكان نادر المثال ــ برحمة تصب فيها تلك الروافد الثرة المسلسلة جميعا لذلك نحن لا نستطيع ان نرد عطفه الى الرحمة المجردة وانما يرد عطفه الى الرحمة الممتزجة بكل صفات جعفر الكريمة الندية بنفسه النبيلة العظيمة .

ابو المساكين هذه الكنية الكريمة ترينا جانبا من نفسية جعفر وترينا في هذا الجانب وجها من وجوه الشبه بينه وبين النبي على هذا النحو الجامع لامهات الفضائل وهو شبه غير مقيد في زمان ــ كما قلنا ــ وانما

هو الشبه العام يساير فجر حياة جعفر في الجاهلية حتى مغربها في ميادين النضال المستحر ، وفي مغربها مواضع للشبه لا تقل نضارة وحيوية عن مواضعه في فجرها وبين الفجر والمغرب سلاسل ذهبية من هذا الشبه نرى بعضها في هذا الحديث .

* * *

لقد رأينا جعفرا في جاهليته يشبه النبي بهذه الرحمة الممتازة وبما يتفرع عنها وبما يلزمها من تلك السجايا الغر وبما يلزم لوازمها من صحة الرأي والغيرة على المصالح العامة بروح اجتماعية فضلى ، سبيل معرفتها فيه غيرته على المساكين وهم الافراد المستضعفون في الامة وهل الروح الاجتماعية العادلة غير هذه الغيرة على الافراد المستضعفين ومواساتهم واشعارهم بأنهم أحرياء بالكرامة والتفقد ، احرياء بأن ينالوا حظهم من العيش وحقهم من المساواة .

ان هذه ليست روحا اجتماعية فقط وانما هي مثالية في الروح الاجتماعية وضمير حي روي لم ينبثق من وعي الامة يومئذ نظيره غير تلك الضمائر التي فرضته وافرغت فيه من سرها .

وفي الاسلام ؟

هو في الاسلام اولى بهذا الشبه واحرى ان تتجدد نفسه في عيد الانسانية التي تكاملت شروطها بالاسلام وبلغت كمالها في حدود شريعته الغراء هذه الحدود التي عرفها جعفر في نفسه منذ طفولتها الباكرة واشتاق ان يلبس من اثوابها كل النفوس اثوابا جددا تحكي جدته في ذلك العالم العتيق الممزق البالي .

وهل يصح في منطق ان يكون هذا الرجل الجاهلي البدع اقل شبها بالنبي في الاسلام في حين انه كان في الجاهلية يجدد ايمان نفسه في كل

يوم وعند كل مشهد من مشاهد حياتــه ؟ وفي كل رنــوة لمسكين بعطف ورحمــة ؟

انه في الاسلام اولى ان يشبه النبي وهو بذلك اشبه حــين تصهره اشعة النبوة وتبهره انوار الرسالة فتصقل جوهر نفسه كما تشاء روحية الاسلام وانظمته وتعاليمه وتضيف الى ذلك البذر النامي المتفتق للحيــاة عطرا متضوع الشذى زكي العرف .

والذي حدث فعلا ان نضجت نفس جعفر في بدء الدعــوة ونفوس الناس ما تزال فجة تتنكر للاسلام وتنكر طعمه وريحه ممعنة في انكــاره والتنكر له الى ابعد حد واخطره مطمئنة الى تلك الحمأة من الشرك والى تلك المراغة من اوباء العيش واوزار الحياة تركب العناد والطيش للدفاع عنها ولجهاد الاسلام بين يديها وجعفر ونفر من رفاقه الصلحــاء وحدهم يمشون هونا وادعين حالمــين مطمئنــين لدينهم الجديــد يدافعون عنــه ويجاهدون بين يديه وينصرونه .

ودليل هذا النضج ان النبي انابه عن نفســه في هجرة المسلمين الى الحبشة حين اشتد اذى المشركــين على من آمنــوا وحــين حز بالمسلمين اضطهاد قريش لهم بما يفتنهم عن دينهم ويردهم الى وباء الوثنية المهلــك ولئن كان الاذى والاضطهاد سببين لهجرة المستضعفــين من المسلمين الى الحبشة فانهما لم يسببا هجرة جعفر ولا يصح في منطــق ان يسبباها لان جعفرا لم يكن من المستضعفين الذين تنالهم ايدي قريش وانما كان كما كان علي وكما كان حمزة وكما كان من اليهما من فتيان هــاشم وآساد قريش ذوي الشوكة والمنعة والعز الذين ترتد عن عرينهم المساءات كليلة مروعــة ولاتهم بهم الا حذرة محتاطة خائفة .

فكما لم يهاجر علي وحمزة ومن اليهما كان يستطيع جعفر الا يهاجر وان يلبث في قومه يصيبه ما يصيبهم ويمنعه ما يمنعهم وقد كان المانع لهم

جميعا يومئذ ابوه ابو طالب .

ولكنه هاجر فلماذا ؟ (٣) .

هناك اسباب كثيرة تتضافر فتدعوه للهجرة وكل هـذه الاسباب لا تتصل بخوف الاذى او الاضطهاد وانما تتعالى عن ذلك الى غاية الانشاء والبناء والجهاد .

كان جعفر ابا المساكين فهو اولى ان ينوب عن النبي في رعاية هؤلاء المستضعفين الذين عضهم الاذى وحزبهم الاضطهاد وهو اولى ان يرافقهم الى مهاجرهم البعيد فيحوطهم بعطفه ورحمته وبره ويقودهم برأيه وحكمته وارشاده ويكون لهم مرجعا فيما يعرض لهم من مشكلات دينية ودنيوية فهو من النضج والفقه في الحياة والشريعة حيث يعتمد في تمثيل النبي تمثيلا صادقا في كل ذلك .

ونحن لا نرى في هجرة المسلمين مجرد فرار من وجه الظلم والاضطهاد فان الهجرة تحمل صوت الاسلام الناشىء الى ما وراء البحر وتشيع خبره الصحيح في تلك البلاد فاذا تساءل الناس هناك عن هذه الهجرة وعن اسبابها وعن الحوافز النبيلة التي ابحرت بهؤلاء القوم واغرتهم بالنزوح عن مواطنهم وعن اهليهم ليعتاضوا عن البلد وعن الاهل والجيران، مبدأ اسمى من الاهل والبلد والجيران ، اذا تساءل الناس عن هذا وعن امثاله ووقفوا على شيء من سره بلغهم صوت الاسلام وربما اخترق الى انفسهم وقر في اعماقها مطمئنا يأخذ بأعناقهم اليه .

ولا بد لنشر الاسلام وراء البحر من رجل يرفع صوته على نحو ما

---

(٣) تقول سيرة ابن هشام ان النبي حين رأى نفسه في عافية لمكانه من الله ومن عمه ابي طالب والمسلمين يقتلون ويعذبون قال لهم هاجروا الى الحبشة ثم يقص الحديث فراجع . وفي اليعقوبي مثل ذلك ايضا .

يجهر به النبي في مقره ولا بد لهذا الرجل من الكفايات السياسية والعلمية والدينية والدبلوماسية ـ على حد التعبير الحديث ـ ما يصح عليه اعتماد نبي دعوته لا تعرف حدا من الجغرافيا ولا تكتفي بالتوسع الجغرافي عن النفوذ النفسي المسيطر بمبادئه على الاخلاق والعادات والمعتقدات فهي دعوة تتوجه الى الدنيا كلها لتنسخ ما في الدنيا كلها من سلطان لمعتقد او عادة او نظام او سياسة لا تقوم على حق .

وليس اولى من جعفر بأن يقوم في هذه المهمة مقام النبي اما علي وحمزة ومن اليهما فقد كانت لهم اعمال لا تقل عن هذا العمل في بناء الاسلام ، من اجلها اخرهم النبي ووجههم في سبيله .

اذن فالنظر الى هذه الهجرة ينبغي الا يكون سطحيا قشريا نكتفي منه بأن المسلمين لاذوا اليها فارين منكشفين عن مكة حذر الفتنة والاضطهاد وانما هي ـ كما رأيتم ـ جهاد جديد في ميادين جديدة هيأت لفتح جديد لا تراق فيه الدماء ولا تزهق الانفس وليس سلاح هذا الجهاد غير علاقات جعفر مع النجاشي ومع غير النجاشي من اولي الامر هناك ، تلك العلاقات التي تكشف لنا عن نواح جديدة من عبقرية جعفر وامتيازات نفسه التي اشبه بها خلق النبي .

نعم كان لهذه الهجرة معنى اسمى من السلامة بالفرار وغرض يشتق نبله من نبل الدعوة الاسلامية نفسها ، فليست الهجرة الى الحبشة غير صدى كان يجب ان تتجاوب به آفاق من الدنيا وراء آفاق الحجاز ، ويجب ان تهتز به اجسام وارواح غير الاجسام والارواح العربية اعلانا لانسانيته العامة التي لا يتفاوت عندها حظ الاسود عن حظ الابيض ولا تختلف في رسالته الاحباش عن الاعراب .

وكانت هجرة جعفر سرا من هذا السر وسموا من هذا السمو بها تسنمت الهجرة ذلك الغارب الرفيع الذي ظل عنوانا من عناوين الفوز

الاسلامي في التاريخ فكان التاريخ بها شاهداً لجعفر بعلو الكعب وشرف المنزلة ، وماذا بعد شهادة التاريخ غير الصدق ؟

الى هنا ظهر ان هجرة جعفر كانت ضرورة لا محيص عنها في حين انها لم تنبعث عن خوف او فتنة وانما يدعو اليها انه ابو المساكين والمهاجرون عن بلدهم الى بلد هم فيه غرباء يدا ولسانا ووجها محتاجون الى هذه الابوة تفرج عنهم ما يجتمع عليهم من حاجات الايدي والاوجه والالسنة .

ثم يدعو اليها نضجه الروحي في دينه الجديد ليلي من امورهم الدينية حين تشكل عليهم الامور او تبتليهم الشبهات .

ثم يدعو اليها نضجه السياسي الى نضجه الانساني ونضجه الروحي فهو من المهاجرين مكان الوالي من الرعايا وهو من النجاشي ودولته محل السفير وان كانت سفارة غير معترف بها رسميا ، ولكن البلاغة والقوة ان تتمركز سفارة لاجئة غير معترف بها فيما تتمركز به السفارات الوطيدة المستندة الى دولة ومعاهدات وتبادل منافع .

وما تنفع الرسميات اذا اخفق ممثلوها وقد اخفق ابن العاص في سفارته لقريش عند النجاشي ان يسترجع المهاجرين .

وما تضر غير الرسميات حين تأتي بالفائدة المطلوبة وقد نجح جعفر عند النجاشي اكبر نجاح واعوده بالفائدة وظل مدة هجرته يدعو الى الله ويمثل الاسلام .

وتتلخص هذه العوامل بنيابة جعفر عن النبي في كل صلاحيات السفير المفوض ينفي ويثبت كما ينفي النبي ويثبت بناء على قواعد لا بد ان النبي زوده فيها بين يدي هجرته .

ومن هنا ابتعث اصحابه الى الحبشة مطمئنا بوجود جعفر ان لايغرهم في الحبشة بالله الغرور والحبشة مظنة للفتنة بدينها المسيحي وبما فيها من

موارد الرزق والثروة ولكن هذه المحاذير لا تخطر على البـال ما دام في القوم جعفر يضم صحابة الى صحابته ويضيف جماعة الى جماعته .

لم ار فيما قرأت نصا تاريخيا على ان النبي أدلى بالزعامة الى جعفر في هذه الهجرة ولا الى غيره ممن هاجر الى الحبشة وقد كان في المهاجرين عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم .

غير ان النبي في حكمته وحسن رأيه لا يأمر بهجرة لها هذه الاهمية من دون ان ينظمها ويتقن ظروفها ويجعل فيها سائسا ومسوسا ليستغـل منها ما يشاء ان يستغله من خير وفائدة وكأن التاريخ يقصد الى اغفال اسم الامير في هذه الهجرة وان صرحت باسمه الحوادث المؤرخة .

ولو انه امر بها هكذا فوضى لعادت بالخسران فان الروحية العربية مع الفوضى لا تستقيم ولا تذعـن بـل تأبى وتتمرد وتنشىء بحكمهـا وطبيعتها رؤوسا تتناطح واوجها تتدابر فالمدبر لا يقبل والمنحرف لا يستقيم وهكذا فلكل رجل رأي ولكل رأي عناد ولكل عناد جهالة .

أفيجوز ان يترك النبي اصحابه هكذا يهاجرون وهـو انما يأمرهم بالهجرة حرصا عليهم واحتفاظا بهم ؟

لا بد اذن من تعيينه رجلا منهم نهاضا بأعبائهم ولكن التاريـخ أغفل هذا الزعيم ، على ان البحث الذي اوجـب تعيين قائـد للهجرة اثبتـت استنتاجاته هذا القائد وارتنا الى هذا القائد في شخص جعفر فان خواتيم الهجرة ومفاتيحها وما بينهما من حوادث وحوار كل ذلك لا تظهر فيه غير شخصية جعفر ولو ان جعفرا لم يكن مسؤولا عن هذه القيادة رسميا لمـا ترك له المجال في حديثه مع النجاشي ولا اشرأبت اعناق تتصدى للجواب وللدفاع ولبيان حقيقة الموقف اذا كان الامر متروكا للفوضى ولاهمـال المسؤوليات ولكن كل ذلك ترك لجعفر يخطـو فيه كما تشاء منزلته فيهم بعلمه وحكمته وصراحته ـ كما سنقص ذلك ـ .

على انا حين نتابع الاستنتاج نستيقن من صدق النتيجة ، فلنمض مع جعفر الى نهاية هجرته ثم لنرافقه حين يعــود من الهجرة وقد فتح اخــوه خيبرا فسنرى النبي مقبلا عليه يعانقه احسن عناق واشوقه ثم يلتفت الى من حوله بادي السرور عظيم الفرحة فيقول له ما ادري بأيهما انا اشــد فرحا بقدوم جعفر ام بفتح خيبر [٤] .

قد يذهب الخائلون الى ان في هذه القولة حنانــا مدفوعــا بعوامل الرحم والقربى او انها كلمة تجاري شعور علي وهو فارس خيبر المظفر وقد عادت رايات غيره مندحرة دون هذا الحصن المنيع ولكن شأن النبوة ومقام محمد ــ في كل اعتبار ــ ارفع جدا عن المحاباة وعن الاندفاع بعاطفة من العواطف الا ما يتصل منها بالحق .

والواقع من امر هذه الكلمة انها تقف بين امرين عظيمين هما عودة جعفر وفتح خيبر والشك في فرحه بأيهما اكثر يماثل بين قيمتهما وقيــاس قيمتهما اثرهما في الحياة الاسلامية ولقد عنى هذه المقارنة عناية خاصــة ضمنها كل ما تدل عليه من اكبار عودة جعفر الناجحة نجاح فتح خيبر .

اعيدوا النظر في هذه الكلمة تجدوا انها ترحيــب لا بجعفر بن ابي طالب بل بالمهاجرين الذين يمثلهم جعفر ويعبر عنهم ويقودهم فاذا رحب به فقد رحب بهم جميعا لانه منهم بمنزلة العنوان .

ثم ستجدون ان المقابلة بين عودته وبين فتح خيبر ثناء ابلغ الثناء على حسن ادارته للسفارة ، واعتراف له بالاثر المحمود لهجرته على نحو جعل النبي يشك حقيقة أهو اشد فرحا بعــودة جعفر ــ يقدمها ذكرا ترجيحــا لها ــ ام بفتح خيبر مع ان لخيبر من بعد الاثر في حياة المسلمين والاسلام

---

(٤) راجع ترجمة جعفر في الاستيعــــاب وص ٤٠٧ شرح النهج جـ ٣ واليعقوبي في وقعة خيبر من تاريخه .

ما تعرفه التواريخ والسير من شؤون ذلك النصر العزيز الذي اذل اليهودية المتنمرة من جهة وخلع قلب الوثنية الثائرة من جهة اخرى ومدمن هيبة الاسلام ثم مهد للفتح من جهات اخريات وليس ادل من هذا الشك على ان النبي كان يرمي من الهجرة الحبشية الى اهداف عليا وليس ادل منه كذلك على انه اصاب ما رمى اليه على نحو ما اراد ثم ليس ادل منه على ان جعفرا كان سفيرا له في الهجرة ومن هنا صح ان يثني عليه وحده ويعترف له ويقرن عودته — دون عودة اصحابه — بفتح خيبر في النفع وبعد الاثر ولو انه كان في المهاجرين كواحد منهم لم يجز في منطق النبوة والعدل ان يؤثر جعفرا دون اصحابه ولكنه حين آثره ضمن هذا الايثار معنى القيادة فكأنه حين رحب به رحب بهم جميعا .

ولعله بذل اخيرا على تآخي الاثرين اللذين اصابهما يد الاخوين علي في خيبر وجعفر في الحبشة .

تلك هي هجرة جعفر عينها وتلك هي منزلته من المهاجرين في واقع الحال ونحن قبل ان نحتاج الى استنطاق هذه الكلمة نجد في صلب حياته في الهجرة ظروفا تدل على تلك المنزلة من ناحية وتدل على كفايته لها واطلاعه بها من ناحية اخرى وتدل على ان الهجرة لم تكن فرارا وانما كانت ترمي الى اغراض اسمى من الفرار ومن هنا لم تطب نفوس قريش ببعد المسلمين واستقرارهم في ارض الحبشة لانهم علموا ان منعتهم في هذا البعد تكسبهم قوة وتوسعا يضيق عنهما ذرع قريش وخصوم الاسلام .

ولنستمع الى قصص ذلك من فم ام المؤمنين السيدة ام سلمة رضي الله عنها (٥) قالت : لما نزلنا ارض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي وأمنا على ديدننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه فلما

---

(٥) راجع سيرة ابن هشام .

بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم ان يبعثـوا الى النجاشي فينا رجلـين منهم جليدين وان يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، ــ وكان اعجب ما يأتيه منها الادم ــ فجمعوا له ادما كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا اهدوا له هدية .

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ابي ربيعة (٦) وعمرو بن العاص فأمروهما بأمرهم وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلما النجاشي فيهم ثم قدما الى النجاشي هداياه ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفعا اليه هديته قبل ان يكلما النجاشي وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى (٧) الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفـه نحن ولا انتم وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهـم اليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فان قـومهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم فأجاب البطارقة سؤلهم .

قالت : ثم قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما .

قالت : ثم كلماه فقالا له : ايها الملك انه قد ضوى الى بلدك منـا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليـك فيهم اشراف قومهم مـن آبائهم واعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم اعلى بهم عيـنا واعلم بما عابـوا عليهم وعاتبوهم فيه » .

---

(٦) وفي تاريخ اليعقوبي ارسلوا عمرو بن العاص وعمـارة بن الوليـد المخزومي .

(٧) أوى .

قالت : ولم يكن شيء ابغض الى عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم ـ تعني المسلمين ـ النجاشي .

قالت : فقالت بطارقته حوله صدقا ـ ايها الملك ـ قومهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فيرداهم الى بلادهم وقومهم .

قالت فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ـ اذن ـ لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان في امرهم » .

قالت : ثم ارسل الى اصحاب رسول الله (ص) فدعاهم فلما جاءوا ـ وقد دعا النجاشي اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال :

ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين احد من هذه الملل ؟

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن ابي طالب .

فقال له : ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف (٨) فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا (٩) من دونه من الحجارة والاوثان وأمرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنة وامرنا ان نعبد الله وحده لا شريك له شيئا وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

---

(٨) يسرد صفات الجاهلية السيئة ويحشر نفسه مع من أتاه وهو بريء منها وانما يقول ذلك ليبرز دفاعه ويحكم حجته .

(٩) هذا من نوع التقرير ايضا .

قالت ـ فعدد عليه امور الاسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما احل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان عن عبادة الله تعالى وانا نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك ايها الملك .

قالت : فقال له النجاشي :

هل معك مما جاء به عن الله شيء .

قالت : فقال جعفر نعم .

فقال النجاشي : فاقرأ علي .

قالت :

فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) .

قالت : فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصافحهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن ابي ربيعة ـ وكان اتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل فان لهم ارحاما وان كانوا قد خالفونا .

قال : والله لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه الغد فقال :

ايها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فارسل اليهم

فسلهم عما يقولون فيه .

فأرسل اليهم ليسألهم عنه .

قالت ـ ولم ينزل بنا مثلها قط ـ فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى بن مريم اذا سألكم عنه ؟

قالوا نقول والله ما قال الله وما جاء بـه نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن ابي طالب :

نقول فيه الذي جاءنا به نبينا (ص) هـو عبدالله ورسوله وروحـه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشي بيده الى الارض فأخذ منها عـودا ثم قال والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت ، هذا العود .

قالت فنخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال :

وان نخرتم والله ، اذهبوا فانتم شيوم (١٠) من سبكم غرم ثم قال من سبكم غرم ثم قال من سبكم غرم ما احب ان لي دبرا (١١) من ذهـب ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها فوالله ما اخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه وما اطاع الناس في فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا مقبوحين فردوا عليهما ما جاءا به (واقمنا بخـير دار مع خير جار) (١٢) .

---

(١٠) آمنون .

(١١) جبلا . والدبر بهذا المعنى لغة حبشية .

(١٢) يعرض اليعقوبي لهذه الهجرة باختصار ولكنه يوافـق السيرة في رسالة قريش في الحوار مع النجاشي وان اضاف بعض اللفظ ويذكر عمارة عوض عبد الله رفيقا لابن العاص ويقص عن عمارة قصة لا نحتاج الى ذكرها .

ثم تتم حديثها بان مناوئا ظهر ينازع النجاشي ملكه فوقع في نفوس المسلمين بهذا النبأ من الهم والحزن ما ملك عليهم اقطارهم فتوجهوا الى الله ضارعين ان يكتب النصر للنجاشي ويكتب له النصر فيتمكن من عدوه ويصفو له جو بلاده فيقيم المسلمون عنده يتقيلون افياء عطفه وحسن جواره .

* * *

نسوق هذه الوثيقة التاريخية على طولها لنهيء بها جوا من اصعب اجواء هذه الهجرة واحفلها بالانواء المختلفة والغيوم المتراكبة واكثر ما تكشف الظروف عن حقائقها اذا تعقدت وتأزمت واحرج فيها الامر .

ولم نر في هذا الجو الكثيف العاصف نجما غير جعفر يلمع ثابتا مستقرا لا تهز انواره تلك الانواء ، فماذا يستفاد من هذا ؟

يستفاد ان جعفرا هو الزعيم وان له كفاية بلغته هذه الزعامة بحق وجدارة ويستفاد اكثر من هذا ان جعفرا زعيم يحسب له خصومه الف حساب وحساب وان اولياءه يعتدون به ويذعنون اليه ويعتمدون عليه .

سياق الحديث يدل على مدى كيد قريش ومكرها وعلى تمرسها بدهاء يصيب حظا من السياسة غير يسير .

فحذرها من هذه الهجرة شاهد على بصرها بالحياة ، وفكرة الائتمار على هذا النحو من التدبير موفقة لا شية فيها وخطوات الخطة سديدة متقنة رشى يحبها الاحباش ويعجب بها ملك الحبشة ثم مفاوضته لاعضاء مجلس الملك ، ووزرائه واهل مشورته في ان يظاهروهم ويساندوهم عند الملك على تسليم المسلمين ، ثم اختيارهم لهذه السفارة ابن العاص الداهية الجليد الذي يقول ما حككت قرحة الا نكأتها ، كل ذلك تدبير متساند مرن وما يهم ملك الحبشة من امر هؤلاء اللاجئين الذين يصورهم له ابن

العاص بأنهم (غلمان سفهاء) خرجوا على دين قومهم ولم يتبعوا دين النجاشي وانهم فرار هم احوج الى ردهم الى اهلهم والى بلدهم ؟

وما يضره ان يسلمهم لاهلهم الذين يريدون لهم الخير كما يزعمون ويبتغون لهم الوسيلة لاعادتهم الى ما يرونه لهم من رشاد ؟

كان محتملا جدا ان يصغي النجاشي فيعيد المسلمين الى مكة مع ابن العاص وابن ابي ربيعة ولابن العاص وسائل للزلفى لدى هذا الملك من بيانه ومرونته مع هذه الرشى المحببة وبعد الاتفاق مع جماعة البطارقة على ان يظاهروه .

وكانت خطة قريش مسددة الى ذلك من كل نواحيها الا في شرط واحد شرطوه على النجاشي في رد المهاجرين اليهم (ان لا يكلمهم) فكان هذا الشرط وحده فجا في خطتهم ولو ان سفيري قريش لم يذكراه لامكن ان يجيب طلبهما من غير ان يكلمهم ثقة بدعواهما انهما اهل ولامكن ان يرى نفسه غريبا فما ينبغي ان يتدخل في امر الاقارب والارحام .

ولكن هذا الشرط ايقظ ضمير النجاشي وفتح ذهنه وحفاظه للتساؤل عن مغزى هذا الشرط فان كان السفيران على حق في دعواهما لا يكتمان له الخديعة ولا يداورانه في امر جيرانه فلماذا يشترطان في تسليم المهاجرين الا يكلمهم ؟ ولماذا هذا القيد المعمى الذي لا يقدم عليه الا ضعيف او اعمى ؟

على ان هذا الشرط وان كان وحده خطيئة من تدبيرهم المحكم فقد كان لا بد منه لان في القوم جعفرا واذا كلمهم فلا محيد ان يكون المجيب جعفرا واذا اجاب جعفر فهو الفشل وهي الخيبة لا ينتظران مع كلام جعفر غيرها .

هذا ما كانت تخشاه قريش اذا كلم النجاشي جيرانه وهذا ما اقلق عبد الله وعمرا فأبغضا ان يكلمهم النجاشي وألحا على البطارقة وعليه ان يتسلماهم بغير استماع اليهم .

وهذا الحرص على هذا الشرط حساب مهم لجعفر ولتأثير قوله ولعيقريته بخطط الدفاع والهجوم .

وقد حدث ما خشياه وتوقعاه من تكليمهم فقد انبرى جعفر يتدفق ببيانه فيضع كل صورة من صور دفاعه في مكانها الذي لا يملؤه غيرها ويجذب بجمالها وبدقة موضعها نفس النجاشي اليه جذبا لا مفر منه . ويجري في وضعه صور الجاهلية الدميمة وفي وضع صور الاسلام الوضيئة على مقربة من وجدان النجاشي وقلبه ويحرك بها اوتار نهاه وحسه .

ربما يظن ان الحق الذي انطق جعفرا جذاب بطبيعته ولا فضيلة لجعفر في جر النجاشي اليه ، وانه الحق ان جذاب ولكن طالما اضاع جمال الحق المعبرون ، وطالما قصرت الوسائل بالادلاء عليه فأضاعوه من حيث لا يريدون فالحق وهو نور بذاته لا يستغني عن الازياء والوسائل والمقربات ، والحق بدون وسائله ومشهياته فاشل لا يستطيع النجاح .

وانكار فضل جعفر في هذا الموقف كانكار فضل المصلحين والانبياء وذوي المبادىء في جهادهم وفي وسائلهم الى جلو حقائقهم وهل حقائق هؤلاء غير الحق بذاته والحق حق بواقعه وشكلياته وبمصاديقه ونواحيه .

ولعل غير جعفر يفشل لو انبرى للكلام ويرتج عليه ، ولعله لا يتوفر على احكام موفقة بهذا النمط الموفق ولا يجد من فقهه ونضجه سبيلا الى احتدام هذه الاساليب البارعة في تزيين الحق وتبشيع الباطل واذا اختل في المتكلم في مثل هذا الموقف الدقيق شرط واحد من شروط الموقف اختل الموقف كله وقضي فيه على المتكلم وعلى اصحابه بالاخفاق والحبوط .

وليس هذا الموقف هينا ليهون الاخفاق فيه وانما هو حيوي بعيد الاثر في حياتي الخصمين فان نتيجته تقرر مصير كل من الفريقين ليس في هذا الشوط فقط بل فيما يليه من اشواط يتمادى فيها العناد من جهة ويثابر فيها الحق من جهة اخرى .

وقد برزت محافظة قريش ودينها الوثني كلـه يومئذ الى محمـد ومبادئه ودينه الناشىء كله في ذلك المجال الضيق المحدود بأمتار واشبار ، وكان فارس قريش والوثنية ابن العاص ورجل معه جليـد سليط وكان فارس محمد والايمان جعفر بن ابي طالب يتسلح للموقف بايمانه وبيانـه وقوة نفسه .

وكان ابن العاص على جلادته وايـده يحذر جعفرا ويخافه ويحرص في حربه على الحيلة والمداورة ليأخذه على غرة . ولكن لم يكن بـد من مقابلته ولم يكن بد من الصراع فاذا نشبت المعركة انفجرت قوى الخصمين جميعا لا يدخران شيئا منها فكلاهما يرى عاقبة الموقف ويقـدر النتائج الحاسمة ولا سيما نتيجة جعفر في دفاعه عن دين ناشىء لم ينتشر بعد ولما يستقر في صدر من اعتنقوه .

كان شيئا محسوسا يراه الخصمان معا ما ينتظرانه حين تنجلي الغبرة.

فكان ابن العاص حريصا ليس على النجاح في هذا الموقف فقط بل على ما يرجو من نجاح الحياة التي انتدبته حين يظفر بجعفر وبأصحابه ويقودهم الى الفتنة والعذاب .

وكان جعفر احرص على نجاحه لا لهذا الموقف فقط بل لما وراءه من المواقف ولمن وراءه من الواقفين ، وليس معنى خـذلانه ورجوعه مـع خصميه غير خذلان المسلمين والاسلام معـا وخذلانهم سلاح يتجهز بـه المشركون للاجهاز عليهم من ناحية ولتقوية معنوياتهم من ناحية ثانية .

من اجل ذلك كان طبيعيا ان يندفع كل من الفارسـين الى الاستيلاء على هذا الموقف الحاسم مدفوعا الى امتلاكه بأمرين متلازمين هما احراز النصر كل الى جهته والحاق الفشل والكسيرة في جهة عـدوه فاذا امتلك احدهما الموقف وعلا فيه على خصيمه فقد احرز من هذا النصر الموضعي نصرا عاما له شأنه في مكة وفيما والاها يعلو به المنتصر علوا بينا ويفلـح

فلاحا مبينا .

فكان حقا ــ وهذه اهمية هذا الموقف ــ ان يتأمر فيه جعفر وكان حقا ان تحذر قريش ويحذر ابن ابي ربيعة وابن العاص اذا تأمر جعفر لهذا جعفر يبرز الى مصارعيه مستقرة في نفسه كل آمال هذا البراز وعواقبه وسرعان ما ينقض على خصيمه فينقض كل ما ابرماه من كيد ، ويفسد كل ما دبراه من مكر بما اتاه الله من ملكات التفكير والتعبير والروية ، ومن قوى الايمان والعلم والنفس ثم اذا طلب اليه النجاشي ان يقرأ شيئا مما جاء به محمد اختار صدرا من سورة مريم ، ولم يختر ما يناسب تلك التعاليم والاخلاق التي كان يسردها وكان الانسب ــ في ظاهر الحال ــ ان يقرأ له ما يناسبها ، ولكن سلامة ذوقه في البرهان على صدق الاسلام ابت الا ان يصدق الاسلام آية المسيح في دنيا تنكر آيته وتكذب معجزته ، وبهذا يستعين على اقناع النجاشي بصدق الاسلام في لحاظ ، ويستدرجه الى جانبه من غير استخذاء في لحاظ آخر ، ويهيء ذهنه لما قد يشنع به على المسيحيين في هذا الباب في لحاظ ثالث .

ثم اذا كر ابن العاص مرة اخرى بالسعاية والدس لقي جعفر الخطب بصراحة الايمان وصدق الاسلام فرد خصمه مرة اخرى مدحورا مهشما ثم ترك في نفس النجاشي من صراحته وصدقه دويا يتغلغل في احشائه وقراراته ويصرف عنانه الى الاسلام والى الايمان بما يقوله جعفر ويحكيه محمد بن عبد الله .

بهذا تجري الرواية فتدلنا ــ بعد وضوحها ــ بعبقرية جعفر ــ على ان جعفرا كان أمير الهجرة ونحن انما نريد اثبات امرته لتشهد لنا بعبقريته ومواهبه التي اشبه بها النبي فكان مثارا لاعجابه وثنائه وكانت منشأ لاعتداده بها حيث يقول (ما ادري بأيهما انا اشد فرحا بعودة جعفر ام بفتح خيبر) مشيرا الى ان عودة جعفر انحسرت عن فتح لا يقل عن فتح

خيبر في تثبيت الاسلام في قلوب المسلمين وتوطيد امره على رغم المشركين.

وما نريد بعد سياق الرواية ان نستنتج امورا ان اغفلها التاريخ فان منطق الحوادث لا يكتمها عن المفكرين .

فهل وصل جعفر الى الحبشة سرا ثم استكن في زاوية من زواياها لا يعلن عن نفسه ولا يعلن عنه هذا الجمع الغفير الذي هاجر معه ؟

هل شاع في الحبشة نبأ هجرتهم وثبت الناس من امرهم كأن لم يغدوا عليهم لا يسألون عنهم ولا يتساءلون فيما بينهم .

ام انهم تحدثوا الى الناس وتحدث الناس اليهم ، وقابل جعفر ملك الحبشة فاستنطقه الملك والقى جعفر الى الملك بما عنده فكان الملك ملما ببعض خبره على الاقل ؟ وكان جعفر ممهدا لبعض ما في نفسه على اقل تقدير ؟

اعتقد ان رجلا عنده من معرفة الحياة ومن بعد النظر ودقة الاحساس وادب النفس ما عند جعفر كان لوصوله شأن وكان لحديثه تأثير وكان لامتزاجه قبل ان يلحق به ابن العاص وابن ابي ربيعة وحي لعل من آياته ما رأيناه من اباء النجاشي ان يسلمه واصحابه الى سفيري قريش قبل ان يكلمهم ومن لينه وبكائه حين حدثه جعفر بحديث الهجرة . وما يعنيه من امرهم لو لم يشع جعفر عن وصوله وعن مبدئه الذي حمله على الهجرة وعلى مفارقة الوطن والاهل والاحباب ولو لم يهز جعفر نفسه بما اشاع من ذلك ؟

منطق الحوادث وطبيعة جعفر في مثل هذه المهمة لا يأبيان ذلك اذا لم يأبيا غيره ولكنا في معزل الان عما لا تجري به الرواية وحسبنا منها ما اثبتناه ، على ان تاريخ اليعقوبي ـ عند ذكره لهذه الهجرة ـ يشير الى شيء من ذلك فيقول (وكان للمهاجرين عند النجاشي منزلة وكان يرسل الى جعفر ويسأله عما يريد) .

واذا لم نجد هذه الرواية صريحة بالنص على امارة جعفر بالتعيين وان صرحت بامارته تعيينا ــ فان ابن هاشم يروي بعدها ما ينص على اعتبار النجاشي له اميرا .

روى ابن هشام عن جعفر بن محمد ان الاحباش ثاروا بالنجاشي وشقوا عصا طاعته لانه فارق دينهم ومال الى الاسلام ، وان النجاشي حين مني بهذه الثورة ارسل الى جعفر ــ باعتباره امير المهاجرين ــ ان يهيء اصحابه للسفر بعد ان اعد لهم السفن الكافية لنقلهم وقال له اركب انت واصحابك وكونوا كما انتم فان هزمت فامضوا بوجوهكم الى حيث تشاؤون وان ظفرت فاثبتوا ، وكان له الظفر فثبتوا حتى انقضى اجل هذه الهجرة ــ في هذا وفيما يسجله اليعقوبي اعتراف من النجاشي لجعفر بالامارة ولم يكن اعتراف النجاشي لجعفر بهذه الامارة الا عن موثق رسمي دال على حسن مشهود يراه النجاشي في شيرة المهاجرين وانقيادهم نرأي جعفر وامره ، وان جاز ان يختص النجاشي جعفرا بهذه الثقة دون اصحابه بناء على مواقفه وبروزه فيهم ، غير ان تلك المواقف التي برزت جعفرا كانت مبتنية ــ في عقيدتي ــ على امارته المسلمة المعترف بها من جماعة المهاجرين .

ومهما يكن من امر فان قصة الهجرة الحبشية تؤيد شبه جعفر للنبي بقوة البصيرة وسلامة الرأي وادب النفس وحسن التوجيه والقيادة ، وتجمع له من هذا الشبه مضاء في الدعوة ومضيا في تأييد الرسالة يصح ان يعطفاه على امناء هذا الدين وابطاله من خيرة اعوان النبي وانصاره على رفع بنائه العظيم بل يصح ان يعطفاه على النبي بأدوات من ذلك الشبه الكريم .

* * *

ويتمم حلقات الشبه بين النبي وجعفر ، صدق الجهاد والتضحية في

نشر لواء الاسلام وانكار الذات في خدمة كلمات الله ومبادئه الحسنى في تكوين مدنية الانسان وتقويم اخلاقه وانظمتــه على امثلة الخير والحــق والنصفة والعدل .

وفي سبيل هذه الحياة العالية بذل جعفر نفسه لا يعــول منهــا على استبقاء اجل او استباق متعة او استذكار زوج واطفال وعائلة ولم يكن من همه شيء من ذلك ما دام سيستشهد في سبيل حياة تسوي بــين الناس وتدني كل ذي حق من حقه .

عاد من هجرته فوجد اخاه عليا يجول براية الاسلام في ميادين الفتوح ويجوس بخيله خلال الشرك فيفرق جمعه بددا ويفنيه عدة وعددا ويتقلب بين احشاء ذلك المعمعان الهائــج الحقود من نصر الى نصر لا يستجم ولا يستريح لكأن راحته منوطة بذلك الخوض البارع يتكىء فيه على لجــج الصفوف المكينة المشيدة فاذا هي انقاض وفلــول . وفي سيفــه من حمى الحرب والجهاد ثورة لا يهدئها غير ان تكرع من تلك الرقاب علا ونهــلا ووقف جعفر امام هــذه الجولات المظفرة فهزتــه تلك المرائي الباســلة وشاقت نفسه ان يندفع بالراية على آثار اخيه لينال نصيبه من فخار هذه الحياة ومجد هذا التأسيس . وليطحن برحى الحرب طحن اخيه .

ويجهز النبي جيشا يطرق به ابواب الروم ويضرب حــدود قيصر ، وقيصر يومئذ ثمل بنشوة النصر تضحك له الدنيا وتبسم له الآمال ويتسق له جبروت من سلطانه القوي وجيشه القاهر الذي هز عرش كسرى وقلم به اطراف مملكته المنافسة الخطيرة .

وضرب قيصر في اتساق جبروتــه وقصارى نصره بجيش الاســلام الناشىء يرفع اسم الاسلام ويجرر أذيــاله في تلك المساحــب القيصريــة الظافرة فيمكن بذلك هيبته وسلطانه في حدود فتحه من الجزيرة العربية ثم يخطو بهذه الضربة الى الفتح الكبير المنتظر للرسالة المحمدية العظمى .

وكان منطقا ان يطرق محمد ابواب قيصر لا بهدفه وغايته فقط بل بمناسبة الفرصة المواتية في ذلك الوقت المعين بذاته ، فجند قيصر مثخن بالجراح ، محطم بالتضحيات ، مهيض بالخسائر قد تناولت الميادين من تجهيزاته ومن اعداده ومن صبره ما ملأ اكراشها الواسعة الجائعة وما ابتلاها بالبطنة من كثرة ما ازدردت .

وفي هذه الحال تغتنم الفرصة وتمكن الضربة . ولجند الاسلام من معنويتهم ومبدئهم ما لا تصمد له نشوة النصر في جند قيصر ولا كثرة عدده .

هذا ما فكر به النبي وهذا بعض ما فكر به النبي وهو يجهز الجيش الذي يقفل الى حدود الشام ببضاعة جديدة لم تعهدها عير قريش من قبل. ببضاعة من المبادىء الصالحة وبسيوف عربية ورماح تحرس تلك المبادىء وتتيح لاعدائها موتا زؤاما لا نزع فيه ولا احتضار .

ولكن من القائد يخوض بهذا الجيش عباب الصحراء ثم يخوض به عباب حرب جديدة تدافع عن دولة ثابتة الاصل طويلة الاغصان ؟

قبل سنة (١٣) عاد جعفر مظفرا ناجحا ميمونا من بلد اجنبي بعيد فليعد هذا الجيش على بركة الله باسم الله وباسم محمد وانه لناجح مظفر ميمون سواء عاد ام لم يعد فاذا عاد فانما يعود بالنصر ما في ذلك شك ، واذا لم يعد فانه يجثم هناك في قبر يشير الى النصر اشارة الجندي المجهول ويكون للمسلمين الفاتحين بعده حق من قبره في تلك الارض وحافز من روحه في تلك السماء يبعثان فيهم روح التضحية ويرهفان نفوسهم للعزيمة والاستبسال والمضي قدما لا يلوون او يستقر لهم الفتح .

---

(١٣) عاد جعفر من الحبشة سنة سبع وتوجه الى مؤتة سنة ثمان للهجرة .

من اجل هذا ارسله النبي قائدا في غزو مؤتة وفلسطين وجعل القيادة بعده لزيد بن حارثة ثم لعبد الله بن رواحة وكل مـــن خليفتي جعفر على القيادة مكين جليد عارف باسرار القيادة والحرب ، وان دل الموقف على تقدم جعفر وزيد على صاحبهما فقد تردد عبد الله لحظـــة دون الاقـــدام ومضى صاحباه مقدمين على الشهادة بغير تردد .

ويفصل جعفر من المدينة بعقبانه وآساده ويجتازها مراحل بعيدة لم تنل اتعابها من هممهم وانما هم كلما تقدموا ازدادوا نشاطا وفتوة فلمـــا انتهوا الى مؤتة كانت اخبارهم منتهية الى قيصر فأجمع على ان ينازل قلتهم بجيش هائل يقضي به على املهم ويمحو بنكاله الطماح من نفوس المسلمين ويجعل لهم من هذه العبرة ما يردهم الى العجز يائسين من منازلته .

وكانت جمـــوع قيصر يـــوم القتال غمامـــة (١٤) منتشرة متراكمـــة تكسو وجه الارض تتلوها غمائم (لا يفهم الحداث فيها الا التراجم) كما يقول ابو الطيب ــ بما اجتمع فيها من مختلف الالسنة والوجوه .

وكان جعفر في اصحابه ثلة ــ لو جردت من صدورها ــ جديرة ان تلبس الفرار وتلوذ بأذياله فليس اهون من ان تزحف هذه الغمامة وتطبق عليهم ثم تفرقهم بأمواجها المتلاحقة لا يطفو منهم احـــد ولكن للمسلمـــين يومئذ من قلتهم كثرة ، ومن صبرهم وحسن بلائهم جننا ومن ايمانهم ايمانا طوالا تجيد الحصيد وتتوفر على تفريق الجموع .

ومن هنا لم تهلهم الكثرة المضاعفة او ينل من عزيمتهم الحذاء انقطاع النسبة بين ثلاثة آلاف ومائة الف وما هي غير صرخـــة تعلو من فم جعفر

---

(١٤) انفذ هرقـــل ــ وهو بانطاكية ــ مائة الف وكان القائد العام لهذا الجيش تياد وقس البطريق وهو فارس النصر في وقائع الروم مع الفرس وكان قائد العرب المتنصرة شرحبيل بن عمرو الغساني .

الزكي ثم اندفاع منه الى المعمعة حتى يقتحم المسلمون لجي (بحر الروم) يخوضونه ويفرقون امواجه بسواعد مفتولة رشيقة الحركة عنيفة الوقع منكرة الدفع ، وامامهم جعفر بيمناه السيف وبيسراه الراية يرقل بها رئبالا تتفرق من بين يديه الكماة وتنجفل عنه الصفوف فجوات وثغرات فاذا توسط المعمعان اعلن معجزة البطولة في الميدان ، فترجل عن فرسه وعقره فكان منشىءهذه السنة في الاسلام (١٥) ولم يعقر فرسه الا حين تمثلت له العاقبة من الثبات فتحا لا شك فيه على اي الحالين ، وهل جاء لغير الفتح ؟ فليكن جسمه ــ اذن ــ رهينا بهذا الفتح وضمانا ليوم يكر فيه المسلمون كرة ...

وكان جعفر غرضا لجيش الروم يثير العناية بعدة جهات .

كان يثير الروم بشدة وقيعته وبصدق حملاته .

وكان يثيرهم بأنه رجل الراية ، وما دام حيا فلا نهاية لهــذه الحرب المنكرة المرة ما دامت الراية ترف فوق رأسه فتدعو جندها الى الثبات والصمود والاستماتة .

وكان يثيرهم ويطمعهم معا انه راجل وهم فرسان فما بالهم لا يجولون حوله ولا يستلون منه هذه الراية التي ما منوا بمثلها فيرايات الامبراطورية الفارسية .

وجالوا حوله .

فاذا كبا به الاجل نهضت به الشهادة بجناحين ابدله الله بهما عن يديه المقطوعتين في سبيله (١٦) يطير بهما في افق لا يصفق فيه غير جناحيه هذين اللذين ميزاه شهيدا كما ميزته حيا اجنحة من حياته لم تنبت على غير كاهله

---

(١٥) شرح النهج ص٤٠٧ ج٣ والتنبيه والاشراف للمسعودي ص٢٣ .
(١٦) الاستيعاب وشرح النهج ص ٤٠٧ ج ٣ .

ولم ترف بغير روحه .

تلك الروح التي اخلصته جاهليا ثم صقلتـــه مسلما يتأمر الهجـــرة الحبشية ، هي نفسها ريشته في مصارع الشهداء ونهضت به وحده بجناحين ثم يريش بمثلهما غيره مـــن المستشهدين على مـــالهم من فضل الشهـــادة والتضحية والايمان ، ولكن جناحي جعفر يقولان ان الشهـــادة والتضحية والايمان مراتب متفاوتات تفاوتا هو خلع على جعفر وسام الاجنحة وحرم غيره منه حين لم يدركوا ما ادركه هو من الشهادة والتضحية والايمان .

يقول ابن عمر (وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبيه ومـــا اقبل منـــه تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنه بالرمح (١٧)) .

فيفسر لنا ابن عمر بهذا الاحصاء لجروح جعفر مبلـــغ عنايـــة الروم بنزاله ، ثم يفسر لنا جلادة جعفر وقوة شكيمته ثم يفسر لنا قبل ذلك تقدم جعفر على اصحابه في منازل الشهادة والايمان والتضحية .

ويقول النبي : على مثل جعفر فلتبك البواكي (١٨) ــ وكانت تبكيه سيدة النساء ــ .

فما هذه الحدود التي يعنيها النبي بقوله ؟ وما هي المثلية التي تؤهل الميت لان يكون جديرا بالبكاء ؟ وكل ميت يبكيه اهله ويندبه احبابه كما هو المنتظر .

انها الحدود الفاضلة التي جنحت جعفرا بعد ان اثخنتـــه بالجراح ، ورفعته على انداده بعد ان رفعها في حياته علما يهدي اليها ويدل عليها .

جعفر ــ اذن ــ لا يبكى للقرابة او الحب فقط وانما يبكى لحدود الكمال التي اكتنفت نفسه وانتظمت حياته .

---

(١٧) الاستيعاب والتنبيه والاشراف ص ٢٣١ .
(١٨) الاستيعاب وشرح النهج ص ٤٠٦ جـ ٣ .

هذه الحدود التي جعلت عليا وحمزة وجعفرا خير الناس ـ كما يروي ذلك ابو سعيد الخدري عن النبي ـ [19] واثبتت لجعفر في كتب التراجم والسير من غر الفضائل مناقب عليا تكتب له السبق في كل الميادين .

وبعد فقد بقي علينا ان نتثبت من امر تأميره على جيش مؤتة ، امـا روايات التاريخ فمختلفة يرى بعضها ان الامير جعفر ، ثم زيد ، ثم عبدالله، ثم من يعينه انتخاب المسلمين بعد استشهاد هـؤلاء ، وفي بعض الروايات تعديل في هذا النسق يجعل الامير الاول زيدا والثاني جعفرا ثم تتفق بعد هذا الاختلاف كل روايات التاريخ .

وعندي ان جعفرا هو الامير الاول ترشحه للامارة كفاياته المتميزة عن كفايات اصحابه ثم ترشحه خدماته الناجحة في الحبشة على انا حين نغفـل المرجحات المنطقية لتأمير امير على جيش يغزو في سبيل دعوة وانشاء حياة ، نحن حين نغفل هذا نسمع شهادة صادقة من عصره تتثبـت امارته بقـول شاعر المسلمين ابن ثابت في رثائه :

تأوبني ليـــل بيثـــرب اعسر	وهم اذا مـا نـوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجـت لي عبرة	سفوحا واسباب البكـاء التذكر
بـلاء وفقدان الحبيـب بليـة	وكم من كريم يبتـلى ثم يصبـر
فلا يبعـدن الله قتلى تتابعـوا	جميعـا واسيـاف المنيـة تخطر
غداة غـدوا بالمؤمنـين يقودهم	الى الموت ميمون النقيبـة ازهر
اغر كصفو البدر من آل هـاشم	أبي اذا سيـم الظلامـة اصـعر
فطاعن حتى مـال غير موسـد	بمعتـرك فيـه القنـا يتكسر
فصار مـع المستشهدين ثوابـه	جنان وملتـف الحديقـة اخضر

---

(١٩) شرح النهج ص ٤٠٧ ج ٣ .

وكنا نرى في جعفر من محمد ... وقارا وامرا حازما حين يأمر
وما زال في الاسلام من آل هاشم ... دعائم صدق لا ترام ومفخر
همو جبل الاسلام والناس حولهم ... رضام الى طود يطول ويقهر
بها ليل منهم جعفر وابن امه ... علي ومنهم احمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهمو ... عقيل، وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج الغماء في كل مأزق ... عماس اذا ضاق بالناس مصدر
همو اولياء الله انزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

في هذه الابيات صورة من صور جعفر التي شرحناها وفيها اقرار بتفسير الشبه الذي فهمناه ... عد الى قوله :

وكنا نرى في جعفر من محمد ... وقارا وامرا حازما حين يأمر

ولكنا لا نحتاج الى شيء من هذا الان وانما نحتاج الى هذه الشهادة من حسان بتقدم جعفر على صاحبيه بالاستشهاد الذي يلزمه تقدمه عليهما بالامارة .

فهم متتابعون جعفر فزيد فعبد الله كما يقول حسان وجعفر المحمود النقيبة الأزهر الهاشمي يقود المؤمنين الى الموت ويطاعن في الطليعة حتى مال غير موسد ، وذلك هو الاعتراف الصريح بأنه الامير الاول .

ويقول شاعر معاصر اخر هو كعب بن مالك الانصاري من قصيدة :

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سيحا كما وكف الرباب المسبل
وجدا على النفر الذين تتابعوا ... قتلى بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
ساروا امام المسلمين كأنهم ... طود يقودهم الهزبر المشبل
اذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام اولهم ونعم الاول
حتى تقوضت الصفوف وجعفر ... حيث التقى جمع الغواة مجدل
فتغير القمر المنير لفقده ... والشمس قد كسفت وكادت تأفل

ثم يمضي في مدح الهاشميين :

ولعل هذه الشهادة اصرح من شهـادة حسان فهـو يشاركه ببعض اللفظ ثم ينفرد عنه بما هو اصرح دلالة وابين منطوقا ... هم في شهـادة كعب متتابعون ايضا . وهم وراء جعفر قائدهم الهزبر المشبل وبهذه يشارك كعب حسانا بالفاظ الشهادة ثم ينفرد بالنص على الاولية فهو ليس اولهم فحسب بل هو قدام اولهم .

اذ يهتـدون بجعفـر ولوائـه قـدام اولهـم ونعـم الاول

وليست الاولية هنا التقدم في الرعيـل الاول للتنويـه بالاقـدام والتضحية فقط . وانما هي اولية في الامارة قبل ذلك بدليل اعترافه بالتتابع والقيادة وهذا تفسير اضافة قـدام الى اول ليشعر بالاوليـة المكررة في الاقدام وفي الامارة .

وفي هذه الابيات بعد هذه الشهادة صورة لاستبسال جعفر ولاجتماع عسكر الروم عليه على نحو ما شرحناه .

وفي هاتين الشهادتين بينة تنهض بصدق الدعوى وتحرز صحة الحكم.

الزبير

تشرق في الزبير انسانية ناضجة كاملة تتفتح لها ابواب الخير والصلاح ، ولهذه الانسانيـة المثلى في نفسه مصدران يصنعانها اضخم مـا تكون ، وهما الارث والتكوين ، فطبيعة نفسه وخلقه تقتضي له هذه الخصيصة من جهـة ، وارثه النبيل يقتضيها من جهة اخرى ، ومـن هذه النقطة تبدأ عظمة الزبير فتتفرع في سبل كثيرة ثم تلتقي اخيرا على هذه النقطة الحية .

افارق الان جعفرا ولا يزال من اكباره في نفسي امكنة وجوانب لم أوفها حقها . وانتقل منه الى الرجـل الجاهلي الذي وعدت ان انهي هـذا الفصل بالحديث عنه .

ونحن انما نسمي الزبير جاهليا تجوزا بعلاقة مكانه من هذا العصر ، اما الحقيقة فهي ان الزبير لم يكن جاهليـا وانما كان حنيفـا يتجافى ما في الجاهلية من آثام وموبقات فانما الجاهلي الذي يصح عليه اطلاق هـذه النسبة من ورطته اخلاق الجاهلية في مفاسدها وطوقته صفاتها بالشائع من عرفها المنكر .

اما الزبير فقد كان هاشميا معتصما بنفسه وبقلبه وبرأيـه وفكره لا تلحق به لوثة من عصره ، ولا يوضره دنس من زمنه .

ولم يكن الزبير معتصما فقط بل كان الى اعتصامه في نفسه عاصما لغيره يحاول تطهير الزمن واهله مما يحيق بهما بما تأتى له من علو المكانة وصدق الايمان وبعد النظر وطهارة الضمير .

بهذا المزاج المؤتلف في نفسه أئتلافا صادقا صحيحا كان يرقب الحياة ويحاول اصلاح فاسدها جهد قوته فاذا ضلت الحياة بين متاهات الاخلاق

ومجاهل الوثنية وقف لها على نشز من الارض يدعوها الى خيرمما هي عليه وابقى ، واذا اندفعت الحياة في ظلم لا تلوي منه على انسانية او رحمة تصدى لها بصارم من الحزم والعدل ليردها كرها ان لم ترتد طوعا الى ما يريد لها من انصاف ومساواة .

كذلك عرف التاريخ الزبير وعرفه لنا صورة تلخص خلال الهاشميين فأكد ما رأيناه من ترادفهم جميعا على معنى واحد في الخير والحق والعدل.

أتي ذات يوم فقيل له : مات فلان — لرجل من قريش كان ظلوما .

فقال : بأي عقوبة مات ؟

قالوا : مات حتف انفه .

فقال : لئن كان ما قلتموه حقا ان للناس معادا يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم (١) .

ونأخذ نحن من هذه القصة امرين خطيرين يدلاننا على صفتين من نفسه عظيمتين اما الاول فهو انه كان عدوا للظلم وللظالمين ، ومن هنا بشر بموت القرشي الظلوم ، فان في قصدهم اياه دون غيره من زعماء قريش بهذا الخبر عناية تدل على تفقده لهذه الناحية من الحياة وسياق الحديث يدل على انه قصد بالخبر على هذا النحو عند موت الرجل من غير فاصل كبير فلو ان زمنا طويلا قد مضى على موت الرجل لم يكن في اخباره بموته فائدة ، فهو في مكة والرجل فيها كذلك ، ولا بد من وقوفه على مثل هذه الحوادث والانباء وهو من زعماء قريش المحفوفين بالمشاغل والمراجعات في مختلف شؤون الحياة .

وفي القصد اليه بهذا النبأ على هذه الكيفية ما نستفيده من هذه العناية التي دلتنا على شيء من عداوته للظلم وايثاره للعدل ، ويكاد سياق

---

(١) شرح النهج ج ٢ ص ٤٦٣ .

الحديث ينطق بمفهوم معهود كأن يكون للزبير كلام في هذا الموضوع ان الظالم لا يموت قبل ان تؤخذ منه الظلامة ثم اتى هذا الحديث متضمنا شيئا من معنى الرد على مقالته السابقة المعروفة عند الناس وآية ذلك سؤاله وجوابه اللذان يقران مقالته ويستدرجان المخاطبين الى ما هو ابعد نظرا واوغل في الايمان من كراهية الظلم المجردة فقط .

اما الامر الثاني فينحل الى امرين مترتبين هما بعد النظر وصدق الايمان .

يظهر هذا من تعليقه على موت الرجل بنحو ما رأيت من وقوفه الى هذه الحادثة .

واحب وانا اتحدث عن هذا النفر النبيل الا يغفل عصرهم الملحد وبيئتهم الوثنية ومحيطهم المادي فلو ان رجلا في الاسلام قال مقالة الزبير في رجل ظالم يسمع بموته لم يكن لها هذه القيمة من الزبير في عصره وبيئته ومحيطه ، ولم يكن لها هذه الدلالة على بعد نظره وتوقد ذهنه ، لأن الاسلام شرح الصدور لمعرفة الله ولمعرفة الدنيا والآخرة ، على ما في هذه الكلمة بذاتها من تدفق الايمان وصدق النظر .

يعتقد الزبير ان ظلامة الضعيف المظلوم لا يمكن ان تذهب في غير قصاص ولا ثأر ولا انصاف له من ظالمه .

هذا هو الايمان المبني على النصر في الحياة .

فاذا ذهب ظالم من غير ان يقاد منه للمظلومين اعتقد الزبير فوق ذلك ألا بد — اذن — من عودة اخرى تجمع بين الخصمين لدى حكم عدل ينصف المظلوم من الظالم .

وهذا هو بعد النظر والنشاط العقلي الذي لا يضيق بما يرد على العقيدة من شبه وشكوك ، فهو ابدا يضمن لصاحبه عقيدة صحيحة ، ثم يضمن له سلامة صحتها مما ربما يزعزعها في نفسه ، فاذا كان حقا ما قالوه

عن موت القرشي الظلوم من غير عقوبة فلا بد ــ اذن ــ للناس من معــاد يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

هذا ضمان الحيوية الفكرية وحياطتها للعقيــدة الصحيحة بالمنطــق الابلج ، فالعقيدة الاولى ــ كما رأيتم ــ ان لا يموت ظالم قبل ان ينتصف منه المظلوم ، ولكن قرشيا ظالما مات قبل ان تدركه النصفة ، أفيترك الزبير عقيدتــه ؟

كلا بل يزداد بها تمسكا وايمانا ويظهر له فيهــا الله اكثر وضوحــا واعلانا ، ثم لا يكتفي بالتمسك بها فقط بل يوسعها ويتنبأ لها في دنيا المادية بيوم روحي آخر تنصب فيه موازين العدل والانصاف .

هذه عبقرية نادرة حقا في تلك الدنيا التي استحوذت عليها الشياطين ، ونفخت فيها من الوساوس والهواجس ما يتصوح فيه كل نبتة لروح الخير وينطفيء فيها كل ذبال يدل عليه .

حلف الفضول

وللزبير في اقرار الحياة والدعوة الى الامن ودفع الظلم يد لم يعرف العرب في جاهليتهم اسبغ منها نعمة ، ولا اشرف عهدا ، فقــد اضاف الى نظام مكة الداخلي نظاما اجتماعيا عاليا يضمن لها حيــاة تبنى على اسس مدنية تعرف الرفاه والرخاء والسلام على نحو لا تجد في المجهود البشري يومئذ ولا في الالمعية الانسانية له نظيرا .

ولم يبعثه الى تأليف حلف الفضول (٢) غير تلك الغيرة الروحية على

---

(٢) في ص ٤٥٥ من شرح النهج جـ ٣ يقول الجاحظ (الزبير هو الذي نهض في الحلف ودعا اليه وحث عليه وهو الذي سماه حلف الفضول) .

المصالح العامة وعلى الانسانية المضطهدة في سلطان الاقوياء الطغاة من بني الانسان .

وحلف الفضول ليس اول حلف عربيٍ في تاريخه واسمه ولكنه اول حلف بغرضه وجوهره في تاريخ العرب .

لقد كانت القبائل العربية تتحالف بدواع من حب البقاء والتنازع عليه فتنشىء عقودا لا تعدو ان تشترط النصرة والتآلف ازاء عدوان الاعداء ، ولا تعدو اغراض هذه العقود والضمانات ان تحرز القبيلة امنها الشخصي او فائدتها الخاصة فاذا أغير على قبيلة من قبائل حلف ما علمت القبيلة ان لها مددا من احلافها وانصارا يدفعون عنها ويذبون دونها .

اما حلف الفضول فلم يكن يشبه حلفـا من احلاف العرب الضيقة المقصورة على المصالح الشخصية ، وانما كان حلفا نوعيا انسانيا لا يعـين فردا بعينه بل يعين المظلوم من البيض والسود ، ومن الضعفاء والاقويـاء لا يمالىء ولا يداري ولا يرائي وانما يبتغي العدل وتوزيع الامن والسلامة والدعة بين الناس على السواء فليس الضعف عنده سببا للضيعة والاضطهاد، وليست القوة مبررا للغصب والاستثمار والاعتداء ، فالضعيف في حقـه قوي سلاحه حلف الفضول ، والقوي في عدوانه وجبروته ضعيف خصمه حلف الفضول كذلك ، فهو حلف ينظر في المظالم ويرد عن الضعفاء عنـف الاقوياء وبهذا كان اشرف حلف واعظمه في التاريخ .

ولم ينشىء الزبير هذا الحلف عن حاجة به شخصية له او لقومه فهو وقومه من المنعة والقوة وعزة الجانب حيث كانوا امنـع من عقاب الجو ، وابعد احد عن مكروه يراد بهم ، وليست قصة حرب والتميمي عنا ببعيدة ــ اذن ــ فانما أنشأه ليبسط هذه الحياة الراضية المطمئنة على تلك الآفاق العابسة المكفهرة ، ويرد به عن البؤساء شر الاعتداء ممن يبتزهم اشياءهم عنوة لا لشيء الا لانهم ضعفاء، وقـد اثـاره ان يشهـد البغي والغرور

يتجاوزان ببني سهم وبني جمح وبني العاص بن وائل وبني امية ومن اليهم من قريش ويسولان لهم ان يتعدوا الحدود فيمضوا على غلوائهم يزنـون ويغصبون ويقتلون لا يرقبون في ضعيف الا ولاذمة وكانت هذه المشاهد المنكرة تؤذي نفسه وتحز في ضميره وتدعوه الى النهضة بل الى الثـورة بهؤلاء المعتدين المسيئين الى الحياة في مكة ، فما ينبغي ان يخاف في مكـة احد على نفسه ولا على اهله ولا على ماله فما بال هؤلاء يروعون الناس ويحولون الحياة الى مسبعة لا عيش فيها الا لمن خشنت اظفاره وصلبت مخـالبه ؟

من اجل هذا نهض فدعا بني هاشم وبني المطلب وبني اسـد وبني زهرة وبني تميم الى دار عبد الله بن جدعان في شهر حرام فاجتمعوا قياما ـ وكان النبي معهم وهو يومئذ غلام ـ وتماسحـوا بأكفهم وتحالفـوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا له حقه ، ما بل بحر صوفة فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته مـن انفسهم ومن غيرهم ، وتحالفوا مع الناس في المعاش والتساهم بالمال ايضا .

هذا النص التاريخي للحلف واني لارى فيه جوانب من عظمة الزبـير لا تقف عند بره وغيرته وروحه الاجتماعيـة فقط بل تتعـدى ذلك الى العبقرية والهبة والتوفيق في الدعوة الى الاصلاح توفيقا مبنيا على عبقريته وهبته ومرونته .

دلالة هذا الحلف على بلوغ الزبـير من الانسانيـة درجة النضـج والكمال دلالة واضحة لا شك فيها فلو انه كان انسانا فجا ناقصا كغـيره من معاصريه لم يندفع بهذه الحماسة لهذا الحلف الموضوع لحماية الضعفاء من بني الانسان .

وخصائص الانسانية في النفس اشكال ومعان متفاوتـات مختلفات تتفاوت درجاتهـا بتفاوت حظها من النفع والعمـل ، فقد يكون الانسان

انسانا ينكر المنكر في ضميره فلا يأتيه ولكنه لا يذمه ولا ينهى عنه وقد يكون الانسان انسانا ينكره في ضميره وبلسانه ولكنه يتحامى الجد في النهي عنه ويعتزل كل تدبير لحسمه ، وقد يكون الانسان انسانا ينكر المنكر ضميرا ولسانا وعملا فيضع دونه السدود والحواجز ، ويخرج من الضيق به الى مكافحته وجهاده ، وكل هذه الالوان الانسانية جميلة في ذاتها ولكنها تتفاوت جمالا في الشكل كما تتفاوت كمالا في المعنى .

فالانسان الاول من الانسانية بمنزلة الطفل من الانسان ، عنده منها بمقدار ما يثبتها في نفسه فقط ، والانسان الثاني اوسع انسانية من الاول لانه اشد صلة بالمعروف .

وهكذا فكلما اوغل الانسان في انسانيته ازدادت هي فيه وضوحا ووضاءة واتساقا حتى اذا كمل فيها او قارب الكمال اشرقت في كل نواحيه فحركت على كل آثاره وحركاته ومآتيه نورا من ومضها اللامع .

واذا كانت للانسانية هذه الشكول المختلفة الجمال وهذه المعاني المتفاوتة الدرجة فلا بد لنا من تعيين حظ الزبير منها وتبين رسوخه فيها . اما سيرته في هذا الحلف ــ على الاقل ــ فتفرض علينا ان نعتبره انسانا تشرق فيه انسانية ناضجة كاملة تتفتح لها ابواب الخير والصلاح ولهذه الانسانية المثلى في نفسه مصدران يصنعانها اضخم ما تكون ، هما الارث والتكوين .

فطبيعة نفسه وخلقه بذاتها تقتضي له هذه الخصيصة من جهة وارثه النبيل يقتضيها كذلك من جهة اخرى .

ومن هذه النقطة تبدأ عظمة الزبير فتتفرع في سبل كثيرة ثم تلتقي اخيرا في نفسه على هذه النقطة الحية .

وقد كان الزبير مسوقا الى انشاء حلف الفضول بطبيعة هذه الانسانية ، ففسر لنا حلف الفضول طبيعة الانسانية في نفس الزبير ثم

فسرها انسانية ذكية ملهمة منظمة مرنة تنسجم في نفس عبقرية موهوبة اجتماعية مؤمنة حافلة بشروط الزعامة الصحيحة .

كيف يفسر لنا حلف الفضول كل ذلك ؟

كان الزبير يضيق بالفوضى ويؤذيه ان يتعرض الضعفاء في مكة لمظالم الاقوياء فكيف يدفع هذا المكروه ويضمن السلامة والامن من هذا البغي .

انه مكين في مكة وجيه في بطونها منيع قوي يستطيع ان يصد بمناعته وقوته بعض ما يحدث من هذه المكاره التي تحفظ الغيور ولكن صده لتلك الحوادث عمل فردي قد يحدث رد فعل يعكس الآية حين تتكرر منه المناهضة ، وقد تثير العصبية احياء المعتدين فيندفعون لمنع اصحابهم ، وعندئذ تتعرض مكة لشر مما يحذر .

اذن فكيف يدفع هذا المكروه ويضمن السلامة والامن من هذا البغي؟

العمل هنا للعبقرية فهي تتوسط هذه المحاذير ثم تصرفها في سبل متدابرة الى حيث لا رجعة يخشى منها ولا ضجة تترتب عليها .

ويجمع بطونا من قريش لها العارضة والشدة والنفوذ ليجمع شبه رأي عام بل رأيا عاما باعتباره محرزا للغلب ، ثم يودع في هذا الجمع عقلا اجتماعيا يؤمن بصلاح هذه الفكرة ليسوقهم الى تنفيذها عن قناعة ومبدأ ، وكانت الفائدة موقوفة على احراز هاتين المقدمتين السيطرة على الرأي العام وايحاء الروح الاجتماعية لانهما هما الوسيلة النافعة لضمان الغرض وليس من فائدة في ان تجتمع الجسوم والاهواء اوزاع .

وبعد أفيجتزىء من احكام تدابيره على هاتين المقدمتين ؟

لا بل يسندهما بدعامة اقوى منهما اثرا في تنفيذ الفكرة فيضع للاجتماع شكلا رسميا يدخل في صميم الحكومة المكية الداخلية لتكون له صلاحية يخشى بأسها ويرعى جانب هيبتها فيتقيها الجناة قبل الجناية ويخافون سلطتها حين يجترئون على تجاوز الحدود المكلفة هي بحفظها .

بعد تقدير هذه الجهات كلها وتهيىء هذه الظروف جميعا ، جاء نص الحلف فكان نصا قانونيا من جهة ، وكان متصلا بفلسفة الحياة من جهة اخرى وهو بعدئذ ينفذ من جهتيه الى النظام ثم الى التعاون وينظر من كل ذلك الى نعيم الانسانية .

هذا عمل لا يقوم على مجرد الرحمة وطيب النفس فقط ، فرب رحيم طيب النفس من ضعف النفس وضيق الفكر حيث لا يستطيع غيرالانكماش في زاوية من عمره يفرغ فيها لمرارة العيش واسار الحياة ، وليست العظمة ان تكون طيب النفس رحيما ولكن العظمة ان تشيرك هاتان الصفتان لان تمد ظلالهما على الارض وتنقل منهما السعادة لمن تستطيع من البشر .

فالعظمة هنا في الوسائل والاسباب لا فيما يبعث على استعمال الوسيلة مجردا عنها وليست العظمة الا الوسيلة التي تستجيب لنداء العقل والقلب ثم تعمل وتعد الظروف الصالحة لنجدة نافعة ناجحة .

ولم يكن الزبير عظيما لانه طيب النفس ، ولا لانه انسان رحيم ، بل كان عظيما لانه عبقري مفكر زعيم تتسع نفسه للخلق والانتاج والايحاء والتأثير ، ولانه يملك اداة العظمة فيحسن استخدام الوسائل المنجدة المواتية .

تلك هي الخطوات المنطقية التي اتبعها الزبير في تأليف حلف الفضول وهي خطوات ـ كما ترى ـ تستند الى اركان ـ ان عهدنا لها اصولا في بيته ـ فانها غير معهودة في محيطه وبيئته وانما هي بدع من نفسه وارتجال من سجاياه وعبقريته ، واين من الحياة العربية يومئذ هذه الروح الاجتماعية المثلى ؟

اين من الحياة العربية هذا النظام المدني العالي ؟ واين منها هذا العدل وهذه الغيرة والحماسة للانسان الضعيف على نحو لا نجده حتى في الامم المتحضرة المتقدمة في الحضارة ؟

اين منها هذه الانسانية الرفيعة التي لم تجد فيهـا حتى الان نظريـة ارفع من نظرية الزبير ولا مثل اسمى من مثله .

وما زال المصلحون والفلاسفة منذ تحفزت حركة الاصلاح والفلسفة الى التجديد حتى اليوم يدورون حول الانسانية ويبحثون مثلها ويبتغون لسعادتها الوسائل والسبل فلا تواتيهم الحياة ولا تسعدهم الظروف فكلما ازدادوا قربا منها ازدادوا بعدا عنها ، ومني العالم من هذا البعد بأوبـاء وحروب وهمجيات كانت اعظمها خطرا هذه المرحلة الحاضرة التي يجتازها اليوم الحاضر الذي اذكرت ارزاؤه المفكرين ــ وكانوا غافلين ــ ان يهموا بوضع نهاية لهذه الكوارث والتهاويل فأشاعوا عن نظـام يكفل السـلام العالمي ويحمي الضعفاء من بلاء الاقوياء حين تنهض الدنيا من وبال مـا هي فيه .

وليس هذا النظام ــ حين يتم فصاله ويشتـد ساعده ــ (٣) فتحـا جديدا ، وان كان فيه جديد فان الجدة في فروعـه وشعبه وفي اطرافـه وحواشيه اما جوهره فذاك الذي رأيناه في حلف الفضول .

ومن يوازن بين هذا العصر وبين عصر الزبير ، ثم بين وسائـل عصر الزبير يتبين ان فضل حلف الفضول ونظامه اكبر من فضل هذا النظام .

ولا اخال ان في هذه الموازنة اغراقا او ايغالا او خيالا ، وانما هي حق لا ريب فيه . فان النظامين في الجوهر والغاية شيء واحد ، نظام حلف الفضول يرمي ــ كما علمتم ــ الى السـلام والامن والتعاون ، ونظـام السلام المنوه عنه اليوم يرمي الى هذا الغرض نفسه ، وليس بين النظامين من فرق الا في السعة والضيق الجغرافيين ، والا فيـما طرأ من مستجدات

---

(٣) كنا نرى ذلك يوم كتبنا هذا الفصل اما الان ونحن نطبعه فيبدو ان النظام قد اشتد ساعده فشد ساعد الاقوياء الى الاستئثار المعهود .

الحياة ومقتضيات العصر وهو فرق في الفروع فلا يمس العبقرية المنشئة ولا النفس الخلاقة المبدعة .

بهذا تنزهت هذه الموازنة عن الغلو والاغراق حين جعلت الفضل والتقدم للزبير فان الزبير عاش في بداوة من الحياة وفي امة امية لا تتسع هي ولا يتسع عصرها لفكرة غير فكرة الغزو والسلب والاهتضام .

اما نظام السلام فانما تحدثه ازمات الرقي والتقدم العقليين في عصر تتسع فيه الوسائل والافكار والحياة الاجتماعية ، وتجتمع له الدراسات والتجارب فاذا سن فانما يسن طبيعيا ناشئا عن مقدماته الطبيعية التي من شأنها ان تنتجه .

والفرق واضح بين النظام يصدر عن عقل فرد سبق زمانه وكان لذلك وحده مستأثرا بفهم الفكرة وايحائها دون عصره ودون جماعته ، وبين النظام نفسه يصدر بعد مئات السنين عن عقول جماعة وجدوا في زمانهم ان لم يكونوا متأخرين عنه فكانوا هم والزمان جميعا شركاء في فهم الفكرة وفي محاولة تنفيذها .

هذا فرق صحيح بين النظامين او بين ظروفهما فاذا تجاوزت ذلك فلا فرق بينهما سموا وحنانا وانسانية ــ ان صح الثاني كما صح الاول ــ .

ولا تنقص هذه الموازنة من قيمة نظام السلام العالمي لان الخير لا يضره ان يسبقه خير مثله ، كما ان هذه الموازنة لم تسق للحط من قدر نظام السلام العالمي وانما هي مسوقة لتعظم شأن نظام الحلف وتكبر ذهن الزبير في مثل زمانه ومكانه .

هذا يقرب العبقرية الزبيرية النادرة التي سبقت الزمن والوسائل الى ادراك ما لا ينال في غير وقته ووسيلته ، فان فهم الحياة على نحو ما فهم الزبير لم يكن ميسورا لذلك العصر ولا لذلك المجتمع ، ولا يحط من قدر العصر والمجتمع الا يفهما فهم الزبير لانه فهم يصدر عادة عن التربية

العلمية وعن النضج الاجتماعي وهذان امران لا ظل لهما يومئذ في الحياة العربية .

تلك عادة مطردة لا يشذ عنها الا فهم العبقري النادر الوثاب الى القمم التي ينحدر منها العلم والى الهبة التي تهيء النضج الاجتماعي وتنشيء فيه عادة الفهم ويسر الهضم .

ومن هنا كان ذكاء الزبير آية في آيات روحه وضميره وانسانيته واصلاحه وصلاحه .

ولا اعني بالذكاء ما يحل الاحاجي ، او يفهم الشعر او يرتجل البدائه الظرائف فذلك ذكاء ادبي شائع منبته الجزيرة ولا ميزة كبيرة فيه للزبير وان كان له منه حظ كبير ، ولكن اعني بالذكاء الذكاء السياسي المصلح ، وهو عبقرية نادرة تتسلح بالمنطق وقوة البصيرة وترتيب الاعمال لتجمع منها المقتضيات والدواعي على نحو يجعل الفكرة ناشئا طبيعيا محتوما كما تكون النتيجة المنطقية مع مقدماتها الصحيحة .

وهذا ذكاء يحل مشكلات ويفهم حياة ويرتجل مصالح .

وبهذا الذكاء مهد الزبير لحلف الفضول فجمع بطونا من قريش واختار للاجتماع دار عبد الله بن جدعان لا غيرها مع ان الندوة دار معدة لمثل هذه الاجتماعات التي تعالج فيها حياة مكة ، ولكنها دار عامة تبيح لقبائل الاثم والعدوان من الاحلاف ان يشهدوا اجتماعاتها ولعل في شهودهم هذا الاجتماع محذورا يعيق الحلف عن غرضه المنشود لانه حلف يكف من عنان هؤلاء ويكفكف من غلوائهم ويعنيهم قبل ان يعني غيرهم بتحديه ، والمحذور الذي تتصوره من هذا ان يعارض هؤلاء وان يشتدوا في المعارضة دفاعا عن رأيهم ومبدئهم بدافع من النهم والشره والشهوة وحب الانطلاق من هذه القيود التي تحبس عنهم متعتهم في الطغيان ولذتهم في الاعتداء .

ومحذور معارضتهم ليس محـذوراً لانهم هـم معارضـون فانهم معارضون سواء شهدوا الاجتماع او غابوا عنه ولكن المحذور في ان يشقوا الرأي في الجلسة التي تنضج (الحلف) فيكون رد وبدل قد يوهنان بعض الامر من هذا الحلف ، ولا يريد الزبير ان تنبس معارضة ببنت شفـة لان الاجماع اضمن للنجاح ، من اجل هذا حاد الزبير عن دار الندوة ثم حـاد عن بيته وبيوت عشيرته ايضا مع ان لهم من مكة اسمى منزلة واعز مكان . وانما حاد عن بيوت الهاشميين لتكون الدعوة الى الحلف اعم من جهـة فلا تقتصر على الهاشميين ، ولتكون من جهة اخرى ادل على الاخـلاص وابعد عن الشك فلا يتظنن بها المتظننون ان الانانية او الاستئثار او شهوة التزعم تدعوه الى تأليف هذا الاجتماع وانشاء هذا الحلف .

فهو بتخطيه دار الندوة قد ضمن اجتماعا يكفل له حصول النصاب في احراز رأي عام او شبهه من غير معارضة ولا انشقاق ثم دفع ما قد يقال في الشغب عليه او على الحلف اذا جمعهم في داره باختياره دار عبد الله بن جدعان واشرك ـ الى جانب هذا ـ تيما ومن اليها من بطون قريش فقوى بهم كلمته .

فاذا التأم الجمع القى فيه من بيانه وايمانه وعقلـه فهما اجتماعيـا صحيحا يقدر هذا العمل الصالح ويدفعهم لصيانته وتنفيذه على نحو رسمي تعترف برسمية مكة كما يقتضيه عرفها ويهضمه نظامها واصطلاحها .

فكرة الحلف المختمرة في نفس الزبـير املـت علينا هـذه الفكرة الصحيحة عن عبقرية الزبير ووضعته عندنا بين هذه الصفات الفضلى . فاذا تجاوزنا الى نص الحلف رأيناه ايضا مشتقا من ذلك المعدن العبقري متمما لنواحي الامتياز فيه .

في نص الحلف جهتان من جهات هذا الامتياز اولاهـما تتألف من العدل والمساواة والحق تنشىء هذه الاصول لتقيم عليها الحياة في مكة ،

منكرة غيرها شديدة على من يخالفها .

وقد رأينا هذه الجهة مفصلة فيما سبق من كلامنا .

والجهة الثانية (التأسي في المعاش والتساهم بالمال) وهي اشتراكية تسمو بالنظام وتأخذ به الناس عن عقيدة وايمان فتصقل النفوس وتهيئها لتقبله واعتناقه ، فان من يواسي غيره في معاشه ويساهمه بماله يستطيع ان يفهم العدل والمساواة ويذوقهما ويجد فيهما لذة وانسا فلا يمنع عن مظلوم نصره ولا يحابي في ذلك حرا في عبد او قريبا في غريب او قويا في ضعيف او غنيا في فقير .

فرياضة الناس على هذه الاشتراكية تقريب لهم من حياة الامن والاستقرار التي يشاؤها لهم حلف الفضول . ويمكن ان تلحظ هذه الجهة بنظر كمقدمة ــ بهذا الاعتبار ــ لتوطيد العدل والأمن .

وان تلحظ بنظر آخر كغاية من غايات النظام المقصودة مستقلة بنفسها ومنظمة الى الاولى وهي في كلا الحالين مبدأ عظيم غريب في آن واحد .

هو عظيم بجدواه ونفعه وانسانيته .

وهو غريب لان العقل العربي يومئذ لا يهضم هذه الافكار ، ولانه مبدأ يحتاج الى اعداد اجتماعي صحيح ، والى علم وبصيرة بنظم الحياة واسرارها .

ونحن حين نقول بغرابته لهذه الاسباب فانما نقرر الواقع الذي حدث. الا ترون الى هذا المبدأ نفسه يبتنى على تفاعل الآراء والمذاهب ، وعلى تقدم العصور والعقول ، وعلى تطور الحياة وارتقائها .

فالتآسي في المعاش والتساهم بالمال او الاشتراكية المعتدلة في الاسلام تطورت وارتقت عنها في عهد الزبير بمقدار تطور الحياة وارتقائها على قرب العهد بين الحياتين ، فبينما كانت هناك نواة بسيطة وكلمة عامة لم تعرض الى المصاديق والافراد ولا الى الحصص والكميات جاء الاسلام فجعلها

في الزكوات والاخماس والصدقات وعين لهـا مقادير ومقاييس خاصة في استحقاقها وانفاقها كما وكيفا ثم اتخذت بعد ذلك اشكالا مختلفة ما زالت حتى اليوم مثارا للجدل والخلاف .

ولا يعنينا من هذا ان ندخل الى صميمه كبحث ندير فيه الاقـوال ونلقي فيه الرأي والترجيح ، ثم لا يهمنا ان نسلسل تاريخ هذا المبدأ كذلك وانما المهم عندي ان يثبت ان نواة الاشتراكية المعتـدلة الصالحة كانت في حلف الفضول وانها نبتت في غير زمانها فكانت ــ من اجل ذلك ــ غريبة عن الحياة التي تحف بها وعن العرف الذي لا يفهمها ولا يألفها ولا يسالمها، والمهم من كل ذلك تسجيل هذا الامتياز باسم الزبير .

قد يكون لهذه الاشتراكية اصل من الكرم في الحياة العربية اصطلح عليه العرب وتوارثوه وجعلوه من اكرم خلالهم وآثر تقاليدهم غير انهم لم يلتفتوا منه الى جهة الاحسان الخالقة بل كانت تسهم فيه غايات وعوامل من حب الشهرة وانتظار المدح حتى عند المطبوعين على الاريحية والانفاق .

على ان الكرم ليس تشريعا ولا نظاما وانما هو خلـق فردي يحبـه المجتمع فلا يمكن الالتفات منه الى تشريع يفرض (التآسي والتساهم) على البخلاء كما يفرضه على الكرماء ولئن كان الحلف التفاتا من الكرم فان ذلك يضيف الى ميزة التشريع ميزة تنظيم الاخلاق وتوجيهها الى الخـير والكمال ، فانه قد ينفق الكريم في البذخ وفي اطعام الضيوف اضعاف ما يضعه في المواساة والمساهمة ، ولكن في قليل من المواساة والمساهمة بركة وفضلا لا تجدهما في كثير من الكرم ، لان ذاك يصـدر عن نظام يقـدر الحياة وينظر الى نعيمها وهذا خلق ينظر الى اللياقـات الفردية والعنعنات الشخصية المتصلة بأخيلة التقاليد والعادات التي لا تجـد لها ظهيرا مـن الواقع والحق .

نعم . اكثر ما قد يقال في الصلة بين هذه الاشتراكية الصحيحـة في

حلف الفضول وبين الحياة العربية يومئذ خلق الكرم المتضمن معنى من معاني الاحسان والانسانية وهي بعد بعيدة عنها فكرا واجتماعا ونضجا وعلما .

فكيف اذن يتفق لرجل من ذلك العالم البعيد ان يصدع بها ويدعو اليها ويدخلها في حلف يجند فيه لحمايتها قبائل ممن لا يحسون بدفء اشعتها ولا ببرد ظلالها ؟

انها العبقرية !.

ولا تنتسب العبقرية الى اب ولا ام ، ولا الى وطن ولا عصر ، وانما هي بنت نفسها ، ونسيج وحدها فالى الهامها يرد العلم والفن والنظام والاختراع .

من هنا لم يعترف الزبير بزمانه حين دعا الى حلف الفضول وسن (التساهم والتآسي في المعاش والمال ودفع الظلم والعدل بين الناس) .

ومن هنا كان انسانا ممتازا حقا تتلاقى في نفسه ظاهرتان تنشئان له هذا الامتياز .

رحمة وبر يثيران حفيظته للمستضعفين يستأثر بأموالهم واعراضهم وحياتهم المستبدون .

وعبقرية تهدي البر والرحمة الى مواضع النفع وطرق الاصلاح .

اسباب الحلف التاريخية

هبط زبيدي مكة ببضاعة اشتراها العاص بن وائل السهمي فآواها الى بيته ولما يدفع الثمن ثم غيب وجهه عن البائع وطلبه الزبيدي فأعجزه الطلب وابتغى متاعه فلم يقدر عليه فذهب يلتمس بني سهم يشكو اليهم امره مع صاحبهم ويستعديهم عليه في حقه غير انه وجد قوما غلاظا جفاة

يمالئون على الغصب والجريمة في وضح النهار .

علم من ذلك ألا سبيل له الى ماله ، ولكنه ابلى في طلبه ليعذر فطوف في قبائل قريش يستنفر بهم فلم يظفر بغير تخاذل وفشـل فاذا انتهى بـه المطاف الى هذه العقبى اشرف من ابي قبيس على مكة حين اخذت قريش مجالسها وبعثه صوتا مدويا يهوي من اعلى الجبل ثم ينتشر في اندية قريش فيبلغ شكوى الرجل آذانهم مجتمعين :

يا للرجـال لمظـلوم بضاعتـه	ببطـن مكة نـائي الحي والنفر
ومحرم اشعـث لم يقض عمرته	يا اهل فهر وبين الحجر والحجر
هل منصف من بني سهم فمرتجع	ما غيبوا ام ظـلال مـال معتمر

كان ذلك قبيل ذرور الشمس (٤) وكانت قريش في انديتها والزبـير في ناديه تأخذ كل جماعة منهم بحديث يتشاجن ويتسق ويدور على ما هم فيه من حياة .

وكانت قريش ، ترفها وحبها للحياة ، تفتن بهذه السويعة ، جمالهـا وسحرها ، فتبعث في هذه الساعات الحلوة الهشة تستمتع بها وتتمتع فيها بما تعرف من سحر ولهو وسرور ، وما كان اصعب على قريش ان يقطـع هذه الانسة قاطع يفاجئهم بما لا يحبون ، او يكدر عليهم هذا الصفاء مكدر بعض ما يكرهون فهم من هذا الصباح الباكر في يقظته وفتنته ، ولا ينبغي ان تنغص هذه اليقظة الفاتنة بالاسواء وبما يؤذي السمع والنفس مـن احاديث وانباء .

فما بال هذا الهاتف يرتل السوء ترتيلا ، وينسب الى مكة عارا وبيلا؟

---

(٤) شرح النهج ص ٤٥٥ جـ ٣ .

آذاهم هتاف الزبيدي غير انهم لم يسخطوا عليه ، ولم ينقموا منه ، لانه كان يهتف بحق وينكر في مكة منكرا لا ينكرونه هم ولعلهم استمدوا بعض الروحية من يقظة صباحهم الباكر فأصغت في نفوسهم اذن تعترف بالحق ولكنهم لم يفكروا مع ذلك بوضع حائل دون ما يدعو الى ايذائهم في اصباحهم وامسياتهم ويفجعهم بنشوة اجتماعاتهم في ابان النشوة وريعان السرور .

انكرت قريش هذا الاعتداء في حين انه لم يكن الاول من نوعه فقد كانت ضحايا بني سهم وبني جمح وبني امية تترى ، ولم يكن هؤلاء مقتصرين على السلب والاغتصاب فقط بل ربما احوجهم السلب الى الاغتيال .

فقد اغرى حرب بن امية رجلا بقتل يهودي ليبتز ماله (٥) وكان من امره ما عرفته في مناوأته لعبد المطلب التي اثارها وقوف عبد المطلب لهذه الحادثة ورده المال لاهل القتيل وتغريمه حربا الفدية .

وكان طويلا ما يعتدي به المعتدون من هؤلاء على الضعاف والغرباء متظاهرين معلنين .

ولعل كثيرا من عيون قريش وسرواتها كانوا يتململون في نفوسهم من أسواء هذه النصرة المنكرة ، ولكن احدا غير الهاشميين لم يكن يجبه ذلك بالرد ، او يأخذه بالعنف حين يدعوه الى العنف امر بمعروف او نهي عن منكر .

وكان نبأ هذا الزبيدي اول الامر في تطوافه ثم صيحته من اعلى « قبيس » حدثا ارهف تلك النفوس المحتاطة ، الحذرة من الانشقاق على جيرتها وعلى اهل بلدتها ، واعدها لتقبل الدعوة الى حلف الفضول ،

---

(٥) النزاع والتخاصم ودائرة المعارف للبستاني .

فألفاهم الزبير حيث يحب حين استفزته صيحة الزبيدي ان يمنع مكة مما يلم بها من هذه المكـاره ، ويثقل عواتـق بطـون من قريش بشيء من المسؤولية والعبء اللذين اهل بهما ذرع الهاشميين وانساق اليهما طبعهم منذ عرف هاشم ومنذ استقامت له ولبنيه الزعامة ، تخلصهم صفاياها .

من اجل هذا لم تكد الصيحة تتجاوب في فنـائه ، حتى ارتكضـت حميته وانتهضت في نفسه همة هاشمية حلفت (ليعقدن حلفا بينه وبـين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب).

حلفـت لنعقـدن حلفـا عليهم وان كنـا جميعـا اهـل دار
نسميـه الفضـول اذا عقدنـا يعز بـه الغريـب لدى الجوار
ويعلم مـن بحول (٦) البيت انا اباة الضيـم نهجـر كل عـار

بهذا اجاب الزبير رجع الصدى المرسـل من ابي قبيس يدحرجـه الزبيدي في الفضاء ثم يجمع من يجمع من بني هاشم والمطلب وبني زهرة ومن اليهم في دار ابن جدعان ويتم مؤتمره على نحو ما عرفت ، ويرد على الزبيدي ثمن بضاعته من العاص بن وائل .

ثم لا تشغب بادرة من يومئذ الا ردها حلف الفضـول ومشى الى باعثيها واعظا حين تنفع الموعظـة المجردة ، او متحـديا حين لا ينفـع الا التحدي والوعيد .

فمن ذلك ان بارقيا (٧) قدم على مكة بسلعة باعها من ابي بن خلف الجمحي فمطله بالثمن ــ وكان سيىء المخالطـة ــ فأتى البارقي حلـف الفضول يرفع اليهم ظلامته فقالوا اليه : اذهب فأخبره انك اتيتنا فان اعطاك

---

(٦) في الاصل (ويعلم من حول البيت) .
(٧) شرح النهج عن الزبير بن بكار ص ٤٦٣ ج ٣ .

حقك والا فارجع الينا .

فأتاه فأخبره ، فأخرج اليه حقه مذعنا وفي ذلك يقول البارقي :

أيفجر بي ببطن مكـة ظالمـا	ابي ولا قـومي لدي ولا صحبي
وناديت قـومي بارقـا لتجيبني	وكم دون قومي من فياف ومن شهب
ويأبي لكم حلف الفضول ظلامتي	بني جمع والحق يؤخذ بالغصب

ومن ذلك ان خثعميا قدم مكة تاجرا ، وكانت معه بنت له اسمهـا القتول وكانت أوضأ فتاة واصبح (نساء العالمين) .

ورآها نبيه بن الحجاج السهمي فرأى منها ما بهره واطار نفسه حولها تتحلب لصيدها ، فآلى ان يطبق عليها بحبائلـه كما اطبقت عليه بحبالهـا تقتاده من كل عضو وتأسره بكل رنوة ، أليست في مكة ؟ ومكـة مثوى عصبته ومستقر نفوذه ولا وزر لهذه الطارئة ، ولا لحارسها من شريعة ، ولا من عرف ، ولا من ذمة ، ولا من جوار ، فهو متوفر ــ اذن ــ عـلى اصطيادها في كل حساب .

وقد انساه الشيطان حلف الفضول او لعله عنّ له في مطافه حولها ، ولكن ما في نفسه من صبوة وما في عزمه من جماح اغريـاه ان يتجـاوز حدود (الفضول) وان يتوطن على شق العصى وحسبه نوال القتول .

فمضى على غلوائه موزع القلب مجموع الارادة ولم يبرح حتى غلب اباها واحتجزها دونه .

ورجع الاب يومئذ يدير طرفه من الحـيرة والخسران ، ويتـلاوم ــ علم الله ــ في نفسه ان خدعته الاماني في مرابح تجارته ، واي ربح في ان تغل يده وتقتاد ابنته بين عينيه من غير ان يقوى على الامتناع او المنعة ؟!

قيل له ــ وهـو سادر في هـذا الهم ــ عليـك بحلف الفضـول وكأنما ادركـه الفرج بهـذا القول فمضى الى الحلـف يحمل نفسـه

على شفتيه ويضع ثقل صدره رهنا بحمية القوم وبنجدتهم على انهم لم يكونوا بحاجة لاكثر من العلم لينهضوا بأمر الحزم ــ كما هو المفروض في مبادىء حلفهم .

لذلك لم يجتزئوا في هذه الحادثة بما اجتزأوا به في قصة البارقي من ارسال رسالة وايعاز بوعيد ، لان ملابسات الحادثين مختلفات واهميتهما متفاوتة تفاوت الاهمية في سلعة ، والاهمية في عرض ، وتفاوت التعلق بعرض من عقار بخس ، والتعلق بجوهر من جمال قيم ، من اجل هذا سعوا معه مسرعين متناهين الى نبيه ــ وهو منتبذ يومئذ ناحية من مكة وهي معه ــ فقائلين (اخرج ابنة هذا الرجل والا فاننا من قد عرفت) .

فيقول : يا قوم متعوني بها الليلة !

فيقولون قبحك الله ما أجهلك ! والله ولاشخب لقحة فأخرجها اليهم صاغرا فأعادوها الى ابيها مكرمة .

وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج ابياتا طوالا تختلف في بعضها الروايات منها قوله :

راح صحبي ولم احي القتولا	لم اودعهمو وداعا جميلا
وخشيت الفضول حين اتوني (٩)	قد أراني ولا اخاف الفضولا
انني والذي يحج له	شمط اياد وهللوا تهليلا
لبراء مني قتيلة يا للنا	س هل يتبعون الا القتولا

ويظهر انها ابرمت من جمالها امرا في نفسه فكان محصدا مستحكما شيئا من الاحصاد والاستحكام ، ومن هنا تنطاول في ابياته لشيء من

---

(٩) وفي رواية اذا جد الفضول ان يمنعوها البيت .

التمرد على الحلف والاعتصام بهواه دونهم (قد اراني ولا اخاف الفضولا) فهو يكاد يركب في الشوق اليها مركبا لا يركب ، ويقتحم كأداء لا تقتحم، لولا ان الامتناع على الحلف ممتنع فوق المستطاع .

ولكنه أبان بهذا الاسلوب عن نزعة في نفسه اليها متمكنة غالبة تسيطر عليه ، وتملكه وتدعوه اليها فلا يقف به دونها شيء لولا الفضول.

ولعل ابعادها عنه قبل ان ينال منها وطرا أذكى في نفسه عاطفة تعاوده بالحنين اليها ، وتحوك في صدره منها ذكريات آسرة تدفعه للقول وللشعر وللحب فيقول من قصيدة اخرى :

حي البخيلة اذ نأت	عنا على عدوائها
لا بالفراق تنيلنا	شيئا ولا بلقائها
حلت بمكة حلة	في مشيها ووطائها
لولا الفضول ، وانه	لامن من عروائها
لدنوت من ابياتها	ولطفت حول خبائها

ومن ذلك قصص طويل كثير كان بطل العدل فيه الحلف ، وبنو هاشم ينتزعون به وبزعامتهم الوان الظلامات ويردونها الى المظلومين ، فليس الظالمون في مكة يومئذ غير الاقوياء من ذوي العدد والعارضة ـ كما يقول الجاحظ ـ ولكن الزبير وحلفه ألجماهم بشكيمة لا تلين، فتطامنوا وانكبح جماح الشرة والشره يخافت بعد الاعلان ويداري بعد القحة ، ويحجم بعد الاقدام .

زمن الحلف

وكأن الله حين أراد ان يأخذ العرب نصيبهم من التطور الاجتماعي هيأ

من العرب قوماً ذوي حظوظ في التوجيه والفطنة وسلامة الضمير ليكونوا القدوة لامة تعول عليها الدنيا في رسالة حق وخير يرفعان الانسان الى مراقيه الجسام .

فكانت الاصلاب الهاشمية تفيض من ينابيع الحياة مياهاً تعشب على مجاريها الضفاف بكل جنة حانية روية ، وتتلفف حول مسايلها الهادرة الواحات في تلك الصحراء ، فتقوى وتتهادى بالحفيف ، وتتعالى بالزقزقة والزفيف ، وتنهد بالثمار والاكل ، وتنسطح في اروقتها الظلال ندية شذية معدة لكل عابر يلجأ اليها ، ويريح منها في سرارة يمتزج فيها الظل بالنور امتزاج العطر بالنسيم .

وكان لا بد للهاشميين ان يكونوا على مثالهم اذا كان لا بد للانسان ان يتقلب بين سنن الحياة وينقلب فيها صعدا الى مثله الاسمى .

ولا بد كذلك ان يكون الهاشميون هم الهاشميين هداة العرب وقادتهم كلما حانت فرصة من هذا التطور للوثوب او النهضة .

لا بد من ذلك ايضا اذا كان لا بد للامم وللآراء العامة من مجتلب يستدرجها الى الخير ويستن لها انظمة تراض عليها أذواقهم وعاداتهم وعقولهم من جديد فالهاشميون ــ علم الله ــ احرى هداة ، واجدر من ينصب لهذه الزعامة ، لان النفس التي كانت تجيش بين ضلوعهم ما كانت لتنبض في غير تلك الجسوم العامرة القوية التي شهد لها عصرها بانها تشرف مكة وتمنعها .

ولعل اول ما يدل على ذلك ــ اذا عدونا اهلياتهم وكفاياتهم ــ انهم نصبوا انفسهم للزعامة فلم يعارض معارض ، ولم يجر في ميادينهم مجار ، او ان الناس نصبوهم للزعامة بعد التجربة والاختبار ، فلم يخفقوا في عمل من الاعمال ، ولم يتخلفوا في وجه ولا تقدير ، وان الحق والواقع ــ قبل كل ذلك ــ نصباهم للزعامة ، لم يشركا بهم احدا في التوجيه والاشتراع

والاخذ بيد الناس الى الحيــاة ، ومن ماشاهم مــن الناس الى ذلك فانما يماشيهم عن اقتداء بهم وتعويل عليهم وتعلق بعرى رأيهم .

اولئك هم الهاشميون فرافقهم في اجيال تاريخهم تجدهم هناك .

فلما بلغت الحياة من التطور مبلغا لا يستساغ فيه اقرار الفاحشــة الشائعة ، ولا يصبر فيه على الظلم المألوف ، بل لما بلغت الحياة ــ بتعبــير اصدق ــ مبلغا يستطيع معه المنكر ان يأبى للانسان ان تهــون كرامتــه وتتفسخ اخلاقه ، ويسوء نظامه ، قام يومئذ هاشمي يشتد في الانكار ، ويمضي في الاباء على مبدأ موروث مطبوع ويدعــو الى حلف كحلــف الفضول من الخير للناس ما فيه .

وغير الهاشميين لا ينبعث بمثل هذه الحركة الاصلاحية ، ولا يعنيــه الصلاح الاجتماعي على هذا النحو . فلو ان هاشما وبنيه منغمسون بغــير هذه النزعة النبيلة لظلت ــ اذن ــ الحياة العربية في ضلالها القديم تتعلق بأسباب الجاهلية وتلبس من شفوفها ما لا يغنيها عن حر ولا برد .

ولو ان احدا غيرهم اجتمع له ما اجتمع لهم من شهامة القلب وحياة الضمير لقام ــ اذن ــ مقامهم فيما اسسوه وفيما بنوه في سبيــل رفــاه الانسان وسلامه وكماله .

ولكنهم انفردوا برعاية هذه الشؤون فألقيت اليهم الازمة حــين لم تعهد في غيرهم هذه المعاني السامية ولم تعرف الا لهم هذه الامتيازات .

وحلف الفضول لم يكن لهم خالصا هيئة واجتماعا ، فشركاؤهم فيه المطلب وزهرة واسد وتيم ومن اليهم ولكنــه مــع ذلك لهم وحدهم لا يشاركهم فيه احد لانهم وحدهم مؤسسوه وبناته والناهضون بأمره . هم منه مكان الروح من البدن ومقام العمد من البناء وليس لنا ان ندعي غــير هذا لان الدليل قام عليه ونفى غيره .

ارجع ــ هداك الله ــ الى حياتهم قبل الحلف أترى اهدافها تختلف

عن اهدافه ؟ أترى اعمالها تختلف عن اعماله ؟ أترى سيرتها تختلف عن سيرته ؟

لا والله ان لهم من حياتهم التي فطروا عليها حلفا اقسموا على الوفاء به والضمان له ، ولم يكن حلف الفضول ليكون لولا ان تكون اخلاقهم له نواة ، ثم جذعا واغصانا تورق وتثمر وتؤتي أكلها كل حين .

ونحن لو لم يقم عندنا دليل من نصوص التاريخ على ان الهاشميين بناة الحلف لم نزدد ثباتا واستيقانا بانه حلفهم ، وبحسبنا الادلة النفسية المعهودة فيهم على نحو ما تعهد في الحلف على السواء .

هذه النخوة ، وهذه الغيرة ، وهذه الحماسة ، وهذه الانسانية وهذا العدل ، وهذه القوة ، وهذه الرحمة ، وهذه المساواة ، كل اولئك روائح هاشمية خالصة لها عبق ــ من التفقه ــ لا يكذبك الحس فيه ابدا ولا يخدعك الوجدان عن شيء منه .

هم كذلك قبل حلف الفضول منذ برأ الله في نفوسهم الكمال الانساني.

وهم كذلك بعد حلف الفضول من غير فرق الا فرق الزمن الذي تختلف فيه اطوار المجتمعات ويختلف فيه تقبل الجمعيات لما يلقى اليهم من دعوات .

ومن هنا كانت الدعوة الى حلف الفضول في ذلك الحين أليق ما تكون في زمن من الازمان قبلئذ .

فكأنها والحكمة في الارتقاء الاجتماعي على موعد من ذلك الوقت بعينه ، وفي ذلك المجتمع بعينه ايضا لتنقلب الى فترة انتقال في ادوار الارتقاء الانساني ينكشف فيها بعض الغشاوات وينزاح بعض العقابيل .

كانت اغراض الحلف في بني هاشم صفة لا يفهم منها محيطهم وبيئتهم اكثر من صفات النجدة والحمية والطموح والكرم وما الى ذلك ، وفي هذه الصفات شيء من الروحية مبهم يفهمه العرب ضمنا او يكادون ، وهم في كل حال لا يفهمون منه اكثر من علل لامتياز الهاشميين على غموض تفاصيلها .

ولم يكن الهاشميون يعلنون عن هذه الصفات اغراضا في الحياة وان اعلنت عن سيرتهم ، وانما يدعونها وما هي في اذهان الناس وعرفهم لانها لا تتضح الا في حينها المفروض .

ولكنها تستمر وتطرد لتؤلف وتتطد .

فاذا امكنت فرصتها او ما يشبه ان يكون لها فرصة من الزمن والمجتمع أبدلها الهاشميون من صفة وسجية الى غرض ونظام ، لان ذلك ابلغ في الخلق واعون على اداء ما حملت نفوسهم من بر واصلاح .

ومن هنا كان حلف الفضول آخر اشكال النضج في صفاتهم واول اشكال الجهاد في دعوتهم .

وكان اعلانا ، لان صفاتهم انما كانت رياضة تنمو لتكون غرضا لا تصلح الانسانية الا به .

ثم كان تمهيدا ، لما ينتظر العالم من الرسالة المحمدية واعدادا للمجتمع الذي ينبعث فيه النور وينساح في مهاده فيبصر على ضوئه شيئا من الحداد ولونا من القيود .

فحلف الفضول بين يدي الرسالة العظمى واجب لا بد منه .

وحلف الفضول في امة تهزأ بالامانة والاخلاق والذمم لا بد منه .

وحلف الفضول في بلد يشرق منه النبي بأشعة السماء لا بد منه .

وحلف الفضول من رجل هاشمي يعم للنبي لا بد له قبل كل ذلك .

ولو انهم اعطوا هذه الامور حقها من الملاحظة يومئذ لما انكر على النبي منكر ، ولما احتاجت نبوة النبي الى دليل ، فان كل مقدماتها طبيعية محسوسة تنمو نموا لا يخطئه الادراك الصحيح .

شرفه التقليدي

ولعل من اتمام الفائدة واستيفاء البحث ان نلم المامة يسيرة بما لهذا

الحلف العظيم من مكانة في نظر معاصريه ، وفي نظر المتخلفين عنه .

وقد كان حقا على عصره وعلى العصور المنحدرة عنه ان تكبره وتضعه حيث يجب ان يوضع في مثل ذلك العصر الامي البدائي المتمرد ، وحلف الفضول في عصره وثبة انسانية ، وخطوة فكرية تكادان تلحقانه بالثورات الاصلاحية التي يعظم الناس أئمتها ، ويفضلون قادتها .

وانت كيف نظرت الى حلف الفضول بالقياس الى قمته في ذاته ، او بالقياس اليه في عصره فهو حلف كريم رفيع عظيم .

ولسنا نكبره وحدنا بعد ان بلونا الحياة في هذه العصور المتوالية . بل كان يكبره قبلنا الذين عاصروه واصطلوا وهجه الفكري الجديد .

وما استطاع اعداء هذا الحلف الذين يعادونه لانه يكبح من جماحهم ويلجم ارادتهم ، والذين يعاودونه لانه حلف هاشمي نهض به ابن عبد المطلب ، ما استطاع حتى هؤلاء ان يخفوا ما بنفوسهم من اكباره .

قال عتبة بن ربيعة الاموي : لو ان رجلا خرج مما عليه قومه لدخلت في حلف الفضول .

او قال لو ان رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى ادخل في حلف الفضول .

والذي يبدو للباحث حين يستمع الى عتبة يفضي بما في نفسه من حلف الفضول ، ان هذا الحلف سما في ايامه سموا رفعه في سياسة مكة يومئذ ، وكانت نعم الامن والرحمة والمساواة التي اصابت مكة ببركة هذا الحلف الجديد سببا في ارتفاع قدر مؤسسه ، واتساع جاهه ، ونفوذ سلطانه ، فكانت منفعته المادية تفسيرا لسموه المعنوي ، وعلوه الادبي ، ثم كانت المنفعة المادية والمنفعة المعنوية المتقاربتان مصدر هذه الكلمة يقولها رجل كعتبة الاموي .

وكان هذا الانطباع بعد كل هذه الملاحظات دليلا على ان هذا رأي

يصور النظرة العامة الى هذا الحلف يومئذ .

ثم كان لحلف الفضول معناه وفضله حين ظهر الاسلام ، وعلت كلمة الحق ، وكان المنظام المثالي ألق والتماع وسطوع .

اقول : ان حلف الفضول نور لم يخفت حين تدفق نور الاسلام وهو اشمل واسطع واعم ، بل بقيت ذبالته مسرجة تستمد من زيته المصفى هذا الرواء الصافي المشرق .

يقول النبي : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت الى مثله في الاسلام لأجبت .

وليس في صيغ الاقرار والتحبيذ ارسخ من هذه الصيغة وادل من هذا الاسلوب الذي يؤثر عن صاحب الرسالة ، وهو ما هو دقة في احكامه، واناة في نقضه وابرامه .

ثم كان من الحلف الذي اقره النبي في الاسلام ان ظل نافذ الاثر يتداعى اليه اقطابه بشعاره اذا مست الى ذلك حاجة .

من ذلك ان خلافا نشب بين الحسين عليه السلام وبين الوليد بن عتبة ــ والوليد امير المدينة يومئذ ــ في مال للحسين بذي المروة ، واراد الوليد ان يستطيل على هذا المال فيبتزه من الحسين ، ولما أحس الحسين منه ذلك رجع الى الفضول فقال :

أيستطيل الوليد علي بسلطانه ؟ اقسم بالله لينصفني من حقي ، او لآخذن سيفي ثم اقوم في مسجد الله فأدعو بحلف الفضول .

فبلغ صوته عبد الله بن الزبير فقال عبد الله :

احلف بالله لئن دعا به ، لآخذن سيفي ثم لاقومن معه حتى ينتصف او نموت جميعا .

فبلغ الصوت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك ، ثم بلغ الصوت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك .

وكان من نتيجة هذا التجاوب المدوي بحلف الفضول ان اقصر الوليد وتصاغر واذعن للحق .

* * *

ومن ذلك ان كلاما وقع بين الحسين عليه السلام ايضا وبين معاوية في ارض للحسين كانت لمعاوية فيها محاولات ، ولا نحب ان يخرجنا الاستطراد مما نحن فيه الى هذه المحاولات الاموية في الاملاك الحسينية ، وحسبنا ان نرى من هذه القصة الى نفوذ حلف الفضول .

قال الحسين لمعاوية : اختر مني ثلاث خصال ، اما ان تشتري مني حقي ، واما ان ترده علي ، او تجعل بيني وبينك حكما ، والا فالرابعة هي الصيلم .

قال معاوية : وما هي ؟

قال أهتف بحلف الفضول ، ثم انصرف مغضبا فمر بعبد الله بن الزبير فأخبره فقال :

والله لئن هتفت به وانا مضطجع لاقعدن ، او قاعد لاقومن او قائم لامشين ، او ماش لاسعين ، ثم لتنفذن روحي مع روحك أو ينصفنك .

ثم سرى النبأ ودوى صوت « الفضول » فوجد معاوية نفسه يقول : لا حاجة لنا بالصيلم .

* * *

وما نحتاج بعد هذه الامثلة القليلة الى الاطالة في سرد القصص والى تحوير البحث الى تاريخ وفهارس يجدها هواتها في مظانها من الكتب ، وحسبنا من هذه القصص ما دلت عليه من شرف هذا الحلف التقليدي الذي آمن به عصره ، ثم آمنت به عصور الاسلام المتطورة الناضجة ، ثم

لا يزال اهلا لان يؤمن به كل عصر ويدين بمبدئه واريحيته .

وحسبنا بعد هذا كله من الترجمة للزبير انــه صاحب حلف الفضول فما نحسب ان ترجمة مهما بلغت من الدقة والاتقان والتوفر تصور لنا مــا يصوره لنا حلف الفضول هذا .

الخاتمة

هذه نهلات من التاريخ الهاشمي زقها القلم ، وهو يعود بنا وقد انتهينا من هذا الجزء من كتابنا ، ليقول مرة ثانية اني صدرت عن البحث والتتبع ، وقد دلني البحث على ان هاشما وبنيه هم هؤلاء الهداة المصلحون المفكرون العباقرة .

فهم نفر خلقوا ليكونوا أئمة خير يعملون به ويدعون اليه ، فلا تجد فضيلة من فضائل الحياة في عقيدة او فكر او اصلاح الا كانوا مفاتيحها والادلاء عليها .

وفي هذه النهلات الدليل على انهم اسس لنواح من الحياة ما كانت لتعرف لولاهم في ايام الجاهلية . وما كانت تعرف ذهنا يضيق بالمنكر . او نفسا تألم بالمكروه ، او روحا تتململ بالقيود ، او فكرا يجد للناس مندوحة عن ضيق وألم وتململ .

ولكنهم كانوا ، فكانت السعة الاقتصادية ، والنظم الاخلاقية .

وكانوا فكان التشريع ، والري ، والعقائد .

وكانوا فكانت العهود والضمانات العادلة الحقة في بروتوكولات سياسية ودبلوماسية وادارية دلت على امتيازهم بكل ما يمتاز به المصلحون

المجدون الواعون .

هذا ما اردنا ان نوضحه في هذا الجزء من الكتاب ، فان بلغنا به من نفس القارىء مبلغا فذلك قصارى ما نأمل ، وما لم نترك فيه من وسيلة نستطيعها ، واذا فرط منا القارىء فانا نحتسبه مع الكثير ممن فرط ومما فرط من ايدينا متمنين لنا وله التوفيق .

الفهرست